# الظاهر والباطن

## دراسة فلسفة الصراع بين الصوفية والفقهاء وإمكانية اللقاء


دكتور

علي إسماعيل الجدة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهر



١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

## أقوال العلماء في معنى البحث

١ ــ يقول الشيخ أحمد الرفاعي ت ٥٧٨ هـ

" الظاهر خراف الباطن ــ والباطن لب الظاهر والدين جامع لهما "

البرهان المؤيد له ٦١

٢ ــ ويقول الشيخ أحمد زروق ت ٨٩٩ هـ

الفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى "

قواعد التصوف له ٣٥

٣ ــ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ت ٧٢٨ هـ

" من ادعى علماً باطناً يخالف العلم الظاهري كان مخطئاً "

ومن قال إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن فقد كفر وهو أشر من اليهود والنصارى "

مجموع الفتاوى له ج ٢٢٥/١١ ، ٢٣٥/١٣ .

٤ ــ ويقول الإمام الغزالي ت ٥٠٥ هـ

" من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان "

إحياء علوم الدين ج ١٠٠/١ .

## ٣

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد .

الكون كله أسرار ، يعلمها البعض لظهورها ، ويجهلها البعض الآخر لخفائها .

والإنسان وهو محور الوجود وركيزته الأساسية ، سر هو الآخر . له ظاهر وباطن . ظاهر واضح جلي وباطن غامض خفي ، وللنفس صوتها الخفي وصوتها المسموع ، ولها دوافعها النفسية الداخلية وأفعالها الأخلاقية الخارجية والعالم قسمان : عالم الغيب وعالم الشهادة ، ومهما بالغ الحسيّون في الاعتماد على المادة والتجربة إلا أنهم يفسحون المجال للحدس الباطني للعبور من الملاحظات الخارجية إلى الغرض التفسيري الذي هو تصور باطني يكشف عن خفايا التجربة أو الربط بين الظواهر ، فالنظرة الصحيحة هي التي تتجاوز سطح الماء أو غياب الظاهر للتعرف على خفايا الباطن وهي التي توقن أن للدين جانباً عملياً ظاهرياً وآخر باطنياً تصديقياً [١] .

وقد حاول الصوفية أن يقدموا لنا معنى للباطن ويفسروه بما يتفق مع منهجيتهم وفعلاً قدموا لنا رؤى مختلفة ولكن الفقهاء عارضوهم في ذلك معارضة شديدة لأن الباطن أمر اعتباري لا يخضع للضوابط والمعايير العلمية لأنه معرفة فردية وتجربة ذاتية .

لا يمكن تعميمها أو نقلها للآخرين وهذه المعارضة سببها منهجية الفريقين .

---

(١) انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج ١٩٦/٢ مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا .

فالفقهاء اعتمدوا على النظر والاستدلال والصوفية اعتمدوا على الذوق والعرفان .

وتمسك كل فريق بمنهجه وحاول أن يفسر النص في إطار هذه المنهجية .

فالفقهاء وقفوا عند الظاهر بفهم ، والصوفية تجاوزوا الظاهر إلى الباطن بتأويل والفهم والتأويل اجتهاد بشري في النص ، ولا حرج فيهما ولا إشكال طالما أنهما في إطار الضوابط والمعايير التي وضعها العلماء الثقات ، ولكل فريق قناعته الخاصة ، وهذه القناعات إرث ثقافي وتاريخي قديم ونحن نحترم هذه القناعات شريطة أن لا تؤدي إلى نزاعات أو صراعات ولكن المشكلة تكمن في أن الفقهاء رأوا شططاً في استعمال الصوفية للباطن ، وخاصة الصوفية الفلسفية ، والصوفية رأوا جموداً في استعمال الفقهاء للظاهر .

ومن ثم أنكر الفقهاء على الصوفية وأنكر الصوفية على الفقهاء فوقع الخلاف واحتدم النزاع وتأجج الصراع بين الفريقين وكثيراً ما تطور الصراع إلى حد الدّس والكيد والقتل ، كما يقول أحد الباحثين [١] .

وهنا تكمن الخطورة ، وفي الخطورة تظهر أهمية هذا الموضوع وجديته .

وإنكار الفقهاء علم الباطن عند الصوفية لا يعني رفضه جملة وتفصيلاً ، وإنما منه المقبول والمردود ، والمقبول منه ما وافق الكتاب والسنة وجرى على لسان العرب بقواعدهم ،وأقرها أهل العقول الراجحة والأفهام الثاقبة[٢]

---

(١) السابق ج ٢٧٩/٢ .

(٢) انظر الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ج ٣٩٤/٣ تحقيق الشيخ محمد عبد الله دراز دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ط١٣٩٥/٢هـ/١٩٧٥م.

والمردود منه ما خالف هذه الشروط ، وهذه الدعوة أساسية لحسم الخلاف ورأب النزاع وإنهاء الصراع ولو تحاكم الفريقان إليها وفق المعايير الشرعية والضوابط العقلية لأمكن اللقاء وحصل الوفاق لأن الفقه كما هو معلوم من العلوم الشرعية والتصوف كذلك .

يقول ابن خلدون " والتصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة الإسلامية " (١)

والعلم الشرعي لا يتعارض مع العلم الشرعي ، فلم يبق أمامنا إلا الفقهاء والصوفية ولذلك جعلنا عنوان البحث :

**" الظاهر والباطن ــ دراسة فلسفة الصراع بين الصوفية والفقهاء وإمكانية اللقاء " .**

وإذا كان جمهور الفقهاء يحتكم إلى القاعدة السابقة ويحكم بها والمعتدلون من الصوفية يحتكمون إليها كذلك ، فلم يبق أمامنا إلا الغلاة والغلاة هم أساس كل شر وبلية ، فانحصر النزاع والصراع بين الفقهاء والغلاة من الصوفية والغلاة لا يختصون بزمان معني أو مكان محدد وإنما هم على مدار التاريخ وفي كل عصر ومصر ، بدءاً من نشأة التصوف وانتهاءً بالعصر الحديث .

وقد اقتضى الأمر أن يكون المنهج المناسب لهذا البحث " المنهج الاستردادي والتحليلي معاً " الاستردادي لمعرفة سير المسألة بداية ونهاية والتحليلي لمعرفة مكوناتها وعناصرها ومقدماتها ونتائجها .

وجاء البحث بعون الله مكوناً من ستة مباحث مسبوقاً بمقدمة ومعقوباً بخاتمة .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون ٤٣٢ ؛ تحقيق د/ محمد الإسكندراني دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان ط ١٤١٧/١هـ ـ ١٩٩٦م .

ـ المقدمة وفيها : تصوير للموضوع وإبراز أهميته ومنهجيته .

ـ والمبحث الأول : جعلت عنوانه تعريف الظاهر والباطن في اللغة والإصطلاح .

ـ والمبحث الثاني : جعلت عنوانه الأدلة على الظاهر والباطن والرّد على المنكرين .

ـ والمبحث الثالث : جعلت عنوانه منهج الفقهاء والصوفية .

ـ والمبحث الرابع : جعلت عنوانه الصراع بين الفقهاء والصوفية .

ـ والمبحث الخامس : جعلت عنوانه ضحايا الصراع من الصوفية .

ـ والمبحث السادس : جعلت عنوانه إمكانية اللقاء بين الفريقين .

ـ والخاتمة : وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث .

وفي ختام بحثي ....

أدعو الله تبارك وتعالى أن يوفقني في تقديم رؤية إسلامية صحيحة لعلاج هذه المشكلة وحل هذه المعضلة التي مكثت قروناً طويلة وراح ضحيتها جماعة من الصوفية .

جعلنا الله من الذين يعلمون فيعملون ويعملون فيخلصون ويخلصون فيقبلون وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث

علي إسماعيل الجدة

أستاذ م العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

## المبحث الأول

## " معنى الظاهر والباطن في اللغة والاصطلاح "

### أولاً : معناهما في اللغة :

جاء في لسان العرب لجمال الدين بن منظور " مادة ظَهَرَ " الظاهر خلاف الباطن . ظهر يظهر ظهوراً . فهو ظاهر وظهير . قال أبو ذؤيب :

فإن بنى لحيانَ إمّا ذكرتهم ∴ ثناهم إذا أضنى اللئام ظهيـــر

... وقوله تعالى : ﴿ **وذروا ظاهر الإثـم وباطنـه** ﴾ [١] قيل ظاهره : المخالفة على جهة الريبة ، وباطنه : الزنا . قال الزجاج : والذي يدل عليه الكلام ... أن المعنى : اتركوا الإثم ظهراً وبطناً . أي لا تقربوا ما حرم الله جهراً ولا سراً .

والظاهر : من أسماء الله عز وجل . وفي التنزيل العزيز : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ [٢] قال ابن الأثير وهو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه . وقيل عرف بطريق الاستدلال العقلي بما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه [٣] كما جاء عنده في مادة " بطن " والباطن : من أسماء الله تعالى ، وفي التنزيل العزيز ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ [٤] ومعناه أنه علم السرائر والخفيات . كما علم كل ما هو ظاهر الخلق . وقيل الباطن هو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر ولا يحيط به وهم .

---

(١) الأنعام آية ١٢١ .

(٢) الحديد آية ٣ .

(٣) انظر لسان العرب لجمال الدين بن منظور ج ٣٦/٦ طبع دار الحديث . القاهرة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

(٤) الحديد اية ٣ .

وقيل : هو العالم بكل ما بطن . يقال : بطنت الأمر إذا عرفت باطنه وقوله : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ [١] فسره ثعلب فقال : ظاهره المخالة وباطنه الزنا . وهو مذكور في موضعه . والباطنة : خلاف الظاهرة . والبطانة : خلاف الظهارة . وبطانة الرجل خاصته .

والباطن من كل شيء : جوفه . والجمع كالجمع ، وفي صفة القرآن العزيز لكل آية منها ظهر وبطن . أراد بالظهر ما ظهر بيانه وبالبطن من احتيج إلى تفسير كالباطن . خلاف الظاهر والجمع بواطن .. " [٢]

وفي الصحاح " ظهر " الظهر خلاف البطن . وقولهم : لا تجعل حاجتي بظهر أي لا تنسها ... والظاهر خلاف الباطن . والظاهرة من العيون : الجاحظة .... وظهر الشيء ظهوراً : تبين . وظهرت على الرجل : غلبته ، وظهرت البيت : علوته ... وأظهرت الشيء : بيّنته [٣]

ويقول الرازي " والظاهر ضد الباطن . وظهر الشيء : تبين ... وأظهر الشيء : بيّنه " والباطن : البطن : ضد الظهر ... واستبطن الشيء : دخل في بطنه ... واستبطن الشيء أخفاه واستبطن الشيء : طلب ما في بطنه ... " [٤]

واضح من كلام أعلام اللغة المتقدمين أن الظاهر خلاف الباطن ، والباطن خلاف الظاهر فاللفظان متضادان . والظاهر هو الواضح البيّن . ويخالف في ذلك العلاّمة الجرجاني الذي يقول " الظاهر " اسم لكلام ظهر

---

(١) الأنعام آية ١٢١ .

(٢) انظر لسان العرب ج ٤٤٦/١ .

(٣) انظر الصحاح في اللغة والعلوم . تجديد صحاح العلامة الجوهري مادة ظهر ٦٩٦ ، ٦٩٧ اعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي دار الحضارة العربية بيروت ط ١٩٧٥/١م .

(٤) انظر مختار الصحاح لمحمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٥٦ ، ٥٧ الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط ١٩٦٧/١ م .

المراد منه للسامع بنفس الصيغة .ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص " [١]

والظاهر إن احتاج للتأويل والتخصيص خرج من دائرة الوضوح والبيان إلى دائرة الخفاء والإبهام . وعندئذ يكون قريباً من الباطن ، والذي يعني الغموض والخفاء والإبهام . وقد يكون ذلك سبباً لعدم الاستقرار على معنى اصطلاحي معين يتفق عليه العلماء .

**ثانيا : معنى الظاهر والباطن في الاصطلاح :**

يطلق الظاهر ويراد به اصطلاحاً عند الصوفية " علم الأعمال الظاهرة والذي هو على الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء [٢] .

وفي موسوعة الكسنزان علم الظاهر " هو علم الشريعة المتعلق بالأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة وهي العبادات والأحكام الشرعية ... " [٣]

وأما الباطن فمختلف فيه . وباستقراء التعريفات الاصطلاحية نجد أن للباطن تعريفين . الأول : يدور حول الجارحة الباطنة وهي القلب . والثاني : يدور حول معنى الكشف على اعتبار أن القلب محله وبينهما فرق كبير .

والتعريف الأول يقول عنه السراج الطوسي في كتابه اللمع " فإذا قلنا علم الباطن . أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة وهي القلب كما إذا قلنا علم الظاهر اشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي

---

(١) انظر التعريفات للعلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني ١٢٧ مكتبة لبنان بيروت ١٩٦٩م .

(٢) انظر معجم مصطلحات الصوفية د عبد المنعم الحفني باب الضاء دار المسيرة بيروت لبنان ط ٢ ١٩٨٧م .

(٣) انظر موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه اهل التصوف والعرفان الشيخ محمد الكسنزان الحسيني مادة ظهر ج ٩ ٣٨٠ دار المحبة دمشق ودار اية بيروت لبنان ط الاولى .

هي على الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء [١]

ثم يقول " فعلم الباطن هو العلم المستنبط وهو علم أهل التصوف لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث " [٢] ويعبر الصوفية عن هذا العلم المستنبط بأنه نور ينشرح له القلب وتنبسط له الجوارح ويزداد به اليقين" [٣]

وجاء في موسوعة الكسنزان أن علم الباطن : هو العلم المتعلق بالأعمال الباطنة " أعمال القلوب " وهي المقامات والأحوال مثل : التصديق ــ الإيمان ــ اليقين ــ المعرفة ــ التوكل ــ المحبة ــ الرضا ــ الذكر ــ الشكر ــ الإنابة ــ التقوى ... الخ [٤]

وتخصيص علم الباطن بالعلم الذي يعتني بالقلوب وأحوالها درج عليه كثير من الباحثين ، فقد ذكره الدكتور محمد مصطفى حلمي [٥] والدكتور التفتازاني [٦] والدكتور أحمد محمود صبحي [٧] .

وتعريف علم الباطن بهذا التعريف لا اعتراض عليه لأنه يطلق في مقابل الظاهر الذي اختص بالجوارح الظاهرة . فصار الباطن علماً على الجارحة الباطنية وهي القلب .

---

(١) انظر اللمع لأبي نصر السراج الطوسي ٤٤ تحقيق وتعليق د/ عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور دار الكتب الحديثة القاهرة ط ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م .

(٢) السابق ٤٤ .

(٣) انظر معجم الصوفية ممدوح الذوبي ٢٩٥ دار الجيل بيروت لبنان ط ١ ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م وأعلام التصوف طه عبد الباقي سرور ج ٤٣/٢ بتصرف مكتبة نهضة مصر القاهرة والتصوف والحياة الشيخ عبد الباري الندوي ١٨٠ تقديم الشيخ أبو الحسن الندوي دار الفارابي للمعارف سورية ط ١٤٢٣/١هـ ـ ٢٠٠٣م .

(٤) انظر موسوعة السكنزان ج ٢٩١/٣ م . س .

(٥) انظر الحياة الروحية في الإسلام د/ محمد مصطفى حلمي ١١٧ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤م .

(٦) انظر المدخل إلى علم التصوف د/ أبو الوفا التفتازاني ٩٧ هامش ١ دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ط ٣/١ ١٩٧٩م .

(٧) انظر الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي . الذوقيون والعقليون أو النظر والعمل د/ أحمد محمود صبحي ٢٨٧ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ط ٢٠٠٠م .

وكان الصوفية يشيرون بذلك إلى أن علم الظاهر هو علم الشريعة المتعلق بالجوارح الظاهرة ، وإلى أن علم الباطن هو علم الحقيقة المتعلق بالجارحة الباطنة وهي القلب ، ولكل منهما أهله وعلماؤه ، يقول الدكتور أبو العلا عفيفي : " علم الباطن هو لسان الحقيقة على حد تعبير الصوفية أنفسهم . وهذا العلم له لغته التي لا يستقل العقل بفهمها ، لأنها لا تدخل في نطاقه ولا تقع تحت مقولاته وهو في مقابل علم الظاهر والذي هو لسان الشريعة وهو علم عامة الخلق والفقهاء والمتكلمون .. " (١)

وهناك من الصوفية من جمع بينهما وهو الأصل وعليه الأكثرية فحقق بذلك معنى العبادة التي أمر الله بها في قوله ﴿ **وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون** ﴾ (٢) فالعبادة كما يقول ابن تيمية اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة " (٣) .

وقلة أخرى جعلت للظاهر أهله وللباطن أهله وهذا ما يحدث من ابن عربي فإنه يتكلم بلسان الباطن الذي هو في الحقيقة لسان مذهبه ويترك الظاهر الذي يعبر عن عقيدة العوام فهو يقابل دائماً بين هذين اللسانين كما يقابل بين العقل والذوق : " العقل الذي هو لسان الظاهر والذوق الذي هو لسان الباطن " (٤)

والفصل بين الأمرين من الأمور المستحدثة شرعاً المتأخرة زماناً وإلا فالمتقدمون منهم خير من جمع بينهما وحقق ذلك علماً وعملاً .

---

(١) انظر الكتاب التذكاري " محي الدين بن عربي " في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده د ابراهيم بيومي مدكور ٧ دار الكتاب العربي ١٩٦٩م .

(٢) الذاريات اية ٥٦ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٠ / ١٤٩ جمع وترتيب عبد الرحمن بن أبي قاسم .

(٤) انظر مقدمة الفصوص لمحي الدين بن عربي للدكتور أبو العلا عفيفي ١٤ دار الفكر العربي القاهرة د ت .

**التعريف الثاني** : يقول فيه الإمام الغزالي ت ٥٠٥ هـ " إن علم الباطن : هو غاية العلوم ... وهو علم الصديقين والمقربين ... وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كأن يسمع من قبل أسماءً فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة . فتتضح إذ داك حتى تحصل المعرفة الحقيقية ثم ضرب أمثلة لذلك .. ثم قال مفصحاً عن مراده ومقصوده من العلم الباطني بأنه الكشف " ونعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه . وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا . وإنما نعني بعلم طريق الآخرة . العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله تعالى .. ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعها .. وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها إلا من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار وهذا هو العلم الخفي ... " [١]

ويلاحظ على تعريف الإمام الغزالي عدة ملاحظات :

**الملاحظة الأولى** : أنه يسمى علم الباطن بغاية العلوم وهو علم الآخرة في مقابل علم الدنيا وهو علم الفقه حيث جعل الفقه من العلوم الدنيوية والفقهاء علماء الدنيا [٢] وهذا ليس صحيحا على إطلاقه .

---

(١) انظر احياء علوم الدين للإمام ابي حامد الغزالي ج ٣٤/١ ، ٣٥ عالم الفكر بيروت لبنان د ت .

(٢) احياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ١ ٣٠ وكذلك بحث الشيخ فكري يسن هل يعد الفقه من علوم الدنيا ؟ راى الإمام الغزالي في ذلك ومناقشته مجلة الازهر المجلد الثامن عشر ١٥٠ .

**الثانية** : أنه يسميه علم المكاشفة وعلم المكاشفة مبني على الأذواق والمواجيد وهو علم نسبي يختلف من شخص إلى شخص ومن إنسان إلى إنسان وتفسير الإمام الغزالي له بذلك يجعله مشكلاً وخاصة إذا قابلناه بعلم محدود هو الفقه عند المتأخرين وليست المسألة محصورة في كون العلم الباطني هو علم المكاشفة بل في رده إلى علم التصوف ، لأن علم التصوف عند الغزالي من العلوم الباطنية ، فالتصرف عنده أمر باطني .

يقول " والتصوف أمر باطني لا يُطلع عليه " [١] فردُّ العلم الباطني إلى المكاشفة أو إلى التصوف مطلقاً مشكل لأنه ردّ إلى أمر غير محدود ومعلوم . وحديث الإمام عن الكشف والمكاشفة في الإحياء عن المسائل التي أخذت عليه [٢] . وعدّ الشيخ القرضاوي وغيره هذه القضية من أخطر ما يؤخذ على الإمام الغزالي [٣] .

**الثالثة** : أنه ليس من العلوم الكسبية التي تنال بالعلم والمعلم وتؤخذ من الكتب يعني باختصار علم وهبي وإن قلنا إنه يقترب من العلم اللّدني لما أبعدنا " [٤]

فالغزالي بهذا أخفى بعد ما أوضح وأبهم بعد ما بيّن . ويقول محي الدين بن عربي في تعريفه " أنه العلم الموهوب الذي لا ميزان له " [٥]

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٢٤/٣ وكذلك نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد فتاح ١١٧ ط المكتب الإسلامي ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٢) انظر الإمام الغزالي الأستاذ صالح الشامي ١٨١ دار القلم دمشق ط ١٤١٣/١هـ - ١٩٩٣م .

(٣) انظر الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه د/ يوسف القرضاوي ١٣٩ ط الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م والإمام الغزالي وجهوده في التجديد والإصلاح د/ علي محمد الصلابي ١٧ مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع القاهرة ط ١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٧م .

(٤) انظر إحياء علوم الدين ج ٢٤/٣ ، ٢٠٠٧م .

(٥) انظر الفتوحات المكية محي الدين بن عربي ج ١ ٥٧٦ دار الفكر .

ويعني ذلك أنه علم ليس له ضوابط ولا معايير طالما أنه وهبي من الوهاب ويذكر أحد الباحثين أن العلوم تنقسم عند محي الدين بن عربي إلى ثلاثة أقسام : " علم العقل وعلم الأحوال والأسرار وهذا الأخير هو علم المتصوفة وحدهم وعلم المشاهدة والمكاشفة العلم الجامع المحيط الشامل للمعارف كلها .. " (١) .

ويعرفه الإمام الشعراني ت ٩٧٣هـ فيقول " علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين علموا بما علموه من أحكامها .. " (٢)

والشعراني رحمه الله ردّ هذا العلم إلى الولي وجعله خاصاً فلا يكون إلا له والولي مختلف في تعريفه (٣) وهذا العلم الذي ينقدح في قلوب الأولياء متوقف على مشيئة الله وفضله وحظهم فيه دائر بين الكثرة والقلة والزيادة والنقصان فكيف يكون التعويل عليه ؟ (٤)

---

(١) محي الدين بن عربي طه عبد الباقي سرور ٩٤ مكتبة الأنجلو المصرية ط ١٩٥٥/٢م

(٢) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار المشهور بالطبقات الكبرى الشيخ عبد الوهاب الشعراني ج ٤١/١ تحقيق الشيخ عبد الرحمن حسن محمود مكتبة الآداب القاهرة ط ١٤١٤/١هـ - ١٩٩٣م .

(٣) اختلف العلماء في تعريف الولي - فهناك من يقول : الولي هو المسلم والأولياء هم المسلمون . وهناك من يقول - هو الصوفي - وهناك من يقول : هو الشريف : ثم إن له معنى عند اهل السنة والجماعة : وهو كل مومن تقي - وعند الصوفية - هو الصوفي كما أن له معنى عند الشيعة انظر في ذلك خطر الولي على حديث الولي للإمام محمد بن علي الشوكاني ١٩ تقديم وتحقيق د/ ابراهيم هلال والموسوعة الصوفية د/عبد المنعم الحفني ١٣٤٢هـ - ١٣٤٨هـ ط مكتبة مدبولي القاهرة ٥/٢٠٠٦م ومعجم الصوفية ممدوح الشرنوبي ٤٣٤ دار الجيل بيروت .

(٤) انظر منهج البحث عن اليقين بين السلف والصوفية د/ عبد المقصود عبد الغني ٦١ مكتبة الزهراء القاهرة ١٩٩٣م .

كما أنه عرفه من خلال التصوف الطرقي ، والتصوف الطرقي بعـدد أنفاس الخلائق كما قيل ولذلك قال " إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحـر فيها أعطاه الله قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآداباً ومحرمات ومكروهات " (١)

ولعل ما يشفع لهذا التعريف ما ذكر فيه أنه نتيجة العمل بالكتاب والسنة(٢) ويعرفه الأستاذ محمد غازي عرابي (٣) بتعريف مقارب لما تقدم ويجعلـه خاصاً لمن ذري الله عنهم إلا أنه جعل هذه الخصوصية لأهل الصفة فيقول " علم الباطن : علم يعتمد على ما يلقى الله على عبده من خاطر يكون بـه جواب المسائل وهو علم خاص بمن رضي الله عنهم من أهل الصفة وسمي هؤلاء محدثون ومنهم عمر رضي الله عنه الذي أفتى بقتل الأسرى وخالفه النبي فنزل الوحي مؤيداً عمراً ، ثم أفتى بحجاب أزواج الرسول ﷺ فنزل مؤيداً إياه . والحق أن الوحي الذي هبط على الرسول هو الـوحي الـذي أوحى إلى عمر مثلما أوحى إلى أم موسى أن تقذف برضيعها في التابوت ثم تقذفه في اليم . فأنت ترى أن القضية خارجة عن نطاق المألوف حتـى أن الرسول نفسه لم يرض بفتوى عمر حتى أيده الله .. كما أنه يسـتحيل تصور أن تقذف أم رضيعا لها في اليم علماً أن هـذا مخـالف لمشـاعر الأمومة " (٤)

---

(١) انظر المعرفة الصوفية أداتها ومنهجها وموضوعها وغايتها عند الصوفية المسلمين د. أبو الوفا التفتازاني مقال لمجلة الرسالة ٥٥١ ع ٩٣٣ شعبان ١٣٧٠ هـ / ١٤ / ٥ / ١٩٥١م السنة التاسعة عشر . والطبقات الكبرى ج ٤١/١ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٤١/١ .

(٣) كاتب وباحث صوفي سوري معاصر له مولفات منها فتح الوجود . العرفان الصوفي كالغزالي وابن عربي . وعلم الكشف . والنصوص في مصطلحات التصوف وغير ذلك .

(٤) النصوص في مصطلحات التصوف محمد غازي عرابي ٢٣٦ دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ١٩٨٥م .

ثم ينتهي إلى خلاصة التعريف قائلاً " فالعلم الباطني : علم خاص بـه سبحانه يختص به من يشاء من عباده " [١] . والتعريف يدور حول معنـى الكشف " فما يلقيه الله على عبده من خاطر وما يخصه به " لا يكـون إلا كشفاً بيد أن عمر رضي الله عنه لم يكن من أهل الصُفة ولم يوحي إليه إلا أن يكون ذلك بالمعنى اللغوي وهو الإلهام وكاتب النصوص اعتمـد فـي كتابه عليه [٢] وجعله منهاجاً له .

ويعرفه باحث آخر معاصر فيقول " يريد الصوفية بالباطن حقيقة مـا يهدفون إليه من العبادات والمعتقدات السامية كما يرون فيه الوصول إلـى كمال التوحيد والمعرفة . والمعرفة عندهم كشف حجـب الحـس ليصـل المحجوب بعد رفعها عنه إلى ما وراء الحس من معـاني وهـذا لا يـتم الوصول إليه إلا بحسن اليقين وكمال الدين والمجاهدة .. " [٣]

وهذه التعريفات التي تدور حول الكشف وما في معناه لا يمكن مقابلتها بالظاهر المقيد بالجوارح الظاهرة . والصوفيون القائلون بذلك يريدون علماً خاصاً بهم لا يشاركهم فيه عامة العلماء وعامة المسـلمين وإحالـة علـم الباطن إلى الكشف إحالة إلى أمر نسبي ليس له ضوابط ولا معايير لأنه لا يحتكم إلى العقل ولا يقاس بقوانين الطبيعة . وهنا ما انتهى إليـه الأسـتاذ أحمد علي زهرة حيث قال " والعلم عند الصوفية هو علم الباطن لأن علم الظاهر معروف بقوانين الطبيعة ، أما علم الباطن فـلا يقـاس بقـوانين الطبيعة " [٤]

---

(١) السابق ٢٣٦ .

(٢) مقدمة النصوص محمد غازي عرابي ٥ .

(٣) انظر الظاهر والباطن فلسفة التأويل في الديانات السماوية أحمد علي زهرة ٢٠٧ ط نيتوي للدراسات والنشر والتوزيع ط ٢٠٠٥/١م وقد نقل ذلك عن الظاهر والباطن في الإسلام للأستاذ محمد علي حلوم .

(٤) انظر الظاهر والباطن فلسفة التأويل في الديانات السماوية أحمد علي زهرة ٢٠٩ .

ويجعل طريقته المعرفة الحدسية التي تعتمد على القلب لا المعرفة الحسية التي تعتمد على العقل " وهذه المعرفة يفترض الصوفية أنها طريقة قلبية تتحلى بالحب وبأسمى مظاهره التي تسمو عن الحب الحسي الذي لا يقدم المعارف الحقيقية بشكلها الصحيح [١] .

وهذا يعني أن العقل لا مجال له هنا ونسى هؤلاء المعرفون أن المكاشفة بهذا تجارب شخصية ذاتية لا يمكن تعميمها ، هذا إذا اعتمدناها كشفاً رحمانياً لا كشفاً شيطانياً ولذلك كانت دقة العلماء في شرطهم عرض الكشف على المعيار الصحيح والميزان الدقيق ميزان الكتاب والسنة [٢] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية " إن الكلام في هذا العلم يدخل فيه من الحق والباطل ما لا يدخل في غيره ، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو باطل " [٣] .

ويفرق شيخ الإسلام بين علم الباطن الذي يجعله الصوفية خاصاً بهم ويخفي عن كثير من الناس أو عن بعضهم بين نوعين :

أحدهما : باطن يخالف العلم الظاهر ، والثاني لا يخالفه . فأما الأول فباطل ، فمن ادعى علماً باطناً أو علماً بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطئا . وأما الثاني فهو بمنزلة الكلام في العلم الظاهر قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً . فإن الباطن إذا لم يخالف الظاهر لم يعلم بطلانه من جهة

---

(١) السابق ٢٠٧ .

(٢) راجع في ذلك اللمع للطوسي ٤٢٢ وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ١٠٤/١ ، ج ١٩/٣ والأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية الشيخ عبد الوهاب الشعراني ٤٥ دار المعرفة بيروت لبنان ط ١٤٢٧/١هـ - ٢٠٠٦م وجهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرّد على الصوفية د/ محمد بن أحمد بن علي الوجير ١٨٨ مكتبة الرشد ناشرون ط ١٤٢٤/١هـ - ٢٠٠٣م والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية صادق سليم صادق ٢٢٣ - ٣١٢ مكتبة الرشد بالرياض ط ١٤١٥/١هـ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٢٣٥٦/١٣ مكتبة المعارف - الرباط - المغرب .

مخالفته للظاهر المعلوم . فإن عُلم أنه حق قبل ، وإن عُلم أنـــه باطـــل ردّ وإلا أمسك عنه ، وأما الباطن المخالف للظاهر المعلوم فمثل مـــا يدعيـــه الباطنية القرامطة من الإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم ، فمن وافقهم مـــن الفلاسفة وغلاة المتصوفة والمتكلمين [١] . فالباطن الذي يخالف الظـــاهر مردود والذي يوافقه مقبول وضرب مثلا للمخالف بمـــا يدعيـــه الباطنيـــة القرامطة ومن وافقهم من الفلاسفة وغلاة الصوفية والمتكلمين " [٢]

فالظاهر حكم على الباطن لا العكس وهذا هو الحكم الصحيح والمنهج السديد سواء كان من يمثل الظاهر الفقهاء أم غيرهم ولذلك كـــان الشـــيخ زروق دقيقاً ومصيباً عندما جعل الفقهاء والذين يمثلون علم الظاهر حكمـــاً على الصوفية الذين يمثلون علم الباطن فقال " فمن ثم صح إنكـــار الفقيـــه على الصوفي ، ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجـــوع مـــن التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه " [٣]

وإذا كان الفقيه حكماً على الصوفي فما المقصود بالباطن عنده ؟

يستخدم الصوفية الرمز والإشارة أحياناً وصولاً إلى مقصودهم بحجـــة أن اللغة لا تفي بالتعبير عن المراد وما يشعرون به من أذواق ومواجيد أو ضناً بما يقولون عمن ليسوا أهلاً له.يقول الدكتور أبو العلا عفيفي"وإذا كان استعمال لغة الرموز والإشارات والتحدث بلسان الباطن من أسباب غموض لغة الصوفية بوجه عام فهي كذلك بوجه خاص في لغة ابن عربي [٤]

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٣/٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٢) السابق ج ١٣/٢٣٦ .

(٣) انظر قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة الشيخ أحمد زروق البرنسي الفاسي ٣٩ تحقيق عثمان الحويمدي دار القلم بيروت لبنان ط ١/١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

(٤) انظر مقدمة فصوص الحكم لابن عربي د/أبو العلا عفيفي ١٦ والكتاب التذكاري محي الدين بن عربي في الذكرى المئوية لميلاده د/ابراهيم بيومي مدكور ٧ ونشأة الفلسفة الوصفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد فتاح ٦٦ - ٧٢ .

والذي تسمية الصوفية إشارة ورمزاً يسميه الفقهاء قياساً كمعنى ولذلك يقول شيخ الإسلام في تأويل الصوفية الباطنية أنه ينقسم إلى قسمين :

" أحدهما .... والثاني أن يجعل ذلك من باب الاعتبار والقياس لا من باب دلالة اللفظ . فهذا من نوع القياس . فالذي تسميه الفقهاء قياساً هو الذي تسميه الصوفية إشارة " (١)

والإشارة منها المقبول والمردود ، فما كان موافقاً للكتاب والسنة فمقبول وما كان مخالفاً فمردود وكذلك القياس إلى صحيح مقبول وباطل مردود (٢) .

فالباطن عند الصوفية بقسميه المقبول والمردود نظير ما عند الفقهاء بقسميه المقبول والمردود . بيد أنه قياس معنى لا لفظ كما يقول شيخ الإسلام (٣)

ويعرّف الشاطبي ت ٧٩٠ هـ وهو أصولي وفقيه مالكي ــ الظاهر ــ : بأنه ظاهر التلاوة والباطن وهو الفهم عن الله مراده لأن الله تعالى قال : **﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾** (٤) والمعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام كيف وهو منزل بلسانهم ؟ ولكن لم يحظوا بفهم مراد الله من الكلام .. " (٥)

ثم يقول " وحاصل هذا الكلام أن المراد بالظاهر هو المفهوم العربي . والباطن : هذه العبارة " هل للقرآن ظاهر وباطن ؟ ما فسر فصحيح ولا

---

(١) مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٤١/١٣ ، ٢٤٢ .
(٢) السابق ج ٢٤٢/١٣ .
(٣) السابق ج ٢٤٢/١٣ .
(٤) النساء اية ٧٨ .
(٥) انظر الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ج ٣٨٢/٣ ، ٣٨٣ تحقيق الشيخ محمد عبد الله دراز دار المعرفة بيروت لبنان ط ١٣٩٥/٣ ـ ١٩٧٥م .

نزاع فيه وأن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوماً عند الصحابة ومن بعدهم فلابد من دليل قطعي يثبت هذه الدعوى لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب فلا يكون ظنياً " [١] .

ولما كان أصحاب كل علم وفن يدعون أنهم يجتهدون وصولاً لفهم مراد الله من خطان . وضع الفقهاء لذلك شروطاً كانت قيوداً للصوفية : إن التزموا بها كان الباطن عندهم مقبولاً وإلا كان مردوداً . الأول : أن يكون على مقتضى الظاهر المعروف المقرر في لسان العرب ويجري على المقاصد العربية .. الثاني أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض " [٢]

فالشاطبي وضع بذلك حدوداً للباطن وقيده بقيود تجعله صحيحاً ، أما الصوفية فردوه إلى الكشف والأذواق والمواجيد بطريقة تجعله بعيداً ـ فالصوفية والفقهاء اتفقوا مجتهدين في استنباط المعنى وصولاً لفهم مراد الله من كلامه واختلفوا في المراد الذي وصلوا إليه تبعاً لاستصحابهم للشروط والتقيد بها . فالتزم الفقهاء دون الصوفية لأن الباطن عندهم لا ميزان له ، كما يقول ابن عربي [٣] ولا ضابط له كما يقول الإمام الغزالي [٤] .

وهذه بداية المشكلة الحقيقية بين الصوفية والفقهاء . الفقهاء وقفوا عند حدود الظاهر بفهم ، والصوفية تجاوزوا حدود الظاهر وتعدوه كما سيأتي ذلك في المباحث الآتية . وغني عن التنبيه ما قد يتبادر إلى الذهن عند

---

(١) انظر الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ج ٣٨٣/٣ ، ٣٨٤ .
(٢) السابق ج ٣٩٤/٣ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٣٥/١٣ ـ ٢٤٤ .
(٣) انظر الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي ج٥٧٦/١ ط دار الفكر بيروت .
(٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٢٤/٣ وراجع كذلك مناهل العرفان في علوم القرآن الشيخ عبد العظيم الزرقاني ج٩٢/٢ ط مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر د/ت والظاهر والباطن أحمد علي زهرة ٢٠٩ .

ترجيحنا للمعنى الأول من معاني الباطن أن يتصرف إلى الباطنيـــة مـــن القرامطة وغيرهم من غلاة الصوفية فهؤلاء ليسوا مقصودين من حـــديثنا والفرق بينهم وبين ما ذكرنا كثير .

فالصوفية يختلفون عن الباطنية بداية ونهاية وسلوكا وغاية [١] .

---

(١) يقول الشيخ زروق " والصوفية المحققون والأئمة المدققون هم الذين أثبتوا المعاني وحققوا المباني ، لا الباطنية الذين حملوا الكل عن الإشارة فهم لم يثبتوا معنى ولا عبارة فخرجوا عن الملة ورفضوا الدين كله . انظر قواعد التصوف ٨٥ ويقول ابن خلدون " ما يموه به بعض الباطنية من أقوال إنما هي سفسافة ناقصة لمعاقل الشريعة تقتضي أن الشارع أظهر حكماً وأبطن آخر . انظر شفاء السائل لتهذيب المسائل للعلامة عبد الرحمن بن خلدون ١٤ تحقيق ودراسة محمد تاويت الطنجي استنبول ١٩٥٧م . فالصوفية يختلفون عن الباطنية بداية ونهاية وسلوكا وغاية . أما بداية فإن الصوفية اهتموا بالعلم الظاهري ولم يهملوه وجعلوه طريقا وسلوكا إلى العلم الباطني . وأما نهاية وغاية فإن الصوفية قصدوا من وراء القول بالظاهر والباطن التكامل الديني والنفسي والروحي وإلى محاولة التعمق في النصوص وأسرارها وباختصار فإن غايتهم تتجلى في تربية الظاهر وتصفية الباطن . والباطنية على عكس ذلك . ولو أن الذين أثاروا شبهة مشابهة الصوفية للباطنية قصدوا الصوفية الفلسفية من أمثال ابن سبعين والسهروردي لكان لكلامهم وجه . يقول د/ عبد الله الشاذلي " فاللوم ينصب على المتفلسفة من الصوفية لا المتشرعين الصادقين " انظر في الفرق بين الصوفية والباطنية ، التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج ٢/٢١٠ ـ ٢١٣ ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٣/٢٧٣

## المبحث الثاني

## الأدلة على ثبوت علمي الظاهر والباطن

لكل شيء في هذا الوجود ظاهر وباطن ، والإنسان بتكوينه ظاهر وباطن ، ظاهره الجوارح والحواس ، وباطنه القلب والفؤاد حتى الإنسان بالنسبة للآخرين له ظاهر يرونه وباطن يدق عنهم ويخفي عليهم ، وللنفس صوتها الخفي وصوتها المسموع . ولها دوافعها النفسية الداخلية وأفعالها الأخلاقية الخارجية . والعالم قسمان : عالم الغيب أو الملكوت وعالم الملك والشهادة ، والعلل والأسرار والنواميس خبيئة وراء الظواهر تحتاج إلى من ينقب عنها ومهما بالغ الحسيّون في الاعتماد على المادة والتجربة إلا أنهم يفسحون أيضا للحدس الباطني مجالاً للعبور من الملاحظات الخارجية إلى الغرض التفسيري الذي هو تصور باطني يكشف عن خفايا التجربة أو الربط بين الظواهر ، فالنظرة الصحيحة هي التي تتجاوز سطح الماء أو غياب الظاهر للتعرف على الكنوز وخفايا الباطن ، وهي التي توقن أن للدين جانباً باطنياً تصديقياً وآخر عملياً ظاهرياً .

وأن الإسلام اهتم بتربية الجوارح والأخلاق الظاهر ، والأعمال الشرعية التي يقوم بها البدن ، كما أعطى قدراً كبيراً للقلب وللضمير والإرادة .

وفاضت الآيات والأحاديث بالأعمال المتوطنة بالقلب عن رضا وصبر وخوف وأمن ورجاء وشكر ، وبالأعمال المتعلقة بالظاهر من عبادات وجهاد [١] .

---

(١) انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج ١٩٦/٢ .

وتحدثنا آيات القرآن أن الفواحش والذنوب والآثام فيها الظاهر والباطن قال تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ [١] ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ [٢] كما وجهتنا آيات القرآن الكريم إلى شكر نعم الله الظاهرة والباطنة . قال تعالى : ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾[٣] ويضرب الله سوراً بين أهل الجنة وأهل النار له ظاهر وباطن ﴿ **باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ [٤] كما تعلمنا آيات القرآن أن بعض أسماء الله الحسنى (**الظاهر والباطن**) قال تعالى ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ [٥] وأحيانا تتحدث آيات القرآن عن معنى الظاهر والباطن ليس بلفظه (**السّر والعلن**) . فالعلن هو الظاهر ، والسّر هو الباطن ويكون معنى السر ما استكن في القلب ، والعلن ما بدا على الجوارح وظهر عليه. قال تعالى ﴿ **والله يعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ [٦] ﴿ **ويعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ [٧] .

وأحيانا أخرى يستخدم السر بمعنى الإخفاء عن الأعين . والعلن بمعنى الظهور أمام رؤية الناس ، قال تعالى ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية ..** ﴾ [٨] وتكررت ألفاظ النجوى والإخفاء ، ولكن في مقابل الإعلان والإظهار بما لا يخفى على ذى لب أن الأسرار وما في معناه هو عمل نفسي ونشاط داخلي . وليس المراد صمت النفس صمتاً لا

---

(١) الأنعام آية ١٥١ .
(٢) الأنعام آية ١٢٠ .
(٣) لقمان آية ٢٠ .
(٤) الحديد آية ١٣ .
(٥) الحديد آية ٣ .
(٦) النحل آية ١٩ .
(٧) التغابن آية ٤ .
(٨) البقرة آية ٢٧٣ .

عقد فيه أو صمتاً يرادف الخلو وإلا ما تعلق به العلم بالإثابة أو العقاب . وتبعاً لهذا فقد أجمع المفسرون لمثل هذه الآيات على أن للإنسان أعمالاً مستكنة في الصدور كالنيات والسرائر يعالجها الحق بكلياتها وجزئياتها كما لا يخفى عليه شيء منها . كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الأعمال والطاعات والأخلاق [١] .

وثبوت الظاهر والباطن في الآيات المتقدمة ، كل آية على حسب سياقها وما تقدم اللفظان وما تأخر عنهما يدل دلالة معينة ، فهل من المعقول أن يكون لكل شيء في الوجود ظاهر وباطن ، ولا يوجد ما يسمى بالعلم الباطني ؟ إن دواوين الشعراء ووسائل العلماء تحوي كثيراً من المعاني التي تحدث لكل إنسان بما لديه من فهم واستعداد كلما أمعن النظر ودققه . ويحرم منها ذو النظرة السطحية والرؤية العابرة ، فقد يقرأ أحد العلماء ديوان المتنبي مثلاً فيخرج منه بمعانٍ ويقرأه آخر فلا يخرج بتلك المعاني ، بل لا يصل إليها وهذا شأن الفتاح في فتحه . يقول العلاّمة الآلوسي في هذا الشأن ناعياً على من ينكره في القرآن ، فلا ينبغي لمن له أدنى مسكة من عقل بل أدنى ذرة من إيمان أن ينكر اشتمال القرآن على بواطن يفيضها المبدأ الفياض على بواطن من شاء من عباده وياليت شعري ماذا يصنع المنكر بقوله تعالى ﴿ **وتفصيلاً لكل شيء** ﴾ [٢] وقوله تعالى ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ [٣] ويا لله تعالى العجب كيف يقول باحتمال ديوان المتنبي وأمثاله المعاني الكثيرة ولا يقول باشتمال قرآن النبي ﷺ وآياته وهو كلام ربّ العالمين المنزل على خاتم المرسلين على ما شاء الله

---

(١) انظر التصوف الإسلامي د/ عبد الله الشاذلي ج ١٩٦/٢ ، ١٩٧ .
(٢) الأنعام اية ١٥٤ .
(٣) الأنعام اية ٣٨ .

تعالى من المعاني المحتجبة وراء سرادقات تلك المباني . سبحانك هذا بهتان عظيم . بل ما من آية ترسم بقلم القضاء في لوح الزمان إلا وفي القرآن العظيم إشارة إليها فهو المشتمل على خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت [١] .

إن ثبوت اللفظ مؤذن بثبوت المعنى . وقد ذكر العلماء أدلة على ثبوت علمي الظاهر والباطن ، وإليك هذه الأدلة :

١ ــ قصة موسى مع الخضر عليهما السلام وما كان من أمر الخضر حيث خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار . وهذه في ظاهرها مناكير تؤدي إلى الكفر ــ دليل على العلم الباطني ، وموطن ذلك في القصة قوله تعالى في حق الخضر ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾[٢] وقوله ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ [٣]

يقول العلامة الآلوسي في قوله ( وعلمناه من لدنا علماً ﴾ والآية عند الصوفية أصل في إثبات العلم اللدني . وشاع إطلاق علم الحقيقة والعلم الباطني عليه . ولم يرتضى بعضهم ذلك الإطلاق [٤] ويقصد بذلك الشيخ عبد الوهاب الشعراني [٥] ويقول أيضاً قال بعضهم قصارى ما تدل عليه ثبوت العلم الباطني وهو مسلم لكن إطلاق الباطن عليه إضافي كما تقدم[٦]

ولا يحتج بالقصة على أفضلية الخضر على موسى أو بفضل الولي على النبي كما يرى بعض الصوفية زعماً أن الخضر ولي وموسى نبي .

---

(١) انظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الآلوسي البغدادي ج ١/٧ دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان د/ت .
(٢) الكهف آية ٦٥ .
(٣) الكهف آية ٨٢ .
(٤) روح المعاني للعلامة الآلوسي ج ١٥/٣٢٠ .
(٥) السابق ج ١٥/٣٢٠ وسيأتي الرد عليه في نهاية هذا المبحث .
(٦) روح المعاني ١٦/٢١ .

**فهذا جهل فاضح وقول باطل عاطل وزعم فاسد كاسد ، فموسى عليه السلام كان عالماً بعلم الباطن أو بالعلم اللدني ولم يكن جاهلاً به وإن زاد الخضر عليه فيه . والخضر كان عالماً بعلم الظاهر ولم يكن جاهلاً به . وموسى أعلم به منه . فكل واحد منهما أعلم من صاحبه من وجه .** ويقول العلامة الآلوسي " ثم إن الذي أميل إليه أن لموسى عليه السلام علماً بعلم الحقيقة المسمى بالعلم الباطن والعلم اللدني إلا أن الخضر أعلم به منه وللخضر عليه السلام سواء كان نبياً أو رسولاً بعلم الشريعة المسمى بالعلم الظاهر إلا أن موسى عليه السلام أعلم به منه فكل منهما أعلم من صاحبه من وجه ونعت الخضر عليه السلام في الأحاديث السابقة بأنه أعلم من موسى عليه السلام ليس على الإطلاق ، بل على معنى أنه أعلم من بعض الوجوه ... كما تقول زيدُ أعلم من عمرو في الطب وعمر وأعلم منه في الفلاحة ولو كان معناه الزيادة في مطلق العلم كان قولك زيدُ أعلم من عمرو مستلزماً لأن لا يكون عمرو أعلم منه في شيء من العلوم فلا يصح تفضيل عمرو عليه في علم الفلاحة .. " [١] فلكل من موسى والخضر عليهما السلام علم بالشريعة والحقيقة إلا أن موسى عليه السلام أزيد بعلم الشريعة والخضر عليه السلام أزيد بعلم الحقيقة .. " [٢]

٢ ــ يقول الله تعالى ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ [٣]

فظاهر هذه السورة أن الله تعالى يأمر نبيه ﷺ أن يسبح بحمد الله ويستغفره إذا نصره الله وفتح عليه . باطنها أن الله نعى إليه نفسه فليس بعد

---

(١) السابق ج ١٥/٣٣٢ .
(٢) السابق ج ١٥/٣٣٢ .
(٣) النصر كاملة .

نصر الله والفتح إلا لقاء الله عز وجل . وهذا المعنى الباطني فهمه عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما وغاب عن غيره من الصحابة . وكان صغيراً يومها ، فعن ابن عباس قال كان عمر يدخلني مع أصحاب النبي ﷺ . فقال له عبد الرحمن بن عوف أتدخله ولنا بنون مثله ؟ إنه من حيث تعلم . فسألني عن هذه الآية " **إذا جاء نصر الله والفتح** " فقلت : إنما هو أجل رسول الله أعلمه إياه . وقرأ السورة إلى آخرها . فقال عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم [١]

يقول الشيخ الذهبي " إن بعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر . أما ابن عباس وعمر فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر . هو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة [٢]

٣ ــ لما نزل قوله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ [٣] فرح الصحابة رضوان الله عليهم وبكى عمر وقال : ما بعد الكمال إلا النقصان مستشعراً نعيه عليه الصلاة والسلام فما عاش بعدها إلا أحداً وثمانين يوماً [٤] أخرج ابن أبي شيبة أن عمر رضي الله عنه لما نزلت الآية بكى فقال النبي ﷺ ما يبكيك ؟ قال : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا . فأما إذا كمل . فإن لم يكمل شيء قط إلا نقص . فقال عليه الصلاة والسلام صدقت [٥] .

---

(١) أخرجه البخاري ج ٦١٩/٨ ـ ٦٢٢ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني مكتبة العبيكان السعودية ط الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م وانظر الموافقات لأبي اسحاق الشاطبي ج ٣٨٤/٣ .

(٢) انظر التفسير والمفسرون د/ محمد حسين الذهبي ج ٣٨٤/٢ مكتبة وهبة القاهرة ط السادسة ١٤١٦هـ ١٩٩٥م .

(٣) المائدة اية ٣ .

(٤) الموافقات لابي اسحاق الشاطبي ج ٣٨٤/٣ .

(٥) اخرجه بن ابي شيبة في المصنف (٣٤٠٨/٨٨/٧) ومن طريقه بن جرير في التفسير (٩ ٥١٩ ١١٠٨٣ ، ١١٠٨٤) والأثر إسناده حسن والله أعلم .

فعمر رضي الله عنه أدرك المعنى الباطني وهو نعي رسول الله ﷺ وأقره النبي ﷺ على فهمه هذا ... وأما باقي الصحابة فقد فرحوا بنزول الآية لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهري لها [١] .

٤ ــ ويقول الله تعالى ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً** ﴾ [٢] ويقول ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً** ﴾ [٣] ويقول ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ [٤] تشير هذه الآيات مجتمعة إلى أن القرآن له ظاهر وباطن وذلك لأن الله تعالى حيث ينعي على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً . ويحضهم على التدبر في آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام أو حضهم على فهم ظاهره لأن القوم عرب . والقرآن نزل بلغتهم فهم يفهمون ظاهره وبلا شك . وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب . وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده . وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم [٥] .

ويستخلص الشاطبي استنباطاً من آيات القرآن قاعدة خلاصتها " أن الله إذا نفى الفقه والعلم عن قوم فذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر وعدم اعتبارهم للمراد منه . وإذا ثبت فهو لفهمهم مراد الله تعالى من خطابه وهو باطنه [٦] .

---

(١) التفسير والمفسرون د/ الذهبي ج ٣٨٥/٢ .
(٢) النساء آية ٧٨ .
(٣) النساء آية ٨٢ .
(٤) محمد آية ٢٤ .
(٥) انظر الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ج ٣٨٢/٣ ، ٣٨٣ والتفسير والمفسرون للذهبي ج ٣٨٢/٢ .
(٦) انظر الموافقات للشاطبي ج ٣٨٥/٣ .

٥ ــ يقول النبي ﷺ " إن من أمتي محدثين ومعلمين ومتكلمين وإن عمر منهم " [١] والمحدث هو الملهم ، والملهم هو الذي انكشف له ما في بطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الجارحة [٢] وذكر ابن الأثير في مادة " حدث " جاء في الحديث تفسيره إنهم " الملهمون " والملهم هو الذي يلقى في نفسه الشيء فيخبر به حدساً وفراسة وهو نوع يختص به الله من يشاء من عبادة الذين اصطفى مثل عمر كأنهم حدثوا فقالوه [٣] .

والحدس والفراسة مصدرها الباطن وهو أمر يخص الله به من يشاء من عباده .

وقيل المحدث :

أ ــ هو الرجل الصادق الظن . وهو من ألقى في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيره به وبهذا جزم أبو أحمد العسكري . وقيل ب ــ من يجري الصواب على لسانه من غير قصد . وقيل جـ ــ من تكلمه الملائكة بغير نبوة [٤]. والحدس والفراسة وإلقاء الشيء في الروع وغير ذلك كلها تشير إلى العلم الباطني .

---

(١) أخرجه البخاري / فضائل أصحاب النبي (ﷺ) (٣/١٣٤٩ / ٣٤٨٦) بلفظ " قال رسول الله (ﷺ) لقد كان فيما كان قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر " و أحمد في المسند (٢/٣٣٩ / ٨٤٤٩) ، والبغوي في شرح السنة (١٤/٨٢ / ٣٨٧٣) من طرق عن سعد بن إبراهيم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد ورد من حديث عائشة رضي الله عنها ، فأخرجه مسلم / فضائل الصحابة / من فضائل عمر (ﷺ) (٤/١٨٦٤ / ٢٣٩٨) وأحمد في المسند (٦/٥٥/٢٤٣٣) ، والترمذي /المناقب/ في مناقب عمر رضي الله عنه (٥/٦٢٢ /٣٦٨٣) ، وإسحاق بن راهويه (٢/٤٧٩/١٠٥٨) والنسائي في المناقب / فضل أبي بكر رضي الله عنهما (٥/٣٩/٨١١٩) كلهم من طرق من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) انظر احياء علوم الدين ج ٣/٢٤ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الأثير ج ١/٣٥٠ ط عيسى البابي الحلبي القاهرة .

(٤) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام احمد بن علي بن حجر العسقلاني ج٧/٦٢ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط٢/١٤١٨ هـ -١٩٩٧م وقراءة ابن عباس وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث " فتح الباري ج ٧/٦٣ م . س .

٦ ــ وروى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لعائشة رضي الله عنها عند موته " إنما هما أخواك وأختاك وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتاً وكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت " [١]

فالظاهر من حال أبي بكر أن له ثلاثة أولاد أخوين وأختاً وعائشة لا تعرف إلا هذا ــ أما الباطن وهو ما أخبرته أن جاريته الحامل ستلد وتكون بنتاً ولذلك يقول صاحب اللمع عن أبي بكر " قد ألقى في روعه أنها أنثى فهذا أتم ما كان في الفراسة والإلهام " [٢]

٧ ــ وروى أن عمر رضي الله عنه قال أثناء خطبته يا سارية الجبل الجبل " [٣] وكان سارية في عسكر على باب نهاوند فسمع صوت عمر رضي الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو [٤] ويجعل الإمام الغزالي ذلك من جملة الكرامة العظيمة [٥] ويرى أحد الباحثين أن مسألة الكرامة هذه لا تصلح لأن يكون الناس من حولها منهجاً له حدوده ورسومه وشيوخه وطرقه وتلاميذه [٦] .

والمسألة ليست في إثبات منهجية لها حدود ورسوم وإنما في إثبات ذات العلم ووقوعه في أصله لأن الكرامة لا تقع لكل الناس .

---

(١) جزء من حديث طويل لعائشة رضي الله عنها وقد= أخرجه مالك في الموطأ / الأقضية / ما لا يجوز عن النحل (١٤٣٨/٧٥٢/٢) وعبد الرزاق في المصنف (١٦٥٠٧/١٠١/٩) والبغوي في شرح السنة (٢٢٠٤/٣٠٢/٨) كلهم من طرق عن بن شهاب الزهري من حديث عائشة رضي الله عنها وقد صححه الألباني كما في الإرواء .

(٢) اللمع ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) ذكره بن كثير في البداية والنهاية (١٣١/٧) وذكر طرقه كلها وقال يشد بعضها بعضاً وانظر اللمع للطوسي ١٧٣ ، ١٧٤ وإحياء علوم الدين ج ٢٥/٣ .

(٤) اللمع ١٧٣ .

(٥) إحياء علوم الدين ج ٢٥/٣ .

(٦) نظرية المعرفة بين القران والفلسفة د. راجح الكردي ٦٩٢ ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط ١٤١٢/١ هـ - ١٩٩٢م .

٨ ــ أيضاً نقل عن الصحابة رضي الله عنهم ما يدل على أن للقرآن ظاهراً وباطناً . وقالوا بذلك " من ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال : القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته . فمن أوغل فيه برفق نجا . ومن أخبر فيه بعنف هوى أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظهر وبطن فظهره التلاوة وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء [١] .

وروى عن أبي الدرداء أنه قال : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً [٢] وعن ابن مسعود أنه قال " من أراد علم الأولين والآخرين فليتثور من القرآن [٣] وهذا الذي قالوه لا يحصل لمجرد تفسير الظاهر وإنما هو المعنى الباطن [٤]

وكما استخدم الصحابة لفظ الظاهر والباطن استخدموا كذلك لفظ السّر والعلن . والجوانية والبرانية وتابعهم على ذلك التابعون وتابعيهم . وتجد لذلك مثلاً في أقوال سلمان الفارسي وأبي عبيدة ومعاذ بن جبل وفي أقوال الربيع بن خيثم وسعيد بن المسيب ومطرق بن عبد الله ومسلم بن يسار

---

(١) عزاه المناوي في فيض القدير (٥٥/٣) إلى السجزي في كتاب الإبانة عن أصول الديانة ، من حديث علي بن أبي طالب وليس من حديث بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٠٧/١٣٤/١) وزاد في آخره وأنك لا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في جنب الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون منها أشد مقتا منك للناس . وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠١٦٣/١٤٢/٦) دون آخره ـ عبد الرزاق في المصنف (٢٠٤٧٣/٢٥٥/١١) جميعا من طرق عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الدرداء موقوفا وإسناده صحيح والله أعلم .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٨٥٠/١٥٧/١) وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٠١٨/١٢٦/٦) نحوه والطبراني في الكبير (٨٦٦٦/١٣٦/٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٦٠/٣٣١/٢) من طرق عن أبي إسحاق عن مرة عن عبد الله بن مسعود موقوفا ورجاله ثقات وإسناده صحيح والله أعلم .

(٤) التفسير والمفسرون ج ٣٨٣/٢ .

وأبي حازم وغيرهم [١] .

إن هذه الأدلة مجتمعة تدل على ثبوت علمي الظـــاهر والبـــاطن . ولا سبيل إلى إنكار ذلك سواء كان من القدامى أو المحدثين . ولم أقف علـــى دليل يعتبر لهؤلاء المنكرين . وقد أشار إلى هؤلاء المنكرين الإمام الغزالي ٥٠٥ هـــ في الإحياء ووصفهم بالقاصرين الذين درسوا شيئاً أيام الصـــبى وجمدوا عليه ولم يترقوا إلى العلا ومقامات العلماء يقول " واعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية إلى باطن وظاهر لا ينكرها ذو بصيرة وإنمـــا ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلا ومقامات العلماء والأولياء .. وذلك ظاهر عن أدلة الشرع " [٢] ولا يخفى أن الغزالي رحمه الله يقصد بذلك الفقهاء كما سيأتي ـــ بيد أن وصفهم بالقصور والجمود لا يليق وذكره لهم يدل على أن الأمر كان شائعاً ومشهوراً من قبل وأن تاريخ الإنكار أسبق من الإمام الغزالي .

كما ذكر السراج الطوسي في كتابه اللمع هذا الإنكار بيد أنه حدد طائفة المنكرين بأنهم أهل الظاهر ويعني ذلك الفقهاء فقال " أنكرت طائفـــة مـــن أهل الظاهر وقالوا لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التي جاء بها الكتاب والسنة . وقالوا : لا معنى لقولكم علم الباطن وعلم التصوف [٣] وأجـــاب على هذا الإنكار بقوله " إن علم الشريعة علم واحد وهو اسم واحد جمـــع معنيين الرواية والدراية . فإذا جمعتهما فهو علم الشـــريعة الداعيـــة إلـــى الأعمال الظاهرة والباطنة ولا يجوز أن يجرد القول في العلم أنه ظاهر أو باطن ـــ لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه إلـــى أن يجـــري

---

(١) التصوف الإسلامي د/ الشاذلي ج ١٩٧/٢ .

(٢) انظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ٩٩/١ .

(٣) اللمع في التصوف لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ٤١ ، ٤٤ تحقيق وتعليق د عبد الحليم محمود وزميله دار الكتب الحديثة القاهرة ط / ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .

ويظهر على اللسان فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر [١] ثم قال " فإذا قلنا علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة وهي القلب كما إذا قلنا علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء [٢] وساق الأدلة على ما ذكر .

وكلام صاحب اللمع فيه تعميم لأهل الظاهر وهم الفقهاء فهل الفقهاء جميعاً ينكرون علم الباطن ؟ إن التعميم في الأحكام غير دقيق وقد بيّن الله أن أهل الكتاب ليسوا سواءً فقال : ﴿ **ليسوا سواءاً من أهل الكتاب أمة قائمة ...** ﴾ [٣] الخ الآية وإن أجاب بأن البعض أنكر والآخر أثبت فلم لم يبين ذلك ويحدد من هو المنكر ؟

إن الصوفية لما انقسموا في الباطن بفهمهم ونظر الفقهاء إلى ذلك وجدوا تجاوزاً للنص وتأويلاً له . لا تدل عليه اللغة ولا الكتاب والسنة بادروا بالإنكار عليهم ولو أن الفقهاء جميعاً أنكروا المعنى الصحيح لعلم الباطن لكان لكلام الصوفية وجه محتمل ولم يحدث ذلك .

وكان من المنكرين أيضاً الشيخ الشعراني حيث يرى " أن العبد كلما ترقى في باب الأدب مع الله تعالى دق كلامه على الأفهام حتى قال بعضهم لشيخه إن كلام أخي فلان يدق على فهمه فقال لأن لك قميصين وله قميص واحد فهو أعلى رتبة منك .. وهذا هو الذي دعا الفقهاء ونحوهم من أهل الحجاب إلى تسمية علم الصوفية بالعلم الباطن وليس ذلك بباطن . إذ الباطن إنما هو علم الله تعالى . وأما جميع ما علمه الخلق على اختلاف

---

(١) السابق ٣٤ .
(٢) السابق ٤٤ .
(٣) ال عمران اية ١١٣ .

طبقاتهم فهو من العلم الظاهر لأنه ظهر للخلق فاعلم ذلك .. [١] وهذا ليس إنكاراً لعلم الباطن على الإطلاق . وإنما الذي يدق على كثير من الناس ويتوقف حصوله على القوة القدسية دون المقدمات الفكرية وإن كان كل علم يتصف بكونه باطناً وكونه ظاهراً بالنسبة للجاهل به والعالم به كما وجه ذلك الآلوسي [٢] .

ويمكن أن يوجه توجيه آخر وهو أن المقصود بعلم الباطن الكشف الخالي من الكتاب والسنة أما الكشف المقيد بالكتاب والسنة فلا يرفضه الشعراني ولا ينكره وهذا ما أكده د/ الطويل [٣] . وربما كان ذلك رد فعل لمعاداة الفقهاء له وإتهامهم له بعدم التمسك بالظاهر فقال ما قال كما هو منهجهم [٤]

ومن المعاصرين الشيخ أبو بكر الجزائري الذي يرى أن تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن ... من أكبر الأحداث في دين الله تعالى وأن استغناء الإنسان بعلم الباطن عن علم الظاهر يؤدي إلى الإنسلاخ من الشريعة كلها [٥]

والشيخ محمد جميل غازي يرفض هو الآخر تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن ويرى أن الحديث المزعوم " لكل آية في القرآن ظاهر وباطن لا وجود له في دواوين السنة .. " [٦] ويقول متى قال الرسول ﷺ :

---

(١) انظر اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ج١١٧/٢ ط الحلبي بمصر وراجع روح المعاني للآلوسي ج٣٣٠/١٥ والمناسبات الإسلامية سلسلة تراث الشيخ البنا ٢٠٨ الأستاذ جمعه أمين عبد العزيز دار الدعوة الإسكندرية ط ١٤٢٧/١هـ - ٢٠٠٦م .

(٢) انظر روح المعاني للآلوسي ج ٣٣٠/١٥ .

(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني د/ توفيق الطويل ج ٤٨/٢ ط الهيئة العامة للكتاب د/ت .

(٤) السابق ج ٥٥/٢ ، ٥٦ .

(٥) انظر إلى التصوف يا عباد الله الشيخ أبو بكر الجزائري ٣٢ - ٣٤ بتصرف مطبعة المدني ط ١٤٠٨/١هـ / ١٩٨٧م .

(٦) الصوفية من الوجه الأخر د/ محمد جميل غازي ٣٢ أسئلة وحوار عبد المنعم الجداوي

إن للقرآن ظاهراً وباطناً ؟ [١]

وإنكار الشيخ الجزائري ومحمد جميل غازي موجه إلى علم الباطن المخالف لعلم الظاهر والمعارض له . أما الموافق فلا . فعلم الباطن المقيد بالكتاب والسنة لا ينكره ثقات العلماء وكمل الأولياء وربما يكون علم الباطن في نظرهما هو الكشف الصوفي . والكشف الصوفي لم يحظ باتفاق العلماء جميعاً . وحتى لو كان هو الكشف ، فينبغي عرضه على الكتاب والسنة ، فما وافقهما الكتاب قبل وما خالفهما رد . يقول أحد العلماء " ومرحلة الكشف مرحلة خاصة ، فما وافق الشريعة من كلام القوم فيها أخذكما هو وما لم يمكن اتفاق معها ولو على وجه من وجوه التأويل المتقبلة ترك وردّ على صاحبه . وكان أمره فيه إلى الله " [٢]

وإنكار تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن مكابرة ومعارضة لا تثبت أمام الأدلة العقلية والنقلية المتقدمة .

---

(١) السابق ٢٥ .

(٢) انظر غاية الصوفية رضوان الله عليهم ووسائلهم في الوصول إليها الشيخ حسن البنا ٢١٧ ضمن سلسلة من تراث الشيخ البنا م . س .

## المبحث الثالث

## المنهج بين الفقهاء والصوفية

لا يعرف على وجه التحديد والدقة الفترة التاريخية التي خصت الفقهاء بالظاهر وجعلتهم علماء الظاهر ، وخصت الصوفية بالباطن وجعلتهم علماء الباطن . وربما يعود هذا الاختصاص إلى الفترة التي وقع فيها النزاع بين الفريقين وذلك في القرن الثالث الهجري كما صرح بذلك جماعة من الباحثين [١] وإن كنا نرى أن هذا التخصيص جاء من قبل الصوفية لا من قبل الفقهاء لما أرادوا تمييز طريقتهم ومنهجهم ولذلك لم نجد أحداً من الفقهاء يقول نحن أهل الظاهر والصوفية أهل الباطن وواقع الصراع يؤكد هذا المعنى كما سيأتي في المبحث الرابع .

يقول الشيخ أحمد الرفاعي " لا نقول كما يقول بعض المتصوفة : نحن أهل الباطن وهم أهل الظاهر .. " [٢]

ويقسم الصوفية العلم إلى ظاهر وباطن والظاهر هو علم الشريعة وهم علم الفقهاء والباطن هو علم الحقيقة وهو علم الصوفية ، يقول ابن خلدون " اختص هؤلاء ــ أي الصوفية ــ بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه ، وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ،

---

(١) انظر التصوف في مصر إبان العصر العثماني / إمام التصوف في مصر ـ الشعراني د/ توفيق الطويل ج ٢/٥٠ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج ٢/٢٨٢ ومواقف الخلاف بين الفقهاء والصوفية د/ نظلة الجبوري ١٢١ ، ١٢٢ مجلة الرسالة الإسلامية تصدر عن وزارة الأوقاف بالعراق ع ١٨٢ ـ ١٨٣ رمضان شوال ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

(٢) انظر البرهان المؤيد الشيخ أحمد الرفاعي ٦١ ت صفوة السقا . نشر وتوزيع مكتبة ربيع حلب ط ٢/١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م .

ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجيد العارضة في طريقها وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق ... فلما كتبت العلوم ودُونت وألّف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم " [١] ويقول الدكتور محمد مصطفى حلمي " ومن هنا نظر الصوفية إلى أنفسهم على أنهم أرباب الحقائق وأهل الباطن ونظروا إلى غيرهم على أنهم أهل ظواهر وأهل رسوم سواء كانوا من القرّاء أو الفقهاء " [٢] .

ويقول الدكتور محمد مصطفى حلمي " انقسم علم الشريعة إذن إلى قسمين متمايزين : قسم اختص به الفقهاء وأهل الفتيا في الأحكام العامة والعبادات والمعاملات ، وقسم اختص به الصوفية وأهل الباطن اشتمل على ما يتعلّق بهم من مراقبات ومحاسبات ورياضات ومجاهدات .. وكيف الفقهاء كتبهم فدونوا فيها الأحكام الظاهرة .. وكتب الصوفية كتبهم فأودعوها مواجيدهم التي ذاقوها ... [٣] ويقول : " ومن هنا نظر الصوفية إلى أنفسهم على أنهم أرباب الحقائق وأهل الباطن . ونظروا إلى غيرهم على أنهم أهل ظواهر وأهل رسوم سواء كانوا من القراء أو الفقهاء [٤] ويذكر السراج الطوسي في ثنايا كتابه " اللمع " هذا التقسيم ويفضل علم الباطن على علم الظاهر [٥] . وقد اقتضى هذا التخصيص أن يكون لكل

---

(١) مقدمة ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ٤٣٣ تقديم د/ محمد الأسكندراني ، وراجع الحياة الروحية في الإسلام د/ محمد مصطفى حلمي ١١٦ ـ ١١٧ ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٤م .

(٢) الحياة الروحية ص ١١٧ .

(٣) انظر الحياة الروحية في الإسلام د/ محمد مصطفى حلمي ١١٦ ، ١١٧ ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٤م .

(٤) السابق ١١٧ .

(٥) انظر اللمع لأبي نصر السرّاج الطوسي ٣١ ـ ٣٩ تحقيق د/ عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور .

واحد من الفريقين منهج يخصه ويتمايز به . بيد أننا لا نجد للفقهاء منهجاً مباشراً في كتبهم الفقهية التي ألفوها . ونعني بذلك أن يذكر الفقيه في مقدمة كتابه الفقهي طريقته في الكتاب . وهو المنهج فيقول مثلاً منهجي هو " المنهج الاستنباطي أو الاستقرائي أو التكويني أو الاسترادي أو الجدلي " [١] وإذا وجد فيكون عن طريق التوصيف . والذين كتبوا في المنهجية وذكروا الفقهاء في مؤلفاتهم كتبوها من وجهة نظرهم كما حدث من علماء المناهج وطرق التدريس ومن عالج ذلك من المعاصرين عالجة توصيفاً كما حدث من بعض الباحثين [٢]

والذي يظهر أن الفقهاء فعلو ذلك اكتفاءًا بما ورد في كتب أصول الفقه ، وعلى من يريد المنهج أن يولى وجهه كتب أصول الفقه الأمر الذي لا نجد له نظيراً أو مثيلاً عند الصوفية إلا عن طريقة الاستقراء والتتبع لهذا الصوفي أو ذاك اعتباراً بتجربته الذاتية . فعلم أصول الفقه يعني القواعد والأسس التي بني عليها الفقيه مذهبه وسمار عليها . وإن اختلفت المذاهب الفقهية وكان الفقه تطبيقاً لذلك ولا يعترض على قولنا في الصوفية بكتاب " قواعد التصوف " للشيخ أحمد رزوق البرنسي الفاسي ت ٨٩٩ هـ والذي يعني أن للصوفية قواعد وأسس هم الآخرين تمسكوا بها وساروا عليها كالفقهاء تماماً . فما وجه الاختلاف ؟ ويجاب عن ذلك بأن الشيخ رزوق ت ٨٩٩هـ حاول ببراعة فائقة أن يزيل ما يوهم التعارض بين الشريعة

---

(١) انظر مناهج البحث عند مفكري المسلمين واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي د/ علي سامي النشار ٣٤٨ دار النهضة العربية بيروت لبنان ط ١٤٠٤/٣هـ - ١٩٨٤م .

(٢) انظر في ذلك المنهج الفقهي للإمام اللكنوي . الأستاذ صلاح محمد سالم أبو الحاج . دار النفائس للنشر والتوزيع ٢٠٠٢/١/١م والمنهج الفقهي عند الإمام الشهيد الصدر الأستاذ محمد الحسيني دار الهادي للطباعة والنشر ٢٠٠١م .

والحقيقة لدي بعض الصوفية . فألف جملة من القواعد جمع من خلالها بين الشريعة والحقيقة ولذلك عنون بـــ " قواعد التصوف " على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول بالفقه والطريقة .. " [١] فالشـــيخ يقـــول لبعض هؤلاء الصوفية أن العلاقة بينهما علاقة وثيقة لا غناء لأحدهما عن الآخر . والذي يفصل بينهما يرتكب خطأ فاحشاً إما في صلته بالنـــاس أو في علاقته بالله [٢] فهدف الشيخ الجمع دون التركيز على منهج معين ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الرجل كان فقيهاً مالكياً علمنا أنه فقيه صـــوفي ولـــيس صوفياً فقيهاً [٣] . ولذلك قال : " كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً "[٤] فالرجل أسس التصوف على الفقه وبناه عليه ولم يؤسس الثاني على الأول وهو لا يقل في ذلك عن الإمام الغزالي ت ٥٠٥ هـــ ويقرر العلماء إجمالاً أن منهج العلوم الشرعية من فقه وأصول وغيرهما ما عدا التصوف هـــو النظر والاستدلال ، أما التصوف فالذوق والعرفان . وممن قرر ذلك الإمام الغزالي ت ٥٠٥ هـــ حيث يقول " إن الطريق الوحيـــد للحـــق لا يمكـــن التوصل إليه بالتعليم أي بالنظر ـــ بل بالذوق والحال وتبدل الصـــفات "[٥] ويقصد بذلك التصوف وأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبـــرى زادة ت ١٥٦١م يقول في بيان النسبة بين طريق النظـــر وطريـــق التصـــفية ...

---

(١) انظر قواعد التصوف الشيخ أحمد زروق البرنسي الفاسي تحقيق الشيخ عثمان الحويمدي وحسن السماحي دار وحي القلم دمشق ط ١٤٢٥/١هـ ـ ٢٠٠٤م والكتاب حققه الأستاذ محمد زهري النجار ونشرته المكتبة الأزهرية للتراث ولم يفعل فيه شيئا .

(٢) انظر أحمد زروق والزروقية د/ علي فهمي خشيم ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١١ دار المدار الإسلامي بيروت لبنان ط ٢٠٠٢/٣م .

(٣) انظر أحمد زروق د/ علي فهمي خشيم ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٤) انظر قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق المقدمة ١١ ، ١٢ والقواعد ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) انظر المنقذ من الضلال للامام أبي حامد الغزالي ٩٠ ـ ٩٣ ط بيروت لبنان ١٣٥٣هـ / ١٩٤٠م ومناهج البحث عند مفكري المسلمين د/ علي سامي النشار ٢٩٨

وهاتان طريقتان . الأول منهما طريقة الاستدلال ، والثاني طريق المشاهدة والأول درجة العلماء الراسخين والثاني درجة الصديقين . وقد تنتهي كل من الطريقتين إلى الأخرى فيكون صاحبه مجمعاً للبحرين أي يجري الاستدلال والمشاهدة أو العلم والعرفان أو الشهادة والغيب [١] ويحصر طاش كبرى زادة العلوم في أربعة أنواع . وذلك لأن للأشياء وجوداً في أربع مراتب في الأعيان والأذهان والعبارة والكتابة فالعلوم المتعلقة في الأول تسمى علوماً حكمية وعلوماً شرعية والمتعلقة بالثاني هي العلوم الآلية المعنوية كالمنطق ونحوه ، والعلوم المتعلقة بالأخيرين هي العلوم الآلية اللفظية والخطية وهذه هي العلوم العربية المعتبرة في ديننا هذا لورود شريعتنا هذه على لسان العرب وعلى كتابه ثم إن الثلاثة الأخيرة من هذه الأنواع لا سبيل إلى تحصيلها إلا الكسب بالنظر وأما النوع الأول منها فقد يتحصل بالنظر وقد يتحصل بالتصفية ويجعل طاش كبرى زادة العلوم المتعلقة بطريق النظر ثلاثمائة وخمسة علوم [٢] ومن الطبيعي أن يكون منها الفقه وأصوله وهكذا ينتهي التقسيم في آخر الأمر إلى طريقين، طريق النظر والذوق [٣] النظر للفقهاء ، والذوق والعرفان للصوفية . أما على التفصيل فإن الفقهاء يعتمدون أحياناً على المنهج الاستنباطي وأحياناً على المنهج الاستقرائي . وأحياناً على المنهج التكويني أو الاسترادادي بناءً على ما جاء في كتب الأصول بمذاهبه المختلفة ومدارسه المتباينة ولم يمنع

---

(١) انظر مفتاح السعادة ومصباح السعادة أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة ج ٦٦/١ تحقيق كامل بكري وزميله .دار الكتب الحديثة القاهرة د/ت وأبجد العلوم . الوشي المرقوم بي بيان أحوال العلوم صديق حسن خان القنوجي ج ٦٣/١ ـ ٧٠ تحقيق عبد الجبار زكار منشورات وزارة الثقافة والإرشاد دمشق ١٩٧٨م .

(٢) انظر أبجد العلوم صديق حسن خان القنوجي ج ٦٩/١ .

(٣) انظر مناهج البحث عند مفكري المسلمين د/ النشار ٢٩٨ ـ ٣٠٠ .

هذا الاختلاف من الاتفاق على أصول الأدلة الأربعة وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس يقول ابن خلدون ٨٠٨ هـ " واتفق جمهور الفقهاء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ [١]

فالأحناف يعتمدون على المنهج الاستنباطي ولما كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله لم يؤلف كتاباً في الأصول يبّين من خلال منهجه هذا ، عمد الأحناف إلى جمع الفروع الفقهية للإمام لإستنباط الأصول التي بنيت عليها [٢] ولم يكن هذا الاستنباط من الأئمة المتقدمين ، أصحاب أبي حنيفة الأولين ، بل من وضع المتأخرين ، يقول الشيخ أبو زهرة " إن الأصول التي يذكرها الحنفية على أنها أصول المذهب الحنفي أو الأصول التي بني عليها أئمته استنباطهم ليست من وضع أئمته حتى يقال إنهم وضعوها أنفسهم بالاستنباط على أساسها ، بل هي من وضع العلماء في ذلك المذهب الذين جاءوا بعد عصر الأئمة وتلاميذهم الذين اتجهوا إلى استنباط القواعد التي تضبط بها استنباط فروع المذهب فهي جاءت متأخرة عن الفروع [٣] ويعتبر هذا المنهج من الأحناف منهجاً متميزاً خاصاً بهم لا يشاركهم فيه غيرهم حتى أصبح هذا الاتجاه قسماً لمنهج المتكلمين ــ يعني من المالكية والشافعية والحنابلة ويرجع ذلك إلى أن الأحناف أرائيين بخلاف الآخرين فإنهم نصيين ولذلك كثر الاجتهاد عند الأحناف وقل عند غيرهم وهذا التصنيف على الغالب .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون تحقيق وتقديم د/ محمد الأسكندراني .

(٢) انظر منهاج العقول في علم الأصول ، مدرسة التجديد في الفكر الاعتزالي . مقال على شبكة الإنترنت .

(٣) أبو حنيفة حياته وعصره أراؤه وفقهه الشيخ محمد أبو زهرة ٢٠٦ دار الفكر العربي القاهرة د/ت .

وقد يتفق الشافعية مع الأحناف في المنهج الاستنباطي ، بيد أن الفارق بينهما هو أن الأحناف استنبطوا الأصول من الفروع أما الشافعية فقد استنبطوا الفروع من الأصول وسبب ذلك يرجع إلى أن الشافعية كانوا يرجعون إلى الرسالة [١] وهي أول كتاب أصولي دوّن في أصول الفقه وغيرها من كتب الأصول على مذهبهم .

كما استخدم الأصوليون المنهج الاستقرائي الكلي وهو الذي سار عليه الإمام أبي إسحاق الشاطبي المالكي ت ٧٩٠هـ يقول في مقدمة كتابه الموافقات " ولما بدا من مكنون السر ما بدا . ووفق الله الكريم لما شاء منه وهدى لم أزل أقيد من أوابده وأضم من شوارده . تفاصيل وحملاً وأسوق من شواهده في مصادر الحكم وموارده مبيناً لا مجملاً معتمداً على الاستقراءات الكلية غير مقتصر على الأفراد الجزئية . ومبيناً أصولها النقلية بأطراف من القضايا العقلية حسبما أعطته الاستطاعة والمنة في بيان مقاصد الكتاب والسنة [٢] والفرق بينه وبين منهج الأحناف أن منهج الأحناف استقراء جزئي أما منهج الشاطبي فهو استقرار كلي كما استخدم الأصوليون كذلك المنهج الإستردادي وإن لم يكن تحت مسماه باللفظ المكتوب . فالأصوليون تكلموا في المكي والمدني والعام والخاص والمبهم والمبين والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ بدايات ونهايات وهو ما يسمى في عصرنا بعلم تاريخ التشريع وهو محدث لا نجده بهذا الاسم عند الأصوليين القدامى كما طبق الأصوليون هذا المنهج

---

(١) الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي ت الشيخ أحمد شاكر مؤسسة الرسالة بيروت لبنان .

(٢) انظر الموافقات في أصول الشريعة للإمام أبي إسحاق الشاطبي ج ٢٣/١ دار المعرفة بيروت لبنان ومناهج التصنيف في علم أصول الفقه د/ موسى القرني كاملا ط دار حافظ بجدة السعودية ط ١٤١٤هـ .

داخل المسألة الواحدة فيقال مثلاً أول من تكلم في مسألة التحسين والتقبيح هم المعتزلة [١] وأول من أنكر القياس هو النظام [٢] يقول الشوكاني " أول من قال بإنكار القياس النظام وتابعه قوم من المعتزلة [٣] وأول من قال بإنكار حجية خبر الآحاد واصل بن عطاء [٤]

هذا هو منهج الفقهاء المبني على الأصول الفقهية بمذاهبه المختلفة ومدارسه المتباينة والذي أقاموه على الأدلة الأربعة المتفق عليها والمشهورة . وأولها الكتاب والسنة .. الخ .

تقول الدكتورة نظلة الجبوري " اهتم الفقهاء بأدلة الكتاب والسنة واستخلاص الأحكام الشرعية منهما والتي تؤسس عليها حياة المسلم وتحويلها إلى مسائل نظرية باستخدام النظر العقلي والعمل بمقتضاه [٥]

فالفقهاء يعتمدون في أحكامهم على الدليل النقلي " الكتاب والسنة " ودلالة النقل في نظرهم دلالة شرعية وعقلية معاً بمعنى أنها من جهة خبر الرسول الصادق المعصوم عن الله تعالى ومن جهة تتضمن أدلة عقلية ومعنى هذا أنها تمتاز بميزتين : الأولى : أنها خبر الصادق عن ربّه ،

---

(١) راجع المنخول من تعليقات الأصول للإمام الغزالي ٦٤ تحقيق محمد حسن هيتو ط دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ط ٣ سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

(٢) هو أبو إسحاق ابراهيم بن سيار النظام شيخ الجاحظ وهو زعيم النظامية ٢٢١ هـ انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٩٧/٦ دار الكتب العلمية بيروت والفرق بين الفرق للبغدادي ١٣١ تحقيق محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية .

(٣) انظر إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول لمحمد بن علي الشوكاني ٦٦٢ تحقيق محمد صبحي دار ابن كثير ط ١ سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

(٤) هو واصل بن عطاء الغزال مؤسس المعتزلة الأول وكان من تلاميذ الحسن البصري وكان متكلما بليغا الثغ الراء وكان يتجنبها في خطبه وسمي بالغزال لتردده على سوق الغزالية في البصرة واليه ينسب الواصلية ت ٧٤٨م .

(٥) انظر مواقف الخلاف بين الفقهاء والصوفية د. نظلة الجبوري ١٣١ بحث بمجلة الرسالة الإسلامية اوقاف العراق العددان ١٨٢ ، ١٨٣ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

الثانية أنها تشير إلى دلالة عقلية متضمنة فيها غابت عن عقول البشر ، فالآية أو الحديث يذكر الإنسان بما غاب عنه من الدليل العقلي [١]

ولو لم يعتمد الفقهاء على العقل المقيد بالشرع لما صح استنباطهم ولبطل اجتهادهم وتعليلهم للأحكام ، فقد بحثوا في كل حكم عن علته وفائدته وغايته تحت ما يسمى بحكمة التشريع أو فلسفة التشريع إن صحت التسمية [٢] كما أنهم جعلوا الاجتهاد فرض كفاية في كل عصر كما يقول الدهلوي [٣] وليطل علم المقاصد والمصالح [٤] .

فالفقهاء لم يهملوا العقل ولم يغفلوه كيف وهو غريزة فطرية في الإنسان يدرك بها الأشياء ويستنبط بها الأحكام . يقول ابن تيمية وهذا ما أخذ به الإمام أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وغيرهما [٥] .

والصوفية يعترفون بذلك للفقهاء ويعلمون ذلك جيداً . بيد أن اعترافهم هذا لا يخلو من غمز وهمز طعناً في المنهج والنوايا . يقول الطوسي في كتابه اللمع " اختص الفقهاء بالفهم والاستنباط في فقه الحديث والتعمق

---

(١) انظر منهج البحث عن اليقين بين السلف والصوفية د/ عبد المقصود عبد الغني ١٣ ، ٢٠ مكتبة الزهراء القاهرة ١٩٩٣م .

(٢) ينظر في ذلك : حكمة التشريع وفلسفته للشيخ على أحمد الجرجاوي ط القاهرة ١٩٣٨م وحكمة التشريع وفلسفته وضعته لجنة من علماء الأزهر الشريف بعناية وتقديم د/ عبد الله توفيق الصباغ ٧ ـ ١٠٥ دار القلم الإمارات العربية ط ١٤١٤/١هـ ـ ١٩٩٣م وحجة الله البالغة للإمام شاه ولي الله الدهلوي بجزئيه تحقيق وتعليق د/ عثمان جمعة ضميرية مكتبة الكوثر السعودية ط ١٤٢٠/١هـ/١٩٩٩م .

(٣) انظر مقدمة د/ عثمان جمعة ضميرية ج ١٨/١ م.س .

(٤) يراجع في ذلك نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي د/ أحمد الريوني نشر المعهد العالي للفكر الإسلامي . ومقاصد الشريعة الإسلامية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تونس ١٣٦٦هـ ومقاصد الشريعة الإسلامية للأستاذ علال الفاسي مكتبة الوحدة الوطنية الدار البيضاء المغرب ومن حكم الشريعة وأسرارها للأستاذ حامد بن محمد العبادي ط الشئون الدينية بدولة قطر عام ١٤٠١هـ .

(٥) انظر الرّد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧٦ مطبعة معارف لاهور باكستان ط ١٣٩٩/٢هـ .

بدقيق النظر في ترتيب الأحكام وحدود الأحكام وأصول الشرع ... بالكتاب والسنة والإجماع والقياس ... وتكلموا بالاحتجاجات العقلية على المخالفين واستدلوا بالبراهين البيّنة على أهل الضلالة نصرة للدين وتمسكوا بنص الكتاب أو نص السنة أو قياس على النص أو إجماع الأمة .. [١]

ويقول " إن الفقهاء لم يعرفوا من كتاب الله تعالى ولا من أخبار رسول الله ﷺ إلا ما كان في الأحكام الظاهرة وما يصلح للاحتجاج على المخالفين والناس في زماننا هذا إلى مثل هذا أميس لأنه أقرب إلى طلب الرئاسة واتخاذ الجاه عند العامة والوصول إلى الدنيا " [٢] ويقول أيضا : " واعلم أن مستنبطات الصوفية أكثر من مستنبطات الفقهاء في معاني أحكام الظاهر " [٣] .

وإذا كان الفقهاء قد اعتمدوا منهج النظر والاستدلال . والصوفية اعتمدوا منهج الذوق ، فهل معناه أن الصوفية أهملوا الكتاب والسنة والعقل ؟ . أو بصيغة أخرى : هل الذوق يهمل الكتاب والسنة والعقل ؟ .

ويجاب عن ذلك بأن الصوفية اعتمدوا على الكتاب والسنة ولكن بفهمهم الخاص لهما . وبما يتفق مع منهجهم المعروف . يقول أبو سليمان الداراني[٤] " ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم اياماً فلا أقبل منها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة " [٥] وقال رحمه الله ليس ينبغي لمن ألهم

---

(١) انظر اللمع لأبي نصر السراج الطوسي ٢٦ ، ٢٧ تحقيق د/ عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور .

(٢) انظر اللمع للطوسي ٣٣ .

(٣) السابق ٣٧ .

(٤) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني أبو سليمان من أوائل الصوفية الذين التزموا بالكتاب والسنة والعبادة والزهد مات ٢٢٥هـ انظر ترجمته في طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ٧٥ - ٨٢ تحقيق نور الدين شريبة ط الخانجي مصر ط ١٤١٨/٣هـ - ١٩٩٧م .

(٥) انظر طبقات الصوفية ٧٨ .

شيئا من الخبر أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر فإذا سمعه في الأثر عمل به وحمد الله عزّ وجلّ على ما وافق قلبه . ويقول أبو اليزيد البسطامي [١] "لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود " [٢]

ودخل على أبي يزيد عالم بلدة وفقيهها يوماً فقال : يا أبا يزيد علمك هذا عمن ؟ وممن ؟ ومن أين ؟ فقال : أبو يزيد " علمي من عطاء الله وعن الله ومن حيث قال رسول الله ﷺ من عمل بما يعلم ورثة الله علم ما لم يعلم " [٣]

ويقول " من ترك قراءة القرآن والتفقه ولزوم الجماعة وحضور الجنازة وعيادة المرضى وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع " [٤]

ويقول أبو القاسم الجنيد [٥] " علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته ، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه .. ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة [٦] .

---

(١) هو طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي صوفي كبير له آراء غريبة عدّها البعض شطحات ت ٢٦١هـ انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشيخ عبد الوهاب الشعراني ج ١٧٤/١ ، ١٧٥ تحقيق عبد الرحمن حسن محمود مكتبة الآداب القاهرة ط ١٤١٤/١هـ - ١٩٩٣م وشطحات الصوفية د/ عبد الرحمن بدوي ٥١ - ١٨٦ وكالة المطبوعات الكويت ط ١٩٧٦/٢م .

(٢) انظر تلبيس إبليس لأبي الفرج بن الجوزي ج٩٨١/٣ دراسة وتحقيق أحمد عثمان المزيد دار الوطن السعودية ط ١٤٢٣/١هـ - ٢٠٠٢م .

(٣) الطبقات الكبرى ج ١٧٥/١ .

(٤) تلبيس إبليس ج ٩٨٣/٣ .

(٥) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج ولد بالعراق وكان فقيها ومن كبار أئمة القوم وسادتهم وكلامه مقبول على جميع الألسنة ت ٢٩٧ هـ انظر ترجمته في طبقات الصوفية ١٥٥ والطبقات الكبرى للشعراني ج ١٨٩/١ .

(٦) انظر طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ١٥٩ وتلبيس إبليس لابن الجوزي ج ٩٨٧/٣ ، ٩٨٩ والطبقات الكبرى للشعراني ١٨٩/١ .

ويقول أبو حفص [١] " من لم يزن أفعاله وأحواله بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال " [٢]

ويقول سهل بن عبد الله [٣] "كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل "[٤]

ويقول أيضاً موضحاً أصول الصوفية " أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسوله ﷺ وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق " [٥]

إن هذه النصوص وغيرها الكثير يدل على أن الصوفية الأوائل كانوا يأخذون بالكتاب والسنة في الظاهر وأنهم يلتقون في ذلك مع الفقهاء كما يقول الشيخ زروق [٦] وابن الجوزي في التلبيس [٧] .

ويجعل الدكتور عبد الحليم محمود قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ [٨]

وهذا مبني على سعة المساحة الزمنية لهؤلاء الأوائل وإحسان الظن في الموافقة الظاهرة وإلا فهناك تناقض واضح وصريح فأبو يزيد البسطامي الذي ذكرنا قوله في التمسك بالكتاب والسنة يفتخر على علماء الفقه — علماء الظاهر — فيقول لهم : " أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا

---

(١) هو أبو حفص عمرو بن سلمة النيسابوري شيخ خراسان كان أحد الأئمة والسادة وأول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور ت ٢٧٠ انظر ترجمته في طبقات الصوفية للسلمي ١١٥ وحلية الأولياء للحافظ أبي نعيم الأصفهاني ج ٢٢٩/١٠ دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

(٢) تلبيس ابليس لابن الجوزي ج ٩٩٦/٣ .

(٣) هو سهل بن عبد الله التستري وكنيته أبو محمد أحد أئمة القوم وعلمائهم ت ٢٨٣ انظر ترجمته في طبقات الصوفية ٢٠٦ .

(٤) انظر عوارف المعارف للسهروردي ٦١ ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي دار المعارف بيروت لبنان د/ت .

(٥) طبقات الصوفية للسلمي ٢١٠ .

(٦) انظر قواعد التصوف الشيخ زروق ٤٤ .

(٧) انظر تلبيس ابليس ج ٩٧٩/٣ .

(٨) انظر مقدمة المنقذ من الضلال د/ عبد الحليم محمود .

عن الحيّ الذي لا يموت " يقول أمثالنا حدثني قلبي عن ربي وأنتم تقولون حدثني فلان وأين هو ؟ قالوا : مات . عن فلان وأين هو ؟ مات [١]

وكان يقول " العارف فوق ما يقول ، والعالم تحت ما يقول " [٢] كما يقول معترفا معبراً عن نفسه "

فعلوم القوم من أنفسهم ∴ وعلومي من إله حكماً [٣]

وكان الشيخ أبو مدين المغربي [٤] إذا قيل له فلان عن فلان عن فلان يقول ما نريد أن نأكل قديداً هاتوا إئتوني بلحم طري يرفع همم أصحابه هذا قول فلان أي شيء قلت أنت ؟ ما خصك الله من عطاياه من علم اللّدني ؟ أي حدثوا من ربكم واتركوا فلاناً وفلاناً فإن أولئك أكلوا لحماً طرياً والواهب لم يمت وهو أقرب إليكم من حبل الوريد [٥]

ويقول أبو سليمان الداراني " إذا طلب الرجل الحديث أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا " [٦] ويقول " لو توكلنا على الله تعالى ما بنينا الحيطان ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص " [٧]

ويقول الجنيد " أحب للمبتدي أن لا يشغل قلبه بهذه الثلاث وإلا تغير حاله التكسب وطلب الحديث ــ حديث رسول الله ﷺ والتزوج وأحب

---

(١) الفتوحات المكية محي الدين بن عربي ج ١٣٩/١ ، ج ٢٧٢/٤ تحقيق د/ عثمان يحيي ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ٩٩ دار الحرمين القاهرة ط ١٤١٠/٤هـ ـ ١٩٨٩م

(٢) الفتوحات المكية ج ١١٠/٤ .

(٣) انظر نظرات في معتقدات ابن عربي د/ كمال محمد عيسى ٢٥ دار المجمع للنشر والتوزيع جدة السعودية ط ١٤٠٦/٢هـ ـ ١٩٨٦م .

(٤) انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج ٣٤٠/٢ .

(٥) انظر الفتوحات المكية لابن عربي ج ٢٧٢/٤ .

(٦) انظر قوت القلوب لأبي الفرج المكي ١٥٨ ومطبعة الأنوار المحمدية القاهرة د/ت .

(٧) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ٣١٥ تحقيق د/ حامد الطاهر دار الفجر للتراث ط ١٤٢٥/١هـ ـ ٢٠٠٤م .

للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهم [١] . وقيل له : بم نلت ما نلت ؟ قال : بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة [٢]

ويقول " لا يبلغ الرجل عندنا مبلغ الرجال حتى يشهد فيه ألف صديق من علماء الرسوم بأنه زنديق لأن أحوالهم وراء النقل والعقل " [٣]

والسؤال الآن أين التقيد بالكتاب والسنة والاقتداء بهما مع هذه الأقوال الشنيعة ؟

ويجاب عن ذلك أن من العلماء من يرى أن هذا التناقض تحايل واستدراج للبسطاء والعوام كي يستسلموا لآرائهم ظناً منهم أنها موافقة لكلام الله ورسوله [٤]

ومن العلماء من يرى أن هذا الكلام خرج في حالة خاصة ولا ينبغي أن يعمم وهؤلاء الصوفية قد غلبت عليهم الأحوال فتلفظوا بهذه الألفاظ هكذا يقول الإمام الغزالي فيما نقله عنه ابن غانم المقدسي [٥] والمعنى أن تسلم إليهم أحوالهم ولا ترد عليهم أقوالهم [٦] وهذا ليس حلاً للتعارض .

ومن العلماء من أوّل نصوص الصوفية ، ولكن الحافظ زين العراقي يرفض ذلك ويرّد هذا التأويل قائلاً " ولا يقبل ممن إجترأ على مثل هذه المقالات القبيحة أن يقول أردت بكلامي خلاف ظاهره ولا نؤول كلامه ولا كرامة [٧] والتأويل إن لم يكن بضوابطه الشرعية يؤدي إلى زعزعة الثقة

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي ج ٢٣٩/٤ دار المعرفة بيروت والتصوف بين الحق والخلق ٤٣ .
(٢) الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي ج ١٣٩/١ م . ص .
(٣) انظر التصوف بين الحق والخلق محمد فهر شقفة ٤٣ ط الدار السلفية ط الثانية وقد نقل ذلك من الانوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية على هامش الطبقات ٢٢/١ .
(٤) انظر التصوف بين الحق والخلق محمد فهر شقفة ٤٣ .
(٥) انظر حل الرموز ومفاتيح الكنوز الشيخ ابن غانم المقدسي ٨٠ ـ ٨١ ط المكتبة التجارية بطنطا .
(٦) السابق ٨١ .
(٧) انظر مصرع التصوف او تنبيه الغبي الى تكفير ابن عربي لبرهان الدين البقاعي ٦٦ مكتبة المويد الرياض دات .

بالألفاظ ويجعل الحقائق الشرعية نسبية أو اعتبارية ولو فتح باب التأويل لكل الفرق والمذاهب بما تراه لعاد الشرع كله مؤولاً كما يقول ابن رشد .

والذي أراه أن هذا الكلام يفهم في إطار الظاهر والباطن . فالظاهر لعلماء الرسوم والعامة . وأن الصوفية أمامهم مقيدون بالكتاب والسنة حتى لا يكون هناك وجه للرفض والإنكار والباطن لهم خاصة وهو ما يتفق مع منهجهم وينسجم معه ولذلك لو تأملنا كلام الجنيد " أن الأحوال وراء النقل والعقل " لعلمنا ذلك أي لا تخضعوني لآرائكم الشرعية ولأحكامكم الظاهرية فنحن وراء ذلك فهم يلبسون لكل حالة لبسوها . والذي يؤكد هذا المعنى أنهم في احتجاجهم بالقرآن يعتمدون على منهج التذوق . يقول الدكتور النشار " إن الصوفي يردد القرآن مستغرقاً فيه حتى تنفتح له المعاني الإلهية ثم ينتقل إلى معاناة العبادة والخلوة والتردد بين المقامات الصوفية والأحوال حتى تتقدح المعرفة الإلهية فيه أو تلقى فيه فيتذوقها [١]

ولذلك فسروا كتاب الله تفسيراً إشارياً [٢] يتفق مع هذا المنهج . وكذلك الأمر في السنة فالحديث الصحيح إن كان يتفق مع المنهج أخذوه وإلا أولوه وربما اعتمدوا على الضعيف الذي يؤيد المنهج ورفضوا الصحيح الذي يخالفه [٣] والحجة عندهم ليست في أخبرنا وحدثنا وروينا وسمعنا وإنما في شهدنا ورأينا [٤] .

---

(١) انظر مناهج البحث عند مفكري الإسلام د/ علي سامي النشار ٢٩٧ .

(٢) والتفسير الإشاري يختص بعلوم الخاطر والمشاهدات والمكاشفات وهو ما تفردت به الصوفية انظر التعرف لمذهب التصوف للكلاباذي .١٠٠ ضبطه وعلق عليه وخرّج أحاديثه أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١٤١٣/١هـ .

(٣) انظر إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ج ١٠٤/١ دار المعرفة بيروت لبنان د/ت وانظر جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية د/ محمد بن أحمد الجوير ٢٢٦ مكتبة الرشد ناشرون ط ١٤٢٤/١هـ - ٢٠٠٣م .

(٤) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج ٤٢٤/٢ .

إن العلوم الشرعية " التعليمية " عند الصوفية لا تفيد اليقين وإنما الذي تفيده العلوم الإلهية والتي تأتي عن طريق الكشف ولا تأتي بالدرس ولا بالمدارسة ولا بالتعليم والتعلم وإنما هي هبات يفيض بها الرحمن على من شاء عن عباده ولم أر أحداً من الصوفية أنكرها مطلقاً كطريق يوصل إلى اليقين .

يقول الإمام القشيري ت ٤٦٥ هـ مبنياً أن الكشف الصوفي يستغنى به عن الاستدلال " درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لم يتصدر للطريق قط إلا بعد تبحره في علوم الشريعة ووصوله إلى مقام الكشف الذي يستغني به عن الاستدلال ... فإن حجج القوم أظهر من حجج غيرهم لتأييدها بالكشف [١] .

ويعتبر الإمام الغزالي ت ٥٠٥ هـ المعرفة الحقيقية والعلم اليقيني هو الذي يأتي عن طريق الكشف وذلك بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت ... وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية .. فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب " [٢] فالكشف عند الإمام الغزالي ت ٥٠٥هـ يكفي ولا حاجة للتعليم والدراسة مقرراً أنه أمر ذوقي مباشر تنكشف به حقائق الأمور في القلب دون دليل أو برهان يقول " الكشف نور

---

(١) انظر الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشيخ عبد الوهاب الشعراني ٤٥ دار المعرفة بيروت لبنان ط ١٤٢٧/١هـ - ٢٠٠٦م وجهود علماء السلف د/ الجوير ١٩٠ .

(٢) انظر احياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ١٩/٣ .

يقذفه الله تعالى في القلب لا يحصل بدليل أو برهان وإنما يهجم على القلب فيغمره من حيث لا يدري " [١] ويجعل الإمام الغزالي العلم الذي يحصل للإنسان عن طريق الكشف والإلهام مشابهاً للعلم النبوي الذي يحصل عن طريق الوحي من بعض الوجوه . بيد أنه يجعله أقل درجة وأدنى مرتبة منه لأن الإلهام ليس كالوحي في الشرف ذلك أن الله يقبل في الوحي بحسن عنايته على النفس الكاملة إقبالاً كليًا وينظر إليها نظراً إلهياً ويتخذ منها لوحاً ومن النفس الكلي قلماً . وينتقش فيها جميع علومه فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر [٢] وهذه المرتبة هي أشرف مراتب التعليم وهي خاصة بالأنبياء .. أما الإلهام فإنه تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها ، وإذا كان الوحي تصريحاً بالأمر الغيبي فإن الإلهام تعريض وتلويح به والوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء .. وكما أن الولي دون النبي فكذلك الإلهام دون الوحي " [٣]

فالصوفية يعتقدون أن العلم الذي يأتي عن طريق الكشف والإلهام علم يقيني ينقل الشعراني عن محي الدين بن عربي من رسالته التي بعث بها إلى الإمام الرازي قوله " ولو أنك يا أخي سلكت على يد شيخ من أهل الله لأوصلك إلى حضرة شهود الحق فتأخذ عنه العلم بالأمور من طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب ولا سهر كما أخذه الخضر عليه السلام فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود ولا عن نظر وفكر وظن

---

(١) انظر المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ٨٨ تحقيق د/عبد الحليم محمود مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٥م .

(٢) انظر الرسالة اللدنية للإمام الغزالي ١١٥ ط القاهرة سنة ١٣٥٣هـ .

(٣) السابق ١١٦ وانظر كذلك منهج البحث عن اليقين بين السلف والصوفية د/ عبد المقصود عبد الغني ٥٥ ، ٥٦ .

وتخمين " [١] وإذا كان طريق هذا العلم اليقيني هو الكشف والإلهام فإن الكلاباذي يستبعد العقل والحس . يعني بذلك أنه أمر فوق العقل والحس يقول " إن طريقة الكشف لدي الصوفية لا يمكن الاستدلال عليها بالعقل والحس وإنما هي عن طريق المواجيد ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات " [٢] .

ويعلل ابن عربي إنكار الناس لهذه العلوم الإلهامية والإشارات الربانية أنها جاءت خارجة عن طور النقل والعقل ويعني بذلك عدم تحكيم النقل والعقل فيها يقول فيما نقله عنه تلميذه الشعراني " أصل منازعة الناس في المعارف الإلهية والإشارات الرّبانية كونها خارجة عن طور العقل ومجيئها بغتة من غير نقل ونظر ومن غير طريق العقل فتنكرت على الناس من حيث مجيئها فأنكروها وجهلوها " [٣] ولما كان هذا العلم يستبعد العقل ذهب أحد الباحثين إلى أن منهج الصوفية يمكن أن يسمى بالمنهج اللاعقلي مع شيء من التحفظ " [٤] وإذا كان هذا الباحث قد تحفظ في التسمية فإن الدكتور النشار يصرح قائلاً : " إن الصوفية رفضوا العقل وأسسه رفضاً تاماً " [٥] .

والحقيقة أن الصوفية لم يرفضوا العقل في هذا المجال رفضاً مطلقاً وإنما حددوا مكانه ومجاله . فهو في الأمور المادية ــ عالم الشهادة ــ تفيد اليقين أما في الأمور الروحية ــ عالم الغيب ــ فلا [٦]

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للشيخ عبد الوهاب الشعراني ج ٤٣/١ تحقيق الشيخ عبد الرحمن حسن محمود ط مكتبة الآداب القاهرة .

(٢) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد الكلاباذي ١٠٠ تحقيق أحمد شمس الدين م . س .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج ٥١/١ .

(٤) انظر منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي د/ سعيد باسيل ١١ دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان د/ت .

(٥) انظر مناهج البحث عند مفكري الإسلام د/ علي سامي النشار ٢٩٨ .

(٦) انظر منهج البحث عن اليقين بين السلف والوصفية د/ عبد المقصود عبد الغنيى ٤٤،٤٥ .

فالصوفية يرون أن العقل ضروري للشرع كما أن الشرع ضروري للعقل وقد وضح الإمام الغزالي ذلك فذكر أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع ولم يتبين إلا بالعقل ، فالعقل كالأس والشرع كالبناء . ولن يغني أس ما لم يكن بناء . ولن يثبت بناء ما لم يكن أس .. وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت يمده فما لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت [١] فإذن لا غناء لأحدهما عن الآخر والداعي كما يقول إلى الاعتماد على الشرع وحده مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفي لمجرد العقل عن الشرع وعن أنوار القرآن والسنة مغرور . فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين [٢] ويقال عجز العقل في الأمور الغيبية عدم إدراكه لحقيقة الذات الإلهية وصفاتها ومثل من يريد أن يعرف ذلك بعقله " كمثل رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه [٣] .

وإذا كان العقل عاجزاً عن إدراك حقيقة الذات الإلهية فإن هناك طوراً يفوق العقل ويسمو على مرتبته وهو طور البصيرة الذي يتحقق على أكمل ما يكون في الأنبياء وقد يتحقق بصورة أدنى لدي الصوفية ... ومن ثم فإنهم لم يعتمدوا على العقل ومنهجه في الوصول إلى اليقين الذي يطلقونه . وإنما اعتمدوا على المنهج الذي يقوم على البصيرة أو القلب وهذا المنهج قد أطلقوا عليه تارة كلمة المشاهدة وتارة كلمة الذوق وتارة كلمة الكشف[٤]

---

(١) انظر معارج القدس للإمام الغزالي ٥٩ ط مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٦هـ .
(٢) انظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ١٧٢/٢ دار الفكر ـ القاهرة ١٤٠٠هـ .
(٣) انظر مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون ٤٢٥ ضبط وشرح وتقديم د محمد الإسكندراني م . س
(٤) انظر منهج البحث عن اليقين بين السلف والصوفية د/عبد المقصود عبد الغني ٤٧ .

فالبصيرة أو القلب هو البديل عن العقل في الوصول إلى اليقين ويضرب الإمام الغزالي مثالين يوضح من خلالهما الكيفية التي بها يعرف القلب الحقائق فيقول بعد أن يبيّن أن القلب خارج عن مدركات الحواس :

أحدهما : لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوق بأنهار تفتح فيه . ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض والعلم مثل الماء وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواسي والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علماً ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله [١]

والثاني : يوضح فيه الإمام الغزالي الفرق بين عمل العلماء وعمل الأولياء . فإن العلماء يعملون على اكتساب ذات العلوم الذي يعمل على اكتسابها الأولياء إلا أن الفرق بين الأولياء والعلماء هو أن العلماء يحاولون جلبها من الخارج بالاعتماد على الحواس بينما يعمل أولياء الصوفية على تفجيرها من داخل القلب ، فقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأي الملك على أن يسلم صفحة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم منها جانباً ويرمي بينهما حجاب يمنع إطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الأصباغ الغربية ما لا ينحصر . ودخل أهل الصين من

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ٢٠/٣ دار المعرفة بيروت لبنان . ٣٦٠

غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه ، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً ، فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ ؟ فقيل وكيف فرغتم من غير صبغ ؟ فقالوا : ما عليكم ارفعوا الحجاب ، فرفعوا الحجاب وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق إذا كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل ، فأزداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل ، فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم [١] .

فالغزالي فرّق بين المعرفة التي تأتي عن طريق الحواس والمعرفة الكشفية اليقينية التي تأتي من داخل القلب تفصيلاً أغناه عن زيادة الشرح والإيضاح ومؤدى هذين المثالين أن المعرفة الحقيقية هي التي تأتي من داخل القلب بعد إزالة كدودة المعاصي ورفع حجب الشهوات إذ تكشف له حقائق الأشياء المسطورة في اللوح المحفوظ [٢] .

والقلب الذي يقصده الإمام الغزالي هو القلب الطيب النقي [٣] الذي لا خبث فيه ولم تكدره ظلمة المعصية وهو القلب الباقي على فطرته . يقول الغزالي : " وكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف [٤] والقلب يستطيع

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ٢٢/٣ دار المعرفة ومنهج البحث عن المعرفة عند الغزالي د/ سعيد باسيل ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) منهج البحث عن المعرفة عند الإمام الغزالي ٢٠٦ ، ٢٠٧ ومنهج البحث عن اليقين بين السلف والصوفية د/ عبد المقصود عبد الغني ٤٩ .

(٣) انظر معالم الفلسفة الإسلامية محمد جواد مغنية ٢٦١ دار القلم بيروت لبنان ط ١٩٧٣/٢م .

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي ج ١٤/٣ .

إدراك الحقائق المتصلة بعالم الملكوت وذلك مرهون بصفائه ونقائه وطهارته من الشهوات والمعاصي وفراغه من الشواغل الدنيوية واستغراقه في الله ، حتى لا يكون هناك حجب تحول بينه وبين الإدراك " لأن تلك الحجب تختلف لطافة وكثافة بحسب ما يؤثر فيه من الحواس والشهوات والمعاصي وحب الذات .. وبمقدار ما ينكشف عن القلب من هذه الحجب تكون قدرته على المشاهدة وإدراك الحقائق [١]. ذلك أن القلب بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات فكما أن للمتلون صورة ومثالاً لتلك الصورة يتطبع في المرآة ويحصل فيها فكذلك لكل معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورته ، فتتطبع في المرآة . أعني مرآة القلب فتتضح فيه وكما أن المرآة غير وصورة الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور ، ويحتاج إلى أمر رابع وهو نور بواسطته تتكشف الصورة في المرآة وتظهر فكذلك ها هنا أربعة أمور : القلب وحقائق الأشياء وحصول نقش الحقائق في القلب وحضوره فيه ، ونوُر به تتكشف الحقائق في القلب وهو الملك الموكل بإفاضة العلوم على القلوب البشرية وهو جبريل عليه السلام ، فالعالم عبارة عن القلب الذي يحل فيه مثال حقائق الأشياء والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة والنور والشعاع عبارة عن جبريل [٢] فالقلب إذا بمثابة المرآة مستعد لأن تتجلى فيه حقائق الأمور كلها كما تتجلى الصورة في المرآة [٣] والذي يمنع القلب

---

(١) انظر في التصوف الإسلامي ـ نيكلسون ٨٠ ترجمة د/أبو العلا عفيفي لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٩م والمعرفة الصوفية الدكتور / أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ٥٥٢ مقال بمجلة الرسالة ع ٩٣٢ شعبان ١٣٧٠هـ ـ مايو ١٩٥١م .

(٢) انظر إحياء علوم الدين ج ١٣/٣ ومعارج القدس للإمام الغزالي ٩٨ ط مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٦هـ .

(٣) منهج البحث عن اليقين بين السلف والصوفية ٥٠ ، ٥١ .

من معرفة الحقائق خمسة أسباب ذكرها في الإحياء [١] من نقصان القلب في ذاته كقلب الصبي وكدورة المعاصي والخبث الذي تراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات والحجاب الذي يحجب القلب عن إدراك الحقائق بسبب اعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن .. الخ ما هنالك من الأشياء [٢]

ومن كل ما سبق تستطيع أن تقرر أن الصوفية اتخذوا من القلب أداة لمعرفتهم وأن القلب بإمكانه الوصول إلى اليقين متى صفا ونقا وكان أهلاً لذلك وإذا كان الفقهاء اعتمدوا منهج النظر والاستدلال القائم على النقل والعقل فإن الصوفية اعتمدوا على الذوق والوجدان القائم على القلب . يقول الدكتور النشار " انتهى موقف الصوفية إلى الذوق والحدس " [٣]

**تعقيب**

١ ــ إن منهج النظر والاستدلال الذي يجعل للنقل والعقل المقام الأول كما رأيناه عند الفقهاء أسلم وأفضل من منهج الصوفية في تحقيق اليقين وأنه طريق طبيعي يتفق مع طبيعة البشر ومع إمكانات العقل الإنساني ونستطيع أن نقول إنه منهج واقعي وسبله متاحة لكل من يقدم على السير فيه . ونتيجته محققة لكل من سلك سبيله وبذل قدراً من الجهد . أما منهج الكشف فهو غير معقول لا يعتد به عند العقليين ، إذ أن علوم أصحابه غير عقلية وغير برهانية ، ولذلك فإنه ليس واضحاً وليس طبيعياً في ظاهر الأمر . مما أدى إلى الاختلاف حوله ، وكثرة المختلفين ، بل والمنكرين له وهو منهاج يحتاج إلى جهد شاق لا يستطيعه إلا قلة ضئيلة جداً . ومع هذا

---

(١) انظر هذه الأسباب في إحياء علوم الدين للغزالي ج ٣/١٣ ، ١٤ .
(٢) منهج البحث عن اليقين د/ عبد المقصود عبد الغني ٥١ .
(٣) انظر مناهج البحث عند مفكري الإسلام د/ علي النشار ٢٩٧ .

الجهد الشاق فإن نتيجته قد لا تتحقق إلا للصفوة من هذه القلة [١] والإمام الغزالي كان يعرف صعوبة هذا المنهج ووعورة هذا المسلك ولذلك قال فيما حكاه عن النظار وذوي الاعتبار من الفقهاء وغيرهم " فإنهم استوعروا هذا الطريق واستبطئوا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل في حال فثباته أعبد منه[٢] وما ذلك إلا أنه لا يصلح لكل فرد ولا يتأتى لجميع البشر ويوضح ذلك ما يأتي :

٢ ــ أن منهج النظر والاستدلال عام يمكن أن يسلكه كثير من البشر متى توفرت عندهم الأهلية لذلك ، أما منهج الصوفية فإنه خاص بفئة من الناس ولذلك لا يمكن تعميمه كما أنه لا يمكن إخضاعه للدراسة العلمية ولا للملاحظة الخارجية يقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني " يصطنع الصوفية منهجاً ذوقياً خاصاً بهم ليس من السهل إخضاعه للدراسة العلمية فهو منهج خاص بأصحابه قاصر عليهم دون غيرهم وإذا أردنا أن نعبر عنه تعبيراً سيكولوجياً قلنا إنه نوع من الاستبطان الذاتي كما أن الإدراكات المعاصرة التي يتوصل إليها الصوفي بهذا المنهج إدراكات خاصة لا يمكن إخضاعها للملاحظة الخارجية [٣]

ويقول الأستاذ محمود قمبر في المعرفة الصوفية القائمة على المنهج الذوقي " ليست المعرفة الصوفية ظاهرة بشرية عامة ، إنها تجربة نفسية خاصة ومن ثم فهي لا تصلح للكشف والتصنيف والقياس ولا تكون موضوع ملاحظة وتحليل وتقويم على غرار ما هو متبع في مجال المعرفة

---

(١) انظر منهج البحث عن اليقين بين السلف والصوفية باختصار ٦٠ ، ٦١ .
(٢) إحياء علوم الدين ج ٣/ ٢٠ دار المعرفة .
(٣) انظر المعرفة الصوفية د/ أبو الوفا التفتازاني ٥٥٣ م . س .

العقلية " [١] وقد يقال إن منهج الصوفية ينطوي على نوع من التجربة وهي التجربة الباطنية ولكننا نقول شتان شتان بين هذه وتلك ، بين تجربة يمكن نقلها للآخرين والبرهنة عليها ، برهنة تدفع إلى التسليم بها وبين تجربة ذوقية باطنية لا يمكن البرهنة عليها برهنة تدفع إلى التسليم بها ، بين تجربة موضوعية عامة وتجربة ذاتية شخصية [٢]

٣ ــ إن منهج الفقهاء محدود ويمكن حصره كغاية لأنه مردود إلى أمور معلومة يمكن الوقوف على حقيقتها ومراميها ، أما منهج الصوفية فغير محدود أو لا حدود له لأنه أمر باطني والأمر الباطني لا ضابط له كما يقول الغزالي هذا إن كان الرّد إلى الباطن فقط وإلا فإنه يعتبر التصوف مطلقاً علماً باطنياً يقول " التصوف أمر باطني لا يطلع عليه " [٣]

ولما كان الأمر كذلك فقد ذهب بعض الصوفية كالطوسي إلى أن علوم الصوفية لا حدود لها . على حين أن علوم الفقهاء محدودة لأنها علوم رسوم وفي ذلك يقول " واعلم أن مستنبطات الصوفية في معاني هذه العلوم " يقصد علوم الشرع " ومعرفة دقائقها وحقائقها ينبغي أن تكون أكثر من مستنبطات الفقهاء في معاني أحكام الظاهر . لأن هذا العلم "التصوف" ليس له نهاية لأنه إشارات وبوادر وخواطر وعطايا وهبات يغرفها أهلها من بحر العطاء . وسائر العلوم لها حد محدود وجميع العلوم يؤدي إلى التصوف وعلم التصوف لا يؤدي إلا إلى نوع من علم التصوف وليس له

---

(١) انظر المعرفة عند الصوفية مدخل نفسي ٣١ ، ٣٢ د/ محمد قمبر بحث منشور في حولية كلية التربية قطر ع ٥/١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

(٢) انظر منهج البحث عن اليقين د/ عبد المقصود عبد الغني ٦٢ .

(٣) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ج ٣/٢٤ ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد فتاح ١١٧ ط المكتب الإسلامي عام ١٣٩٤هـ /١٩١٤٥م والظاهر والباطن الأستاذ / أحمد علي زهرة ٢٠٧ .

نهاية لأن المقصود ليس له غاية وهو علم الفتوح يفتح الله تعالى به على قلوب أوليائه في فهم كلامه ومستنبطات خطابه ما شاء كيف شاء " [١] وإذا كان هذا العلم أي التصوف مردود إلى بحور العلوم الإلهية فمن الطبيعي أن لا تكون له نهاية ، ولا يخفى أن هذا الكلام من الطوسي طعن في الفقه والفقهاء لإظهار تميّز التصوف والصوفية ، فليتدبر هذا " إن وصف هذا العلم بكونه لا حدود له يجعله هلامياً ولكنه أراد أن يفسر هذه اللا محدودية بالبحار الرّبانية والعطاءات الإلهية لإضفاء الشرعية عليه وإلا فعلم الفقهاء هم الآخرون علم رّباني ــ فخير وصف لعلم الكتاب والسنة هو العلم الرّباني .

٤ ــ أن كلاً من الفقهاء والصوفية حاول الوصول من خلال المنهج الذي استخدمه الوصول إلى اليقين ــ الصوفية وصولوا إلى اليقين في زعمهم عن طريق القلب ويقابل عند الفقهاء ــ الكتاب والسنة ــ وصولاً إلى الحكم القطعي وإن كان قليلاً نسبياً إذا ما قورن بالظني والقلب على ما ذكره الصوفية بضوابطه عند الغزالي وغيره كمحاولة لم يسلم من الاعتراضات التي وجهت إليه . فهل من الممكن أن يرى الشيء على حقيقته بحيث يكون معصوماً من الخطأ ؟ وكيف تضمن ذلك ؟ وهل في القلب من المؤهلات ما تبلغ به مرتبة العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [٢] ؟ ثم إن جعل الصوفية القلب محلاً للكشف المأمول وتفسير ذلك بالنور يحتاج إلى توضيح وتحديد لأن تفسير الكشف بالنور والنور بالكشف أشبه بتفسير الماء بالماء [٣] فكان الأمر كما يقول المثل فسّر الماء بعد

---

(١) انظر اللمع للطوسي ٣٧ والمدخل إلى التصوف الإسلامي د/أبو الوفا التفتازاني ٩٨ ، ٩٩ دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ط ١٩٧٩/٣م .

(٢) انظر معالم الفلسفة الإسلامية د/ محمد جواد مغنية ٩٦١ دار العلوم بيروت لبنان ط ٢ ١٩٧٣م .

(٣) معالم الفلسفة الإسلامية محمد جواد مغنية ٢٦١ .

الجهد بالماء .

٥ ــ يلاحظ على المنهجين لكل من الفقهاء والصوفية أن هناك جانباً خفياً مفقوداً لا يصل إليه الإنسان إلا بالاستقراء والتتبع وطول النظر وهو واقع عند الفريقين . فبعض الفقهاء أغفلوا المعاني الذوقية والوجدانية في بعض الأحكام . فجاء الفقه فيه شيء من الجفاء كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي [١] وبعض الصوفية أغفلوا المعاني والأحكام الفقهية فوقعوا في بعض المخالفات الشرعية من شطح وخلافه . ولو أن كل واحد من الفريقين عالج هذا الجانب الخفي لحلوا كثيراً من الإشكالات والمشكلات التي أججت نار الصراع بينهما وديننا يطالبنا بالأمرين معاً . وقد وجد ذلك بالفعل وتحقق كما يقال في شخصية الإمام الغزالي فكان فقيهاً صوفياً ولكننا نرى أنه قد غلب جانب التصوف على الفقه . وهذا ما جعل الإمام ابن الجوزي ينتقده . يقول " تكلم أبو حامد الغزالي في علم المكاشفة وخرج على قانون الفقه " [٢] ويقول " والحارث المحاسبي أعذر عندي من أبي حامد لأن أبا حامد كان أفقه غير أن دخوله في التصوف أوجب عليه نصرة ما دخل فيه [٣] وقد سبق الغزالي إلى ذلك شيخه أبو طالب المكي في قوت القلوب حتى قيل إن الغزالي استبطن القوت في الإحياء وممن سار على هذا المنهج ابن علوية المستغانمي في كتابه المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية [٤] وتكلم فيه عن الطهارة والغسل

---

(١) انظر تاريخ التصوف د. عبد الرحمن بدوي . الناشر وكالة المطبوعات الكويت ط ١٩٧٦/٢م .

(٢) انظر تلبيس إبليس لأبي الفرج ابن الجوزي ج ٩٦٥/٣ .

(٣) السابق ج ١٠٥٣/٣ .

(٤) راجع الكتاب من ص ٥ ـ ٢٦٥ تحقيق سعود القواص دار ابن زيدون للطباعة والنشر ط ١ .

والتيمم والصلاة والزكاة والصيام والحج ولكن الرجل لم يشتهر بالفقه وشهرته بالتصوف أكثر ، كما أنه لمز الفقهاء فقال عنهم " بخلاف ما عداهم ــ أي ما عدا الصوفية ــ فإنهم لا يأخذون من القول سوى الظاهر من غير التفات لما له في الباطن من الأسرار القدسية والمعاني الغيبية ولهذا احتجب عنهم ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من نظرهم لباطن الأشياء لما وقف الناس مع ظاهرها " (١)

٦ ــ إن اشتغال كل فريق بما غلب عليه وتمسكه بعلمه وفنه الذي برع فيه من الفقهاء والصوفية في العصور المتأخرة مع فشو البدع ومخالفة الكتاب والسنة زاد من حدة الخلاف بين الفريقين وأوجد صراعاً اختلفت درجته قوة وضعفاً وإيجاباً وسلباً في فترة التراجع الحضاري . فالمتقدمون كانوا متفقين والخلاف بينهم يسير والمتأخرون مختلفون والخلاف بينهم كبير وإزاء تمسك كل فريق بما لديه من قناعات كان الصراع بينهما وهذا ما نحاول التعرف عليه في المبحث القادم .

---

(١) انظر المنح القدوسية لأبي العباس أحمد بن مصطفى المعروف بابن علوية المستغانمي ١٨ م . س .

## المبحث الرابع

## " الصراع بين الصوفية والفقهاء "

إزاء تمسك كل من الفقهاء والصوفية بمنهجه وما ترتب عليه من فهمه لقضايا الدين كله ، وقع الصراع والنزاع بين الفريقين ، كل فريق يحاول أن يثبت أن منهجه هو الصواب ، وطريقته هي الأسلم والأصوب ، وراهن الفريقان على الجمهور وقيادة الرأي العام ، وكان الجمهور مع الفقهاء يعاونهم ويؤازرهم في الوقت الذي لم يعدم فيه الصوفية هم الآخرون أنصاراً معاونين ومآذرين . وإن كانوا أقل من سابقيهم جمعاً وتأثيراً ونفوذاً وقد بدأ الصراع بين الفريقين منذ نشأة التصوف في مرحلته الأولى عندما نظر الفقهاء إلى التصوف على أنه علم محدث في الملّة الإسلامية يقول ابن خلدون " هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة الإسلامية " [١] ومخالف لما عليه سلف الأمة ولعل موقف الإمام أحمد بن حنبل من الحارث المحاسبي وإنكاره عليه الكلام في دقائق النفس وخطرات القلب دليل على ذلك " [٢] والخلاف بين الفقهاء والصوفية . والذي هو طبيعة العصر لم يكن هو الوحيد على الساحة الإسلامية والمسيطر على ميادينها ، فقد كان هناك الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة في علم الكلام ، وبين الحنفية والمالكية في علم الفقه وبين الكوفيين والبصريين في النحو [٣] ونستطيع أن نقول إنه عصر الصراعات المذهبية بكل أبعادها . بيد أن

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ٤٣٢ .

(٢) راجع في ذلك سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ج ٣٢٦/١١ ، ٣٢٧ مؤسسة الرسالة بيروت لبنان وتاريخ بغداد الخطيب البغدادي ج ٢١٤/٨ ، ٢١٥ دار الكتب العلمية بيروت لبنان وتلبيس إبليس ج ٩٧٠/٣ .

(٣) انظر التصوف في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج ٢٨٢/٢ والتصوف في مصر ابان العصر العثماني د/ توفيق الطويل ج ٥٠/٢ .

الخلاف بين الفقهاء والصوفية كان أشد وأعنف حتى وصل الأمر إلى الكفر وإباحة الدماء . يقول الدكتور عبد الله الشاذلي " وكثيراً ما تطور الصراع بين الفريقين إلى حدّ الدّس والكيد والقتل " [١] ومن الطبيعي أن يجابه الفقهاء هذا الوليد الجديد والحادث في الملّة الإسلامية ويقفوا في وجه أصحابه ، يقول الشيخ زروق " ما ظهرت حقيقة في الوجود إلا قوبلت بدعوى مثلها وإدخال ما ليس منها عليها ووجود تكذيبها " [٢]

فالجديد مثير وحافز على التوثب ، وخاصة إذا كان محدثاً كما قدمنا ، فلا عجب أن نجد صراعاً بين الفقهاء والصوفية في هذا الجو . ولم يأخذ الصراع بينهما طابعاً واحداً أو سمتاً معيناً في كل العصور ، بل كان له شأنه في كل عصر بما يناسبه وشأن الصراع كغيره من الأمور التي تتطور من البدايات حتى النهايات . وإذا أردنا الوقوف على طبيعة الصراع فلابد من معرفة موضوعه لأنه من الأهمية بمكان نظراً لأن معظم الذين كتبوا في هذه القضية وتناولوها لم يحددوه أي ــ بداية الصراع ــ ونستطيع أن نقول إن الموضوع هو النص وفهمه فالفقهاء لهم فهم خاص يعتمد على العقل والنقل بقيود وضعوها كما تقدم في منهجهم ، والصوفية لهم فهم خاص . وقد تجاوزوا فيه قنطرة الكتاب والسنة إلى باطنهما وأعماقهما بموازين خاصة فجعلوا القلب بديلاً عن العقل وإن لم يكن مطلقاً ولهذا عُدّ علم التصوف علماً لباطن الشريعة كما يرى البعض[٣] فالنص وفهمه كان المركب الذي ركبه الفريقان والحصان الذي إمتطته الطائفتان لتأكيد طريقتهما وسلامة منهجهما يقول الدكتور الطويل " ورغم

---

(١) التصوف د. عبد الله الشاذلي ج ٢/٢٧٩ .

(٢) قواعد التصوف الشيخ أحمد زروق ٣٧ .

(٣) انظر مواقف الخلاف بين الفقهاء والصوفية د/ نظلة الجبوري ١٢١ .

ما كان بين الطائفتين من خلاف في وجوه النظر فقد كان الدين سبيلهما إلى ارتقاء الزعامة " [١] ويقول " إن الخلاف بين الفريقين راجع إلى اختلاف طرقهم وظاهر سلوكهم مع كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ " [٢] ويحاول بعض الصوفية أن يؤكد الأصل الواحد الذي قام عليه كل من الفقه والتصوف وهو الدين . يقول الشيخ زروق في قاعدة التصوف والفقه من أحكام الدين ... والفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه ، فلهما حكم الأصل الواحدة في الكمال والنقص إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله [٣]

ويرى الشيخ الشعراني أن الفقهاء وإن سلكوا مسلك الظاهر والصوفية وإن سلكوا مسلك الباطن فلا خلاف بينهما لأن ذلك كله منتظم في سلك الدين . يقول " فأهل الحقيقة على اتفاق مع أهل الشريعة وأن كل صوفي فقيه وإن لم يكن العكس صحيحاً . واعتبر الفقه مدخل التصوف وقرر أنهما وجهان مختلفان لعلم واحد " [٤]

ولو تأملنا موقف الشيخ زروق والشعراني لعلمنا أن الأول قال بذلك لأنه فعلاً من الذين يدينون بالجمع بين الظاهر والباطن والشريعة والحقيقة وكتابه "القواعد" في هذا الموضوع كما تقدم . والشعراني قال بذلك لإثبات أنه مع الجمهور من الفقهاء ومع الصوفية ليرضى الطرفين ويجمع بين العلمين . ولذلك ألف كتابه اليواقيت والجواهر والبحر المودود وغيرهما[٥]

وإذا تجاوزنا موضوع الصراع إلى مكانه وجدنا أن المكان حيث حلّ

---

(١) انظر التصوف في مصر إبان العصر العثمان ج ١٦٩/١ ، ج ٤٨/٢ ، ٤٩ .
(٢) السابق ج ٤٩/١ .
(٣) قواعد التصوف للشيخ زروق ٣٥ .
(٤) انظر التصوف في مصر إبان العصر العثماني د/ توفيق الطويل ج ٤٨/١ .
(٥) انظر السابق ج ٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .

الفقهاء والصوفية وانتشر علمهما وكانت الكوفة والبصرة وهما موطن الكثير من الفقهاء وموطن الصوفية الأول ويكاد يكون من المجمع عليه عند الباحثين بأن أول من تسمى بهذا الاسم " التصوف " رجالُ ظهور في الكوفة منهم أبو هاشم الكوفي ت ١٥٠ هـ وجابر بن حيان ت ٢٠٨ هـ وعبدك الصوفي ٢١٠هـ [١] وهؤلاء الثلاثة كانوا من ذوى الاتجاهات العقيدية الفاسدة ودعاة لعلم الباطن المستتر والكيمياء والسحر والدعوة السّرية من المؤرخين من نسب إلى عبدك الصوفي دعوى الحلول والزندقة[٢] .

وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله ت ١٥٠ هـ وتلاميذ مدرسته محمد بن الحسن وزفر وأبو يوسف في الكوفة يرفعون راية الفقه والتي تمثل العلم الظاهري في مقابل العلم الباطني للثلاثة المتقدمين . أما البصرة فكان فيها خليد العصري وكهْمَس القيسي ورابعة العدوية ت ١٨٥ هـ وعبد الواحد بن زيد ت ١٢٧٧هـ [٣]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية " إن أول ما ظهرت الصوفية من البصرة وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد . وعبد الواحد من أصحاب الحسن وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار [٤] ويقول "إن منشأ التصوف كان من البصرة وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة " تصوف " ج ٢٢١٤/٧ ط مركز الشارقة للإبداع الفكري ط ١٤١٨/١هـ - ١٩٩٨م وصفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي د/ كامل الشيبي ٥٤ ، ٥٥ دار المناهل للطباعة والنشر بيروت ط ١٤١٨/١هـ - ١٩٩٧م .

(٢) انظر نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد ٦٤ هامش ١ .

(٣) انظر صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي د/ الشيبي ٦٤ - ٦٧ م . س .

(٤) انظر مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٦/١١ مكتبة المعارف الرباط المغرب .

والزهد مما له فيه اجتهاد " [١] .

وكان من أهل البصرة الحارث بن أسد المحاسبي ت ٢٤٣ هـ ، وكان معاصراً للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ت ١٤١هـ ، ولما تكلم في دقائق النفس وخطرات القلب [٢] أنكر عليه الإمام أحمد ذلك . والشعراني في الطبقات يذكر أن الإمام أحمد كان على خلاف ذلك فإنه لما سمع الحارث اعترف بفضله وقال " كنت أسمع عن الصوفية خلاف هذا ـ استغفر الله العظيم " [٣] ويرى أحد الباحثين أن خصومه أحمد بن حنبل للحارث كانت بسبب جمعه بين علم الكلام [٤] والتصوف واحتج لذلك بكلام ابن خلدون " أصل قصة المحاسبي مع ابن حنبل هو اعتقاد ابن حنبل بأنه لا يجوز أن يكون لدارس الشريعة شيخ يسلمه أمره ، الأخذ ينبغي أن يكون من الكتاب والسنة [٥] .

وكلام المحاسبي في التصوف أكثر . وشهرته به أظهر ولذلك أنكر عليه أحمد . ولم يمنع ذلك من إنكاره علم الكلام أيضاً . لأن أحمد كان متمسكاً بالسنة حريصاً عليها ، فمن خلافها أنكر عليه . فإذا ما انتقلنا من البيئة العراقية التي نشأ فيها التصوف وترعرع إلى المدينة حيث الإمام مالك بن أنس ت ١٧٩هـ إمام دار الهجرة خفت حدة النزاع والصراع قليلاً وذلك لذيوع الحديث . وقد رويت عنه أقوال تدل على إنكاره على الصوفية المعاصرين له ولما قيل إنهم يأكلون كثيراً ثم يأخذون في القصائد ثم يقومون ويرقصون . قال أما سمعت أحداً من أهل الإسلام يفعل

---

(١) السابق ج ١١/١٦ .
(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١١/٣٢٦ ، ٣٢٧ وتاريخ بغداد ج ٨/٢١٤ ، ٢١٥
(٣) انظر طبقات الشعراني ١/١٧٢ .
(٤) انظر نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد ١٦ .
(٥) انظر شفاء السائل وتهذيب المسائل لابن خلدون ٤٦ نشره إغناطيوس اليوسوعي.

ذلك [١] ويروى عنه أنه قال : " من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق . ومن جمع بينهما فقد تحقق وهو غير صحيح[٢] ونقل الشيخ زروق هذه العبارة عن الإمام مالك بقوله " يقول الإمام مالك ... " وشرحها دون تحقيق وتدقيق لهذا القول [٣] .

وفي مصر كان الإمام محمد بن إدريس الشافعي ت ٢٠٤هـ وقد صحب الصوفية عشر سنين وامتدت الصحبة من بغداد حتى مصر ومع ذلك أنكر عليهم بعض الأمور وقال قولته المشهورة " ما لزم أحدُ الصوفية أربعين يوماً فعاد إليه عقله أبداً وأنشد :

ودع الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا كانوا ذئاباً خفاقا [٤]

وقد كان لهذه الصحبة أثر عند الشافعي وأثرت عنه أقوال فيها مدح لمن تمسك بالشرع وتزيّ به وأنه قد أفاد منها يقول " صحبت الصوفية عشر سنين فما استفدت منهم إلا هذين الحرفين ــ الوقت سيف ، وأفضل العصمة أن لا تجد " [٥] وذكره الغزالي ت ٥٠٥هـ في الفقهاء الخمسة الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق وهم الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٤١/١١ تحقيق د/ محمود رشاد سالم ط ١٤٠٦/١هـ وموسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية الشيخ محمد عبد الله المغراوي ج ٢٦/٣ المكتبة الإسلامية القاهرة ط ١٤٢٨/١هـ ـ ٢٠٠٧م .

(٢) إذ من المستبعد أن يقول مالك أن من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق لأن معناه أن من تحقق بعلم الفقه ولم يتحقق بعلم التصوف صار فاسقا . يقول الشيخ البنا : إن هذه العبارة غير صحيحة وهي منسوبة إليه انظر المناسبات الإسلامية ـ سلسلة تراث الإمام البنا ٢٠٢ د/ جمعة بن عبد العزيز دار الدعوة بالإسكندرية ط الأولى . ويقول الشيخ أبو بكر الجزائري إنها مكذوبة عليه انظر إلى التصوف يا عباد الله الشيخ أبو بكر الجزائري ٣٢ مطبعة المدني ط ١٩٨٧/١م .

(٣) انظر قواعد التصوف ٢٤ .

(٤) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ٢٧٠ ، ١٦٠ ط المطبعة المنيرية ـ القاهرة ـ د/ت والتصوف بين الحق والخلق ١٩٩ وموسوعة موقف السلف ج ٢٢٠/٣ .

(٥) انظر طبقات الشعراني ج ١٢٤/١ .

وسفيان الثوري وقال كل واحد منهم كان عابداً وزاهداً وعالماً بعلوم الآخرة وفقيهاً في مصالح الخلق في الدنيا ومريداً بفقهه وجه الله تعالى يعني أنهم من الصوفية " [١]

ويذكر ابن الجوزي أن ذا النون المصري [٢] لما تكلم في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية أنكر عليه ذلك عبد الله بن الحكم وكان رئيس مصر وكان يذهب مذهب مالك وهجره لذلك علماء وفقهاء مصر . لمّا شاع خبره أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف [٣] .

ويبدو أن أسباب الإنكار كانت أعمق من ذلك وأكبر يقول الأستاذ أحمد أمين : " طلع ذو النون على الناس بكلام لم يألفوه من الكلام في الأصول والمقامات والحب الإلهي وأن مصادر المعرفة والعقل والنقل وشيء آخر زاده هو وهو الكشف وإن هناك علماً ظاهراً وعلماً باطناً " [٤] ويضيف نيكلسون إلى ذلك أنه كان من الملامتيه لأنه أخفى تقواه بظهوره بين الناس بالاستخفاف بأمور الشرع ولذلك عدّه المصريون زنديقاً ولو أنهم اعترفوا له بالولاية بعد موته [٥]

ويلفت الدكتور الشيبي النظر إلى سبب آخر وهو صلة ذو النون بالتشيع ويقول : روى الجامي : أن أبا ذا النون المصري كان من موالى قريش ولعل تلك بادرة تدل على صلة ولو طفيفة بينه وبين

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج ١/٢٤ ـ ٢٧ دار المعرفة .

(٢) ذون النون المصري أبو الفيض ويقال ثوبان بن إبراهيم ويقال الفيض بن إبراهيم وهو من أخميم بمصر وكان أبوه نوبيا توفى عام ٢٤٥ هـ انظر ترجمته في طبقات الصوفية للسلمي ١٥ والطبقات الكبرى للشعراني ج ١/١٦٢ .

(٣) تلبيس إبليس لأبي الفرج= بن الجوزي ج ٣/٩٧٣ .

(٤) انظر ظهر الإسلام الأستاذ / أحمد امين ج ١/١٦٨ ط مصر ١٩٥٢م .

(٥) انظر الصوفية في الإسلام نيكلسون ١٧ ، ١٨ تحقيق نور الدين شريبة مكتبة الخانجي ط ٢ سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م والصلة بين التصوف والتشيع د/ كامل مصطفى الشيبي ج ١/٣٩٠ ، ٣٩١ دار الاندلس بيروت لبنان ط ٣/١٩٨٢م .

العلويين " [١] وإنه انتحل صناعة الكيمياء يقول القفطي " إنه من طبقة جابر بن حيان في انتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والإشراف على كثير من علوم الفلسفة [٢] وكان لجابر بن حيان تلميذ أخميمي بلد ذي النون هو عثمان بن سويد فهل هذا يدل على أن كيمياء جابر كانت معروفة في هـذا البلد من قبل ؟ والمعروف أن جابراً كان أسبق مـن ذي النـون وبـذلك تتكشف الأمور الشيعية عند ذي النون المصري من هذه الناحية . وذكـر الدكتور الشيبي نصوصاً كثيرة وأدلة على تشيع ذي النون المصري وقال " وكلام ذي النون المصري طافحٌ بالأسرار الإسماعيلية [٣] وهذا هو السبب الرئيسي الذي أزعج السلطات في مصر وفي بغداد ــ الخليفة المتوكـل ــ لما نعلمه من خلافات بين العلويين والعباسيين ــ ولذلك أرسـلوه مكـبلاً بالحديد من مصر إلى بغداد ولما سأله المتوكل وقال له ما تقول فيما قيـل فيك من الكفر والزندقة فسكت . فقال وزيرة : هو حقيق عندي بما قيل فيه ثم قيل له لم لا تتكلم ؟ فردّ عليه . وقال له : إن قلت لا : كذبت المسلمين فيما قالوه . وإن قلت نعم كذبت على نفسي بشيء لا يعلمه إلا الله تعـالى مني فافعل أنت ما ترى فإني غير منتصر لنفسي . فقال المتوكل هو رجل بري ومما قيل فيه [٤] فهل من المعقول أن تكون التهمة شنيعة بهذا الشكل ثم يعفو المتوكل بهذه السهولة ؟ إن الشيخ الشعراني وتلميذه المناوي يقولان إنها وشاية من أهل مصر في هذا الرجل [٥] ولما كلم الخليفة أعجبه كلامه

---

(١) انظر الصلة بين التصوف والتشيع ج ٣٩١/١ .

(٢) انظر إخبار الحكماء بأخبار الحكماء لعلي بن سيف بن إبراهيم القفي ١٢٧ ط مصر ١٣٢٦هـ

(٣) انظر الصلة بين التصوف والتشيع ج ٣٩٢/١ .

(٤) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج ١/ ١٦٥ والكواكب الدرّية في تراجم السادة الصوفية أو طبقات المناوي الكبرى عبد الرؤف المناوي ج ٤٠٠/١ تحقيق د/ عبد الحميد صالح حمدان المكتبة الأزهرية للتراث د/ت .

(٥) الكواكب الدرية ج٤٠١٢/١ والطبقات الكبرى ج ١٦٥/١ .

فأطلقه هو ورفقته مما يعني أنه كان صاحب لسان متكلم وهذا من المناقب التي يصبغها الشعراني وتلميذه على الشخصيات التي يترجمون لهـا دون نظر إلى الاتهامات الأخرى من ذلك أن الطيور الخضر كانت ترفرف على جنازته وظلت هكذا حتى وصلت إلى قبره [١] وأن الله عاقب الفقهاء الذين حكموا عليه بالكفر ورموه بالزندقة والذين يصفهم المنـاوي بالجهلـة [٢] والفسقة [٣] عاقبهم بانقلاب الزورق بهم في النيل يقـول المنـاوي ومـن كراماته أن تلميذه يوسف بن الحسين الرازي ... خرج فوجد فقهاء أخمـيم تعصبوا ونزلوا إلى زورق ذاهبين إلى سلطان مصر ليشـهدوا بكفـره ، فانقلب الزورق والناس ينظرون فغرقوا حتى الملاح فقيل لـه مـا بـال الرايس؟ قال : حمل الفساق " [٤] إن التفسير المعقول لبراءة ذي النون من المتوكل ترجع إلى كونه لسناً ، فقد كان كما يقول المناوي فصيحاً حكيماً[٥] وكما قيل إن من البيان لسحراً بالإضافة إلى ذلك كان على دراية بالكيمياء النفسية والتي تعني القدرة الروحية على التصرف في الأشياء على نحـو يماثل تغيير الإكسير للمعادن الخسيسة إلى شريفة وإكسير الكيمياء النفسية هو اسم الله الأعظم الذي يحقق كل المعجزات مادية كانت أو معنوية مما لا يصل إليه الإكسير المادي في تأثيره [٦] وقد أشار نيكلسون إلى أنـه كـان مطلعاً على اسم الله الأعظم [٧] والطريقة إلى ذلك مجهولة ويميل الـدكتور الشيبي إلى أنها قريبة من السحر [٨] .

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج ١٦٢/١ والصلة بين التصوف والتشيع ج ٣٩٤/١
(٢) انظر الكواكب الدرّية ج ٤٠٠/١ .
(٣) السابق ج ٤٠٨/١ .
(٤) السابق ج ٤٠٨/١ .
(٥) السابق ج ٤٠٠/١ .
(٦) الصلة بين التصوف والتشيع ج ٣٩١/١ ، ٣٩٢ .
(٧) في التصوف الإسلامي نيكلسون ١٢ .
(٨) الصلة بين التصوف والتشيع ج ٣٩١/١ .

وعبّر المناوي عن هذه الكيمياء النفسية بأنها ما تقوم به الروح الشريفة ويقصد بذلك روح ذي النون من تدبير للأجسام الأخرى . يقول " ومن مقاماته العلية الفائقة وأحواله المدهشة الخارقة أن روحه الشريفة كانت تدبر أجساماً متعددة واحتج على ذلك بكلام ابن عربي [١] وقد استخدم ذلك مع المتوكل فحكم ببراءته بعد أن كان متهماً بالكفر والزندقة وأيّا ما كان الأمر فإننا نسجل هنا وقوف الفقهاء في وجه ذي النون المصري وإنكاره عليه ما كان يقول به والذي يمثل صراعاً محدد الزمان والمكان في مصر منذ القرن الثالث الهجري وإذا ما انتقلنا إلى الشام وجدنا أبو سليمان الداراني [٢] ت ٢١٥ هـ فيما يحكيه عنه السلمي قال : وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق وقالوا إنه زعم أنه يرى الملائكة وأنهم يكلمونه [٣] وإنكار الفقهاء وغيرهم على أبي سليمان الداراني ذكره الإمام ابن كثير في كتابه البداية والنهاية [٤] وعزاه إلى السلمي في محن الصوفية . والظاهر بطلان هذه التهمة عن الشيخ أبي سليمان الداراني . فالسلمي لم يروها بإسناد بل أرسلها ، فالشأن أولاً في صحتها لأن الكتب المسندة في أخبار مشايخ الصوفية لم تذكر هذا الرأي عنه ، بل المذكور عنه خلاف هذا . مما يدل على استقامته وصلاحه . قال شيخ الإسلام ابن تيمية " إن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم ومن اتبعهم للشريعة ، بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري [٥]. كان من أتبع المشايخ للسنة ،

---

(١) انظر الكواكب الدرية للمناوي ج ٤٠١/١ .

(٢) تقدمت ترجمته في المبحث السابق .

(٣) انظر تلبيس إبليس لأبي الفرج ابن الجوزي ج ٩٧٥/٣ .

(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٢٧٠/١٠ تحقيق جماعة من الباحثين دار الريان للتراث القاهرة ط ١٤٠٨/١هـ .

(٥) أحمد بن أبي الحواري كنيته أبو الحسن . وأبو الحواري اسمه ميمون من أهل دمشق صحب أبا سليمان الداراني وغيره من المشايخ وكان من الزاهدين وابنه أحمد كذلك =

فكيف أبو سليمان ؟ " [١]

ويقول ابن الجوزي أيضا " وشهد قوم من الفقهاء وغيرهم على أحمد بن أبي الحواري أنه يفضل الأولياء على الأنبياء ، فهرب من دمشق إلى مكة ... " [٢]

وهذه الشهادة ذكرها الإمام الذهبي في السيّر وتاريخ الإسلام وعزاه للسلمي في محن الصوفية ثم تعقبه بقوله " هذا من الكذب على أحمد رحمه الله ، فإنه كان أعلم بالله من أن يقع في ذلك . وما يقع في هذا إلا ضال جاهل ... " [٣]

ويذكر المناوي أن أحمد بن أبي الحواري التقى بأحمد بن حنبل في مكة وسأله عن أستاذه الداراني وأعجب بكلامه ولم ينكر عليه شيئاً من أقواله يقول المناوي " والتقيا يوماً هو وأحمد بن حنبل بمكة فقال ابن حنبل حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك الداراني فقال : يا أحمد قل سبحان الله بلا عجب . فقال ابن حنبل سبحان الله وطولها بلا عجب . قال : سمعت أبا سليمان يقول : إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً فقام أحمد ثلاثاً وقعد ثلاثاً وقال : ما سمعت في الإسلام حكاية أعجب إليّ منها [٤] .

---

(=) وأبوه فبيتهم بيت الورع والزهد وأسند الحديث ت ٢٣٠هـ انظر ترجمته طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ٩٨ ـ ١٠٢ والطبقات الكبرى للشعراني ١٨٤/١ .

(١) انظر الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٩٥/٢ تحقيق د/ رشاد سالم مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض ط ١٤٠٤/١هـ والرّد على المنطقيين ٥١٤ المكتبة الإمدادية ط ١٤٠٤/٦هـ .

(٢) تلبيس ابليس ج ٩٧٥/٣ .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٩٣/١٢ وتاريخ الإسلام له أيضا ٥٤ تحقيق عمر عبد السلام دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط ١٤٠٨/١هـ .

(٤) الكواكب الدرّية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ج ٣٥٥/١ .

ويلاحظ أن الشام لم يحدث فيها صدام أو صراع بين الفقهاء والصوفية وذلك راجع إلى طبيعتهم ، فإنهم كانوا مطيعين ليّنين ولم يكونوا كأهل الكوفة والبصرة [١] كما أن الشام دولة مدنيّة قدمت الحياة على العقيدة على عكس باقي الأمصار . وكانت في عزلة فكرية إذا قيست بالكوفة والبصرة وكان نشاطها مقصوراً على بعض " مناقشات دينية بين المسلمين والمسيحيين نتيجة لاتصال الآراء " [٢] ويلاحظ أن كلام الشيبي هذا ينصرف إلى المرحلة التاريخية الأولى والتي كان يتمثل الزهد فيها تياراً له رواده ورجاله . أما في المرحلة التاريخية المتأخرة من بعد القرن السادس الهجري وهي مرحلة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وهما شاميان ، فإنه الأمر على العكس من ذلك ومن يراجع كتب الشيخان يجد ردّهما وإنكارهما على صوفية عصرهما ومن سبق عصرهما حتى يذكر ابن عبد الهادي في الكواكب الدّرية أن محنة الإمام ابن تيمية وسجنه كان بسبب موقفه من الصوفية الفلسفية والردّ عليهم [٣] .

وكان التلميذ أخف حدة من شيخه ولكنه ناقشهم وردّ عليهم وأنكر أقوالهم ومن تأمل كتابه المدارج والإغاثة والوابل وغيرها الكثير علم ذلك وفي خراسان حيث التشيع ومنبع الثقافة الفارسية نجد إبراهيم بن أدهم [٤]

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع د/ الشيبي ج ٣٣٤/١ .

(٢) السابق ج ٣٣٥/١ .

(٣) انظر الكواكب الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي ١٧٦ ـ ٢٤٦ تقديم الشيخ علي صبح المدني ط المدني موسسة السعودية مصر ـ د/ت وموسوعة مواقف السلف لمحمد بن عبد الرحمن المغراوي ج ١٠٥/٨ ـ ١٠٧ المكتبة الإسلامية القاهرة ط ١٤٢٨/١هـ ـ ٢٠٠٧م وابن تيمية وموقفه من التصوف د/ مصطفى حلمي كاملا دار الدعوة بالإسكندرية .

(٤) هو اسحق ابراهيم بن أدهم من اهل بلخ كان من أبناء الملوك والمياسير صاحب زهد وورع صحب سفيان الثوري والفيضل بن عياض واسند الحديث ت ١٦٦ هـ وينسب إليه الطريقة الادهمية انظر ترجمته في طبقات الصوفية للسلمي ٣٨،٢٧ والرسالة القشيرية ج ٥٤/١ والطبقات الكبرى للشعراني ج١ ١٦٠ والكواكب الدرية للمناوي ج١ ١٤٢ .

وهو من شيوخ خراسان ومن زهادهم الأوائل يلتقى أثناء زيارتـــه لبغـــداد بالإمام أبي حنيفة ت ١٥٠ هـــ وفي هذا اللقاء يذكر فريد الـــدين العطـــار وغيره أن إبراهيم دخل عليه فنظر أصحاب أبي حنيفة إليه باحتقار ـــ فقال أبو حنيفة هو سيدنا . فقيل بأي شيء بلغ هذا المقام . فأجاب أبو حنيفة لأنه مشغول بخدمة ربه وأنتم مشغولون بخدمة أبدانكم [١] ويذكر ابن كثيـــر أن أبا حنيفة قال لإبراهيم بن أدهم لما التقى به يا إبراهيم رزقت من العبـــادة شيئاً صالحاً فليكن العلم من بالك فإنه رأس العبادة وبه قوام الدين [٢] .

وهذا اللقاء يتم عن احترام وتقدير بين الصوفية والفقهاء ... وإن كـــلاً منهما كان يعرف لصاحبه قدره ومقداره ، بيد أن رواية ابن كثيـــر تلفـــت النظر إلى دعوة إبراهيم للعلم ويعني به العلم الشرعي حتـــى لا يســـتغنى بالعلم الذوقي الكشفي عنه وبناءً على ما تقدم فلا صراع ولا نـــزاع بـــين الفريقين .

وكان من شيوخ خراسان أيضاً عبد الله بن المبارك [٣] وقـــد اتصـــل بالإمام أبي حنيفة رحمه الله وأخذ عنه العلم [٤] ومن المســـتبعد أن يتتلمـــذ على يديه ويكون مخالفاً له ومنازعاً .

---

(١) انظر تاريخ التصوف الإسلامي د/ عبد الرحمن بدوي ٢٢٤ وقد نقل ذلك من تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ـ الترجمة العربية ٣٩ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠/١٣٧ دار الفكر بيروت لبنان جـ ١ سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٩٨م وإبراهيم بن أدهم الأمير الزاهد الشيخ كامل محمد محمد عويضة ٣٥ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١٤١٣/١هـ ـ ١٩٩٣م .

(٣) هو عبد الله بن المبارك المروزي الخراساني ولد عام ١١٨هـ . وكانوا يقدمونه في الأدب على سفيان الثوري ت ١٨١ هـ انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج ١٤٠/١ وكشف المحجوب للهجويري ج ٣٠٦/١ ترجمة د/ إسعاد عبد الهادي قنديل ط القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .

(٤) كشف المحجوب ج ٣٠٦/١ .

ويذكر الهجويري أنه كان موافقاً لأهل الرأي أبو حنيفة وأهل الحديث وكان أهل مرّو يسمونه " رضي الفريقين " بحكم أنه كان موافقاً لكل منهما وقد اختصم فيه كلا الفريقين واتخذ هناك رباطين أحدهما لأهل الحديث والثاني لأهل الرأي وما يزال هذان الرباطان قائمين حتى اليوم ويسيران على قاعدة ذلك الأصل [١] .

وكما اتصل عبد الله بن المبارك بأبي حنيفة اتصل كذلك بالفضيل بن عياض [٢] وهو خرساني به وصحبه مدة [٣] ولم يذكر الهجويري ما الذي تم في هذا الاتصال وحدث في هذه الصحبة وإن كان ذلك يدل على الوفاق لا على الصراع والنزاع .

ويذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أن حاتم الأصم [٤] وهو خراساني أيضاً ، التقى بالإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب الحنبلي المعروف وأن أحمد سأله قائلاً : " يا حاتم فيم التخلص من الناس ؟ قال : يا أحمد في ثلاث خصال : قال وما هي ؟ قال : أن تعطيهم من مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحداً منهم حقاً لك . وتحتمل مكروههم ولا تكره أحداً على شيء فأطرق أحمد ينكت بإصبعه على الأرض ثم رفع رأسه ثم قال : يا حاتم إنها لشديدة فقال له حاتم :

---

(١) السابق ٣٠٧/١ .

(٢) هو أبو علي الفضيل بن عياض خراساني المنشأ من ناحية مرّو . ومن قرية تعرف بـ " قندين وكان من كبار القوم ... وممدوحا بكل الألسن بين الملل . وأحواله عامرة بالصدق والإخلاص ت ١٨٧ هـ انظر ترجمته في الطبقات الكبرى ج ١٥٨/١ وكشف المحجوب ج ٣٠٨/١ .

(٣) كشف المحجوب ج ٣٠٨/١ .

(٤) هو حاتم بن عنوان بن يوسف الأصم وكنيته أبو عبد الرحمن من قدماء مشايخ خراسان وأبرز تلاميذ شقيق البلخي ت ٢٣٧ انظر ترجمته في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٢٤١/٨ ـ ٢٤٥ والرسالة القشيرية ج ٩٩/١ والطبقات الكبرى للشعراني ج ١٨٠/١ .

وليتك تسلم وليتك تسلم [١] ولابد أن أحمد كان قبل هذا اللقاء على علم بمكانة حاتم ويؤيد ذلك ما رواه الخطيب البغدادي أيضاً " أن ابن حنبل لما سمع بعض كلام حاتم منقولاً إليه قال : سبحان الله ما أعقله من رجل [٢] وجرت له مناظرات مع العلماء في بغداد فقطعهم على الرغم من أنه كان أعجمي اللسان وقد سئل عن السبب في انتصاره رغم أعجميته فقال : معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي قالوا : أي شيء هي ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ واحفظ على نفسي لا نتجاهل عليه فبلغ ذلك أحمد بن محمد بن حنبل فقال سبحان الله ما أعقله من رجل [٣] وبالرغم من احترام أحمد بن حنبل لهذا الشيخ الخراساني وتقديره له ، لم أر ابن عبد الهادي المعروف بابن المبرد يتكلم عن ذلك ، ومعلوم أن كتابه " بحر الدم فيمن تكلم فيه أحمد بمدح أو ذم " خاص بهذا الموضوع . ولما تكلم الهجويري [٤] عن حاتم هذا لم يذكر هذا اللقاء .. مما يجعلنا نقول : إن العهدة في ذلك على صاحب تاريخ بغداد .

وبالنظر في الأماكن التي ذكرناها نجد أن الصراع والنزاع يقوى أحياناً ويضعف أحياناً أخرى ويكثر في بيئة ويقل في بيئة أخرى على حسب ما يسود فيها من ثقافات وما يحدث فيها من خلافات ويثار فيها من مشكلات يدلي فيها الفريقان بدلوهما . فالصراع والنزاع لم يأخذ طابعاً واحداً وسمتاً معيناً . نستطيع أن نقول إنه هو الذي كان سائداً دون غيره ، كما يستطيع الباحث أن يقرر أنه متى وجد التصوف والصوفية في مكان ما ، إلا وجد للفقهاء فيهم موقف واضح ورأي ساطع سواء كان بالموافقة أو بالمخالفة

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨/٢٤١ ـ ٢٤٥ وتاريخ التصوف الإسلامي ٢٥٣ .
(٢) تاريخ بغداد ج ٨/٢٤٢ .
(٣) تاريخ بغداد ج ٩/٢٤٤ .
(٤) انظر كشف المحجوب للهجويري ج ١/٣٢٦ .

وأنه كلما ابتعد الإنسان عن المراحل الأولى للتصوف ــ والتي كان فيها موافقاً للكتاب والسنة كما يقول ابن الجوزي [١] ظهرت مدارس ونظريات وطرق صوفية تصدى لها الفقهاء بحزم وحسم فأقروا الموافق وأنكروا المخالف .

وأمامي نموذجان للصراع بين الصوفية والفقهاء : الأول : الإمام أبو حامد الغزالي ت ٥٠٥ هـ وهو يمثل التصوف السني والثاني محي الدين ابن عربي ت ٦٣٨هـ وهو يمثل التصوف الفلسفي .

أما الإمام الغزالي ت ٥٠٥هـ فإنه يذكر في كتابه الإحياء أن علماء الباطن الصوفية ــ أرفع شأناً وأعظم حالاً من علماء الظاهر ــ الفقهاء ــ يقول : " علماء الظاهر زينة الأرض والملك وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت " [٢] ويقول : " ومفتي القلوب هم علماء الآخرة ــ أي الصوفية ــ وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة كما أنه بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا " [٣] ويقول " الفقه علم الدنيا والفقهاء علماء الدنيا " [٤] ومهمتهم لا تتعدى ذلك [٥] ويؤكد على أن علم الفقه لا يتعدى الأمور الدنيوية والفقهاء لا يتجاوزونها فيقول " إعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام . فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ج ٩٧٩/٣ .
(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ٢٢/١ دار المعرفة بيروت ـ لبنان وراجع كذلك الإمام الغزالي والتصوف عبد الرحمن دمشقية ١٨٣ دار طيبة ط ١٤٩/٢ .
(٣) احياء علوم الدين ج ٢١٣/٤ ، ج ٥٨/١ ـ ٨٢ .
(٤) انظر إحياء علوم الدين ج ١٧/١ .
(٥) انظر المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للإمام الغزالي ٣١ ط مكتبة الجندي القاهرة .

أظهر ، أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه . وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان ، أما القلب فخارج عن ولاية الفقه لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال : هلا شققت عن قلبه [١] ... وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادام له رقبة ومال وذلك في الدنيا ... وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها ... وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة ... فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجاً عن فنه وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع مطالبة السلطان حتى أنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان حكم بأنه برئت ذمته . وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين والورع على أربع مراتب ... وهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى وهي الاحتراز عن الحزم الظاهر .. [٢] فجميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا ... وإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك على سبيل التطفل [٣] ولم يقف الأمر بالإمام الغزالي عند هذا الحدّ ، بل ذهب إلى أن علماء الفقه ــ علماء الظاهر ــ جهلة في علم الباطن يقول " ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه ... ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهر ولا يحتاج إلى شيء منها " [٤] وأن الفقهاء اشتغلوا

---

(١) الحديث اخرجه البخاري ومسلم واحمد وغيرهم من حديث اسامة بن زيد ﷺ

(٢) إحياء علوم الدين للامام الغزالي ج ١ ١٨ ، ١٩ باختصار وتصرف يسير .

(٣) السابق ج ١ ١٩ .

(٤) انظر السابق ج ١ ٢١ .

بغرض كفاية قد قام به جماعة وأهملوا ما لا قائم به [١] يعني علم الباطن . ويفسر الغزالي سبب ذلك قائلاً " هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأفراد والتسلط به على الأعداء [٢]

هيهات . هيهات قد إندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء . ولذلك كان الطب أقل من الفقه . وإن كان كلا منهما من علوم الدنيا إلا أن الفقه أفضل منه وأشرف إذ به يتولى الأوقاف والوصايا ويحازة مال الأيتام وتقلد القضاء .. الخ يعني أن الفقهاء بعلمهم هذا ــ علماء الدنيا ــ وطلاب مناصب . ثم يصل الإمام الغزالي في نهاية المطاف إلى أن علم الظاهر ــ علم الفقهاء ــ لا يمكن أن يصل إلى علم الباطن ــ علم الصوفية ــ وهو علم المكاشفة يقول " وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة ، فإن قلت فصّل لي علم طريق الآخرة تفصيلاً يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله ، فاعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة .

فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم قال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله [٣]

وإن علماء الظاهر ــ الفقهاء ــ كانوا مقرّين ومعترفين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب [٤] والشافعي رحمه الله وهو من الفقهاء يعني من علوم الظاهر لم يستفد مما وصل إليه من الخوف والزهد من علم كتاب

---

(١) السابق ج ٢١/١ .
(٢) السابق ج ٢١/١ .
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ج ١ ١٩ .
(٤) السابق ج ٢١/١ .

السلم والإجارة وسائر كتب الفقه .. بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيهما [١] يعني باختصار أن الشافعي لم يستفد من الفقه الذي ضيع فيه حياته وأفنى فيه عمره ، ولست أدري إذا كان الخوف والزهد قد أخذا من القرآن والأخبار . فهل أخذ الفقه من التوراة والإنجيل ؟ ولكن لم جعل الإمام الغزالي الفقهاء في مرتبة ومنزلة دون مرتبة ومنزلة الصوفية ؟ والجواب عن ذلك لأسباب

١ ــ أن الصوفية خصوا بعلم المكاشفة دون الفقهاء .. وهذا العلم غاية العلوم . كما يقول الغزالي فيما تقدم .

٢ ــ أن علماء الكشف علماء الباطن قد استغنوا بكشفهم عن طلب العلم بطريق الاكتساب المعهود . وهذه العلوم التي تهبط عليهم هي أعظم مقاماً من تلك التي ينالها الفقهاء بطريقة التعلم وحفظ المتون ولذلك كانت العلوم التعليمية دون العلوم الإلمامية يقول الإمام الغزالي " اعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية لذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ... فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة والكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها ... " [٢]

٣ ــ أن أصحاب المكاشفات " أهل الباطن " يكثرون بمكاشفاتهم من الشطح ويصرحون بكلام لا يوافق الشرع ، بل يخالفه أشد المخالفة وهذه العبارات السيئة لا تجد من ينكرها ويقف في وجه قائلها إلا الفقيه ولذا ذموه ونالوا منه ووصموه بالعمي وقسوة القلب [٣] فوقوف الفقهاء في وجه هذه

---

(١) السابق ج ١ ، ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) السابق ج ٣ ، ١٩ .

(٣) انظر أبو حامد الغزالي والتصوف عبد الرحمن دمشقية ١٨٦ ، ١٨٧ .

المخالفات كان من أسباب الصراع التي جعلت الصوفية يرمونهم بهذه التهم وللأسف يدافع الإمام الغزالي عنها بقوله " إن هـذه الأمـور تطـوي ولا تحكى[١] فهو يلتمس العذر للصوفية ولا يلتمس العـذر للفقهـاء وفلسـفة الصراع تكمن في ضيق صدر الصوفية أصحاب الكشف " علماء الباطن " من الفقهاء لأنهم لا يريدون أن يكون كشفهم موقوفاً على الأدلة الشـرعية المحررة التي يحكم بها الفقهاء ويحتكمون إليها لأن هذا تضييق لرحمة الله الواسعة كما يقول الإمام الغزالي [٢] وإني لأعجب مـن موقـف الإمـام الغزالي المتقدم إذ أنه فقيه من كبار فقهاء الشافعية وله كتـب فـي الفقـه والأصول يعلمها من طالع مؤلفاته [٣] والتي تدل على أنه فقيه مجتهد مـن طراز فريد . فإذا تكلم فيما نسميه بعلم المعاملة لا يحيد عن خـط الفقـه ومنهج الفقهاء قيد أنملة فهو يعرض المسألة بكل جوانبها ويذكر فيها أقوال العلماء والرأي الراجح كطبيعة منهج الفقهاء ـ أمـا إذا تكلـم الغزالـي الصوفي " المكاشف " تكلم بلسان آخر غير لسان الفقيـه فـإذا أشـعرته بمخالفته للعلوم الشرعية في ذلك فإنه يقطع كلامه فجأة ليذكرك بأن هذا من علوم المكاشفة ومما لا يليق بعلوم المعاملة " [٤] والسبب في ذلك يعود إلى تقسيم الناس إلى قسمين : عوام وخواص وعلم العوام هو الظـاهر وعلـم الخواص هو الباطن . ولذلك ألف كتاباً سماه " المضنون به على غير أهله" فالعوام عنده لا يليق بحقهم إلا علوم الظواهر كالحث على العبادات وغير ذلك . أما الخواص فإنه يجوز إطلاعهم على العلوم الكشفية كالإطلاع على

---

(١) انظر مشكاة الأنوار للإمام الغزالي ١٩ ـ ٢٠ مكتبة الجندي ـ القاهرة .
(٢) ابو حامد الغزالي والتصوف عبد الرحمن دمشقية ١٨٧ م . ص .
(٣) انظر أبو حامد الغزالي ٣٥ ، ٣٦ والإمام الغزالي وجهوده في التجديد والإصلاح د. علي محمد الصلابي ٢٠ ـ ٢٤ مؤسسة اقرا القاهرة ط ١ ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م .
(٤) احياء علوم الدين ج ١ ١٩ .

حقيقة النبوة وكيفية سلوك الوحي ومعرفة درجاته وهذه من العلوم التي لا يجوز أن تسطر في كتب العامة ولا يصرح بها أمامهم [١] وهذا هو الذي جعل الإمام ابن الجوزي ينتقده ويقول " وجاء أبو حامد وصنف كتاب الإحياء على طريقة القوم ... وتكلم في علم المكاشفة وخرج على قانون الفقه " [٢] والدكتور عبد القادر محمود لا يوافق على ذلك ويعتبر ذلك من الأخطاء الجسيمة التي وقع فيها ابن الجوزي عندما زعم أن الغزالي باع الفقه بالتصوف ويرى أن الغزالي رائداً في كل جهاته الفقهية والكلامية والفلسفية والصوفية على الإطلاق [٣] والحقيقة أن إنغماس الإمام الغزالي في التصوف كعلاج لأزمته الروحية التي مرّ بها تؤكد أنه تغافل عن الفقه وغيره وسلّم بإنقياده لهذا العلم الذي وجد فيه اليقين المنشود فدخل إليه دخول المحب العاشق الفاحص الناقد فتعامل معه بقلبه قبل عقله وبذوقه قبل فقهه فمأخذ ابن الجوزي له ما يبرره [٤] وللتصوف بريق وجذب يجده الصوفي في التصوف ولا يجده في الفقه كما قال ابن الجوزي في كتابه المنتظم [٥] .

---

(١) السابق ج ٥٨/١ هذا وقد لام ابن رشد الإمام الغزالي عندما صرح بأن العلم هو الذي يحصل بالخلوة والفكرة دون التعليم الذي يحصل بالمدارسة والمذاكرة فقال " وأما في كتابه الذي سماه " المنقذ من الضلال " أنحى فيه على الحكماء وأشار إلى أن العلم إنما يحصل بالخلوة والفكرة وأن هذه المرتبة هي جنس مراتب الأنبياء في العلم وكذلك صرح بذلك بعينه في كتابه الذي سماه بكيمياء السعادة . " الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد ٨٩ تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة بيروت . لبنان ط ١٤٠٢/١هـ - ١٩٨٢م .

(٢) تلبيس إبليس ج ٩٦٤/٣ ، ٩٦٥ .

(٣) انظر الفلسفة الصوفية في الإسلام د/ عبد القادر محمود ٦١٨ دار الفكر العربي القاهرة ط ١٩٦٧/١م .

(٤) الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه د/ يوسف القرضاوي ٩٣ مؤسسة الرسالة ط ١٤٢١/١هـ - ٢٠٠٠م .

(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج بن الجوزي ١٦٨/٩ ، ١٦٩ دار الكتب العلمية بيروت لبنان وأبو حامد الغزالي عبد الرحمن دمشقية ٢٧٧ .

وبالرغم من مكانة الإمام الغزالي وإحترامنا له إلا أنه كسائر البشر له وعليه ولذلك حمل عنه التاريخ وحمل عليه التاريخ . ومن المآخذ التي أخذها عليه العلماء قوله بالكشف مدعياً أنه لا يودع في الكتب ولا يصلح أن يلقى لغير الخواص [١] وقوله بأن الكشف والإلهام من الأدلة القاطعة التي لا يمكن إنكارها كمبدأ عام [٢] وعندما زعم أن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد [٣] وعندما ذكر كلام الصوفية الفاسد والباطل واعتذر عنهم بأن التعبير خانهم حين عجزوا عن وصف ما شاهدوا من المكاشفات [٤] ولذلك يقول " إن هذه الأمور تطوي ولا تحكي كما تقدم . وقد انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية وهو فقيه حنبلي المكاشفة عند الإمام الغزالي وردها إلى الفلسفة وهو انتقاد خطير لأنه يخرج الغزالي من دائرة التصوف السني إلى التصوف الفلسفي وليس ذلك على الإطلاق يقول " وأما التي يسميها الغزالي علوم المكاشفة ويرمز إليها في الإحياء ففيها يستمد من كلام المتفلسفة وغيرهم كما في مكشاة الأنوار والمضنون به على غير أهله . وغير ذلك وبسبب خلطه التصوف بالفلسفة كما خلط الأصول بالفلسفة [٥]

وقد آلت مسألة الكشف هذه بابن عربي إلى القول بأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول ولهذا جعل مرتبة الولي

---

(١) الأخلاق عند الغزالي زكي مبارك ١٠١ دار المعارف القاهرة .
(٢) الفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٣) انظر المنقذ من الضلال للغزالي ٤٥ تحقيق د/ عبد الحليم محمود دار الكتب الحديثة القاهرة د ت .
(٤) الفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٦١١ وراجع كذلك قواعد التصوف للشيخ زروق ٨٨ .
(٥) انظر شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣٥ دار الكتب الحديثة القاهرة د ت وأبو حامد الغزالي ١٦٧ .

أرفع من مرتبة النبي ولم لا تكون كذلك والنبوة والرسالة تنقطع بموت الرسول . أما الولاية فإنها لا تنقطع ولذلك يقول " إن الرسالة والنبوة — أعني نبوة التشريع ورسالته تنقطعان والولاية لا تنقطع أبداً " [١] وإذا كان الإمام الغزالي لا يرى الكشف الذي يقول به موقوفاً على الأدلة المحررة من الكتاب والسنة . لأن ذلك تضييق لرحمة الله الواسعة . يقول في المنقذ ومن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة [٢] فإن ذلك يحدث نزاعاً وصراعاً كبيراً بينه وبين الفقهاء الذين جعلوا معيارهم الشرعي هو الكتاب والسنة ، والغزالي يرى أن الاعتماد على الأدلة الشرعية في الكشف تضييق رحمة الله الواسعة ، مما يجعلنا نقول أن الفقهاء على حق ومنهجهم يتفق مع تعاليم الشرع وأحكام الدين .

**النموذج الثاني** : وهو محي الدين بن عربي أحد شيوخ الصوفية الفلسفية في القرن السابع الهجري ، وقد حمل محي الدين على علماء الشريعة — علماء الفقه — علماء الظاهر وسماهم فراعنة الرسل يقول في كتابه الفتوحات المكية " وليس الإطلاع على غوامض العلوم الإلهية من خصائص نبوة التشريع . بل هي سارية في عباد الله من رسول وولي وتابع ومتبوع فأين الإنصاف منك ؟ أليس هذا موجوداً في الفقهاء وأصحاب الأفكار الذين هم فراعنة الأولياء ودجاجلة عباد الله الصالحين ؟ والله يقول لمن عمل منا بما شرع الله له أن الله يعلمه . **واتقوا الله ويعلمكم الله** " [٣] وقال : " **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** " [٤] ... " [٥] ويقول " ما

---

(١) انظر فصوص الحكم و التعليقات عليه لمحي الدين بن عربي ٦٢ تقديم د. ابو العلا عفيفي توزيع دار الفكر العربي - القاهرة د.ت .

(٢) انظر المنقذ من الضلال للامام الغزالي ٩٣ تحقيق د. عبد الحليم محمود .

(٣) البقرة اية ٢٨٢ .

(٤) الانفال اية ٢٩ .

(٥) انظر الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي ج٣ ٢٥١ تحقيق د. عثمان يحيى ط. الهيئة العامة للكتاب و التصوف بين الحق و الخلق للاستاذ الشقفة ٣١ الدار السلفية .

خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم ــ أهل الظاهر ــ على أهل المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذين منحهم أسراره في خلقه وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه ، لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام [١] والفقهاء علماء الرسوم . وأهل الظاهر ــ أرباب دنيا وطلاب رئاسة وجاه . وشاركهم الملوك في ذلك " وأما الملوك فالغالب عليهم عدم الوصول إلى مشاهدة هذه الحقائق فشغلهم بما دفعوا عليه فساعدوا علماء الرسوم فيما ذهبوا إليه إلا القليل منهم ــ فإنهم اتهموا علماء الرسوم في ذلك لما رأوا من إنكبابهم على حطام الدنيا وهم في غنى عنه وحب الجاه والرئاسة وتمشية أغراض الملوك فيما لا يجوز ويقى العلماء بالله تحت ذل العجز والحصر كرسول كذبه قومه . وما آمن واحد منهم [٢]

ويقول " وعلماء الرسوم " أهل الظاهر " آثروا الدنيا على الآخرة ، وآثروا جانب الخلق على جانب الحق . وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم [٣] .

والدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم " فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به وألحقهم بالذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون " وهم في إنكارهم على أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعاً " [٤]

وعلماء الفقه " أهل الظاهر " عُمى البصائر " فانظر ما يقاسيه في

---

(١) الفتوحات المكية ج ٤ : ٢٦٤ .
(٢) السابق ج ٤/٢٢٦ .
(٣) الفتوحات المكية ج ٤ : ٢٦٧ .
(٤) السابق ج ٤/٢٧٠ .

نفسه ــ العالم بالله ــ فسبحان من أعمى بصائرهم "علماء الرسوم" حيث أسلموا وسلّموا وآمن بما به كفروا " [١]

وإنهم جهلة " إن من شأن علماء الرسوم في الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول " فهمني ربي " ويرى أنه أفضل منه وأنه صاحب العلم " [٢] "إن أصحابنا ما اصطلحوا على ما جاؤا به في شرح كتاب الله بـ " الإشارة " دون غيرها من الألفاظ إلا بتعليم إلهي جهله علماء الرسوم " [٣]

وإذا كان علماء الرسوم جهلة ، فإن الفهم من نصيب أهل الباطن " إن الفهم الذي أعطاه الله في القرآن أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسوم ــ الفقيه ــ " [٤]

" وأن أهل الله العاملون به أحق بشرح كتاب الله وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم " [٥] ولم لا يكونون أهل الفهم عن الله . وقد خصوا بالمكاشفات والمشاهدات التي حُرم منها أهل الظاهر ــ علماء الرسوم ــ " فليس لأصحابنا طريق في العلم النظري لما يتطرق إليه من الفساد والظن ويعني بأصحابنا أصحاب القلوب والمشاهدات والمكاشفات الذين خصوا بالفيض الإلهي " [٦] وإذا كانت المعرفة الإلهية " النقل والعقل " يشترك فيها أهل الظاهر والباطن ، فإن أهل الباطن تميزوا عن غيرهم بالكشف " فبحث أهل الطريق عن هذه المعاني ليحصلوا منها على أمر يتميزون به من أهل النظر الذين وقفوا حيث بلغت بهم أفكارهم [٧] .

---

(١) السابق ج ٤/٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٢) السابق ج ٤/٢٧١ .
(٣) السابق ج ٤/٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٤) السابق ج ٤/٢٧١ .
(٥) السابق ج ٤/٢٦٩ .
(٦) السابق ج ٤/١٦٢ بتصرف يسير .
(٧) السابق ج ٤/٢١٨ .

وإذا كان هذا شأن أهل الظاهر فلا عجب في حسدهم وبغضهم لأهل الباطن [١]

ولماذا ينكر أهل الظاهر على أهل الباطن ما خصوا به ؟ ولو أنصفوا لعلموا أنهم يتفاضلون فيما بينهم في العلم والفهم " ولو كان علماء الرسوم ينصفون لاعتبروا في نفوسهم إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمونها فيما بينهم فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك . ويعلو بعضهم على بعض في الكلام في معنى تلك الآية ويقرّ القاصر بفضل غير القاصر فيها . وكلامهم في مجرى واحد ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك ينكرون على أهل الله إذا جاؤوا بشيء يغمض عن إدراكهم وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء . وأن العلم لا يحصل إلا بالتعلم المعتاد في العرف .

وصدقوا . فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلا بالتعلم وهو الإعلام الرحماني الرّباني .. " [٢] ولذلك يهدد ابن عربي بيوم القيامة للفصل بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، فإذا كان في غدٍ يوم القيامة يكون الأمر في الكل كما قال الشاعر :

سوف ترى إذا إنجلى الغبار أفرسٌ تحتك أم حمار

كما يتميز المحقق من أهل الله من المدعي في الأهلية يوم القيامة ، قال بعضهم :

إذا اشتبكت دموع في خدود تبيّن من بكى ممن تباكى [٣]

---

(١) انظر الفتوحات المكية لابن عربي ج ٢٢٥/٤ .
(٢) السابق ج ٢٦٦/٤ وراجع كذلك التصوف بين الحق والخلق ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) السابق ج ٤ : ٢٧٠ .

إن هذه العبارات تدل دلالة واضحة على إتهام الصوفية للفقهاء . كما أنها تدل كذلك على مدى ما وصلت إليه العلاقة بين الطرفين وأن تشنيع الصوفية على الفقهاء سببه فهم الفقهاء لآرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم وغاياتهم ، والصوفي لا يحب من يكشف أمره ويفضح ستره . ولذلك كلما أمعن الفقهاء في كشف حقيقة الصوفية كلما زادت حدة الصراع بينهما .

وإذا كان للنص دلالته عند الفريقين كلٌ بحسب منهجه ، فإن الصوفية لما يعتريهم من الأحوال تعجز عنه الكلمات وتضيق عنه العبارات قد يصرحون بأمور هي عند الفقهاء من المخالفات والتجاوزات لكونها بعيدة الدلالة جداً ولا يقبلها النقل ولا العقل ، وللفقيه الحق في اعتراضه على الصوفي في ذلك لأنه لم يستطع أن يعبر عن مقصده بوجه سليم أو لفظ سديد . يقول الشيخ زروق " مراعاة اللفظ لتوصيل المعنى لازم كمراعاة المعنى في حقيقة اللفظ ، فلزم ضبط المعاني في النفس ثم ضبط اللسان في الإبانة عنها ، والأصل المتكلم في الأولى والثاني . فمن هذا الوجه وضع الأئمة لحن العامة ونبهوا على وجوه الغلط في العبارات وربما كفّر وبدّع وفسّق محقق لقصور عبارته عن توصيل مقصده بوجه سليم عن الشبه وأكثر ما وقع هذا الفن للصوفية حتى كثر الإنكار عليهم أحياءً وأمواتاً [١] ولمّا لم تسعفهم الكلمات وقعوا في الطامات وتكلموا بالشطحات حتى كفّر من كفر وفسق من فسق بواضح الشريعة ولسان العلم ظاهراً وباطناً فلزم التحفظ في القبول بأن لا يؤخذ إلا عن الكتاب والسنة " [٢]

ومع مخالفات القوم فإن بعضهم يرى الحجة في جانبه وأن لهم الحق في الحكم على غيرهم من أهل الظاهر ــ الفقهاء ــ لأن عندهم ما عند

---

(١) قواعد التصوف للشيخ زروق ١٧٨ .
(٢) السابق ١٨٢ .

الفقهاء وزيادة [١] .

يقول أبو طالب المكي " أهل الظاهر هم أهل الخبر واللسان وعلماء الباطن هم أرباب القلوب والعيان .. وعلم الظاهر حكم وعلم الباطن حاكم والحكم موقوف حتى أن الحاكم يحكم فيه " [٢]

وهذا الحكم فيه نظر : لأنه قلب للموازين وتحكيم أمر موهوم لا سبيل إلى اليقين فيه . والصحيح ما ذكره الشيخ زروق وهو أن الفقيه حاكم على الصوفي والفقه حاكم على التصوف . ومن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي دون العكس . ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه . ولم يكف التصوف عن الفقه ، بل لا يصح دونه . ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به ولذلك قيل كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً[٣] وقد تقدم تفصيل ذلك في المنهج .

فالفقه والفقهاء هم الأصل ومما يدل على هذه الأصالة أن الصوفية الأوائل كانوا على مذهب الفقهاء الأوائل يأخذون بمذهبهم ويحتجون بكلامهم . فقد كان الجنيد ت ٢٩٧ ثورياً والشبلي ت ٣٣٤هـ مالكياً والجريري ت ٣١٢ هـ حنفياً والمحاسبي ت ٢٤٣هـ شافعياً وهم أئمة الطريقة وعمدتها [٤]

وكان داود بن نصير الطائي ت ١٦٦هـ والفضيل بن عياض ١٨٧هـ تلميذين لأبي حنيفة [٥] رحمه الله وتأسف معروف الكرخي ت ٢٠١ هـ

---

(١) اللمع للطوسي ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) قوت القلوب في معاملة علام الغيوب لأبي طالب المالكي ج ١٥٨/١ .
(٣) انظر قواعد التصوف للشيخ زروق ٧٠ .
(٤) انظر قواعد التصوف للشيخ زروق ٥٤ ، ٥٥ .
(٥) انظر الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ج ٨١/١ ، ٨٢ وتاريخ التصوف الإسلامي د/ عبد الرحمن بدوي ٢٦٤ .

لأنه لم يصل الجنازة على أبي يوسف القاضي تلميذ أبي حنيفة رحمه الله . ورأى في منامه أن الله أعدّ لأبي يوسف قصراً فسأل : فقيل لـه : بتعلـيم العلم وصبره على أذاهم [١] واعترف بشر بن الحارث ت ٢٢٧ هـ بفضل الإمام أحمد عليه لأن ابن حنبل طلب العلم لنفسه ولغيره بينما بشر طلبـه لنفسه . ولأن الإمام اتسع في النكاح وقصّر عنه بشر ولأن الأول نُصّـب إماماً للعامة ولم يستطع الثاني [٢]

وأخذ أبو الحسين أحمد بن الحسين الصوفي عن عبد الله بن أحمد بـن حنبل عن أبيه وأثنى الإمام الغزالي على أبي حنيفة والشافعي وأحمد بـن حنبل لعلمهم وزهدهم وتجردهم مؤكداً على أنهم نالوا الفقهين معاً [٣]

وذكر الشيخ عبد الواحد بن عاشر في منظومته في التصوف بيتاً بـيّن فيه إتباع الصوفية لمذهب المالكية فقال :

في عقد الأشعري وفقه مالك ∴ وفي طريقة الجنيد السالك [٤]

ولما كان الشيخ مغربياً قال إن القوم على فقه مالك لأن معظم المغاربة مالكية ومع إتباع معظم الصوفية للأئمة الفقهاء إلا أن عنـدهم تجـاوزات ومخالفات أدت ببعضهم إلى الكفر وإباحة الدم فكان لابد للفقهاء من بيـان حالهم والحكم فيهم وهذا ما حكاه العلماء في تاريخ التصوف عامة وتراجم الصوفية خاصة . وباستقراء التاريخ وجدنا أن الفقهاء هم الذين يحكمـون على الصوفية وعلى غيرهم ولم نر أحداً من الصوفية يحكم على الفقهاء ..

---

(١) انظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ٢١/٢ .
(٢) انظر السابق ج ٢١/٢ وراجع كذلك التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج ٢٨٨/٢ ـ ٢٨٩ .
(٣) إحياء علوم الدين للامام الغزالي ج ٤١/١ ـ ٤٩ والتصوف الإسلامي د/ عبد الله الشاذلي ج ٢٨٨/٢ ، ٢٨٩ .
(٤) انظر المنح القدوسية وشرح المرشد المعين بطريق الصوفية لابي العباس أحمد بن مصطفى المعروف بابن علوية المستغانمي ٢٣ .

وقال إن لهم مخالفات وتجاوزات كما عند القوم اللهم إلا إذا كان عن طريق الميل والرغبة في علوم القوم دون نظر لما عندهم من مخالفات [١]

والإنصاف يقتضينا أن لا نحكم على الصوفية حكماً واحداً لأن ذلك مخالف للمنهج العلمي وما الصوفي إلا بشرٌ يخطئ ويصيب والحكم إنما هو على أقواله وأعماله دون نظر إلى شخصه وذاته . فالصوفي المعتدل الذي يتمسك بالكتاب والسنة لا يختلف مع الفقيه ، والفقيه لا يختلف مع الصوفي المعتدل . والخلاف يأتي دائماً من الغلو والطرف المذموم ليس في الفقه والتصوف فحسب بل في كل علم من العلوم وفن من الفنون "ولابد من القول بأن الجانب الذي يغلّب الباطن على الظاهر ، ما هو إلا جانب الغلو من جوانب التصوف الإسلامي الذي يقابله جانب معتدل ينبع في داخل التصوف الإسلامي أيضاً . ويتمثل في الصوفية الذين يؤكدون على التمسك بالشريعة بأصلها الكتاب والسنة والاعتداد بالتكاليف الشرعية الواجبة على المسلم ... ويمثل هذا الجانب الصوفية الذين ربطوا بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن . ولهذا فالتصوف عُدّ في مكان الصراع بين الفقهاء وغلاة الصوفية وليس بين الفقهاء والمعتدلين من رجال التصوف [٢] ويقول الدكتور عبد الله الشاذلي " وأحب أن أقول أن المعتدلين من رجال الطريق قد التزموا بهذا فاستمسكوا بالأصل الواحد " وحدة العقيدة " [٣] ونبعوا منه وأخلصوا له وقالوا : يلزم الرجوع من التصوف إلى الفقه وقد يكتفي بالفقه دون التصوف ولا يكتفي بالأخير عن

---

(١) كما حدث من الإمام الغزالي في نقده للفقهاء في الإحياء وغيره .

(٢) انظر في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق د/ إبراهيم بيومي مدكور ج ١٣٨/٢ ، ١٣٩ دار المعارف . القاهرة ١٩٧٦م ومواقف الخلاف بين الفقهاء والصوفية عرض وتحليل ورأي د/ نظلة الجبوري ١٢٣ .

(٣) دعوة تحتاج إلى دليل إلا إذا كان الصوفية من المعتدلين كما يقول الباحث . ٣٩٨

الأول واعتبروا أن صوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصـــوفية وأســـلم . لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالاً وعملاً وذوقاً ومن أجل هذا كـــان مذهب الصوفي في الفروع تابعاً لأصحاب الحديث والفقهاء [١]

(١) انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة ج ٢/٢٨٦ ، ٢٨٧ . ٣٩٩

## المبحث الخامس

## ضحايا الصراع

كان من نتائج الصراع الذي حدث من الطرفين وقوع ضحايا في شخصيات صوفية سجنت واعتقلت وعذبت بل قتلت وصلبت بسبب إصرارها ومعاندتها ومعارضتها لجمهور الفقهاء وعلماء الأمة وأول هذه الشخصيات .

**١ ــ الحسين بن منصور الحلاج المقتول ت ٣٠٩ هـ :**

وأقوال الرجل وآراؤه تدل على كفره وتكفي وزيادة للحكم بقتله ، فقد كان يقول بالحلول والاتحاد [١] ويطعن في الشريعة والدين ويجعل الكفر إيماناً والإيمان كفراً ويتبرأ إلى الله من التوحيد والموحدين [٢] وإن العبد إذا بلغ مقام اليقين سقطت عنه العبادة والتكاليف ولذلك قال بتعطيل فريضة الحج والصلاة والزكاة [٣] كما كان يقول بمعارضة القرآن وإمكان أن يقول مثله [٤]

وادعى المهدية والإمامة [٥] والنبوة [٦] والربوبية والألوهية [٧] وأعلن قولته المشهورة " أنا الحق " و " سبحاني ما أعظم شأني "

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٤٤٥/٧ تحقيق علي تركي البلرودي وزميله المكتبة التوفيقية القاهرة وتحذير العباد من أهل العناد لبرهان الدين البقاعي ٢٦٧ .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ج ٣٤٢/١٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد ١٩٦ .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ج ٣٣١/١٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣٨/٨ .

(٤) تاريخ بغداد ج ١٢١/٨ وسير أعلام النبلاء ج ٣٣٠/١٤ والبداية والنهاية ج ٤٤٥/٧ والصوفية سميح عاطف الزين ٣٣٧ .

(٥) سير أعلام النبلاء ج ٣٣٨/١٤ ، ٣٣٩ وتاريخ بغداد ج ١٢٥/٨، ١٣٥ .

(٦) السير ج ٣٣٥/١٤ .

(٧) تاريخ بغداد ج ١٢٦/٨ ـ ١٣٣ والسير ج ٣٢٥/١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٧ والبداية والنهاية ج ٤٤٥/٧ ـ ٤٥٥ .

ويصرح بأن إبليس وفرعون عليهما اللعنة صاحباه وأنهما مثالان رائعان في الفتوة وعدم الرجوع في الدعوة ــ الدعوة الإبليسية في قوله " أنا خير منه " والدعوة الفرعونية في قوله " أنا ربكم الأعلى " وكذلك هو في قوله " أنا الحق " " وسبحاني ما أعظم شأني " .. الخ يقول الحلاج " فصاحبّي وأستاذيّ إبليس وفرعون إن إبليس هدد بالنار وفرعون أغرق في اليّم " (١)

ويقول الدكتور عبد القادر محمود " وهو في هذا قد تشبه بإبليس وهو النموذج الذي احتذاه كما يقول الإمام الغزالي (٢)

ولما وجّه بهذه التهم المتقدمة اعترف بها وأقرّها . فدان نفسه بنفسه يقول أحد الباحثين " إن الحلاج قد عبّر عن نفسه بكل وضوح وأدان نفسه بنفسه " (٣) .

وكل تهمة من هذه التهم كفيلة بكفره وقتله ولذلك كفرّه الفقهاء يقول الإمام الذهبي فيما يحكيه عن ابن الجوزي " وقد قتل بإجماع الفقهاء فأصابوا وأخطأ هو وحده " (٤)

ويقول ابن كثير " أما الفقهاء فحكى عن غير واحد من العلماء والأئمة إجماعهم على قتله وأنه قتل كافراً ، وكان كافراً ممخرفاً مموهاً مشعبذاً (٥) وأضاف ابن كثير أن ذلك لم يكن قول الفقهاء فقط ، بل قول الصوفية

---

(١) الصوفية سميح عاطف الزين ٣٣١ وانظر كتاب أخبار الحلاج لويس ماسينيون وبول كراوس ٥٢ دار التكوين دمشق ٢٠٠٦م .

(٢) الفلسفة الصوفية في الإسلام د/ عبد القادر محمود ٣٥٤ وراجع كتاب أخبار الحلاج لويس ماسينيون كراوس ٥٢ .

(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام د/ عبد القادر محمود ٣٥٤ .

(٤) سير أعلام النبلاء ج ١٤/٣٣١ .

(٥) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٧/٤٤٥ وتنبيه الغبي الى تكفير ابن عربي برهان الدين البقاعي ١٧٧ .

أيضا[١] ونفى السُلمي صاحب الطبقات أن يكون الحلاج من الصوفية فقال " ردّه أكثر المشايخ ونفّوه وأبَوا أن يكون له قدم في التصوف [٢] ويقول الإمام الذهبي " وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء " [٣] ويرى أنه كان ظاهرياً بالزيّ فقط أما في الباطن فهو من صوفية الفلاسفة أعداء الرسل [٤] ويقول عنه ابن النديم : إنه كان يتعاطى مذاهب الصوفية ويتحلى بألفاظهم فقط [٥]

فالحلاج كان فتنة أفسدت العباد والبلاد ولابد للفقهاء من وقفة وللقادة من رأى ، وقد انتهى أمره إلى قتله وصلبه [٦]

وقتله كان بالشرع وبسيف الشرع يقول ابن كثير " قُتل الحلاج بسيف الشرع الذي لا يقع إلا بين كتفي زنديق والله أعدل من أن يسلطه على صدّيق [٧] .

ولم يكن قتله برأي الفقهاء وحدهم وإنما كان برأي الصوفية أيضاً [٨] وهو ما اتفق عليه علماء بغداد [٩] فالعبرة بقول جمهور الأمة الخالين من الهوى والجهل المتصفين بالورع والعلم وكان قتله تخلصاً من فتنته وحفاظاً على الدين وصيانة للإسلام [١٠] ومن هؤلاء الفقهاء محمد بن داود الفقيه

---

(١) السابق ج ٤٤٥/٧ وتنبيه الغبي ١٧٧ .
(٢) انظر طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ٣٠٧ ، ٣٠٨ والطبقات الكبرى للشعراني ج ٢٣٤/٢ وسير أعلام النبلاء ج ٣٢٩/١٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء ج ٣١٤/١٤ .
(٤) انظر السير ج ٣٤٣/١٤ والفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٣٢٦ وما بعدها .
(٥) انظر الفهرست لابن النديم ١٩٠ روائع التراث العربي بيروت لبنان ط ١٩٦٤م .
(٦) انظر تاريخ بغداد ج ٣٢/٨ والسير ج ٣٣٥/١٤ ، ٣٣٦ .
(٧) البداية والنهاية ٤٤٥/٧ .
(٨) السير ٣١٤/١٤ وتاريخ بغداد ١١٢/٨ .
(٩) انظر مختصر البداية والنهاية لابن كثير ج ٤٤٥/٢ اختصار د/ أحمد الخاني مكتبة بيت السلام الرياض السعودية ط ١٤٢٩/١هـ-٢٠٠٧م .
(١٠) انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د. عبد الله الشاذلي ج ٢٨٤/٢ ، ٢٨٥

الأصبهاني رأس المدرسة الظاهرية ت ٢٩٧ هـ . ذكر لويس ماسينيون في كتابه أخبار الحلاج رواية عن الذين أنكروا على الحلاج فقال : " وأما محمد بن داود فكان فقيهاً والفقيه من شأنه الإنكار على التصوف إلا ما شاء الله " [١] وقاضي القضاة أبو عمر بن يوسف المالكي ت ٢٤٣ هـ وغيرهما [٢] وهؤلاء كانوا معاصرين للحلاج . أما الفقهاء الذين عارضوا فكره وكفّروه فيما بعد فهم كُثُر من الظاهرية ابن داود وابن حزم ومن الإمامية ابن بابويه وأبو جعفر الطوسي والحلّي والشوستري والعاملي ومن المالكية الطرطوشي وعياض وابن خلدون ومن الحنابلة ابن تيمية ومن الشافعية الجويني والذهبي [٣] ويذهب الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله إلى أن قتل الحلاج كان سياسياً فيقول " وما كان مقتل الحلاج دينياً قط وإنما كان سياسياً بحتاً [٤] ويقول أيضاً عن قوة الحلاج وتأثيره في الناس " كان الحلاج قوة جارفة ، كان مركزاً للجاذبية ، لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حلّ ، ويسيرون حوله أينما ارتحل ، فكان ككل صوفي يحب آل البيت ... وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت [٥]

وتابعه في ذلك تلميذه وشيخنا الدكتور محمد إبراهيم الفيومي فقال :

---

(١) انظر كتاب أخبار الحلاج لويس ماسينيون ٤٢ ، ٤٣ وراجع كذلك تاريخ بغداد ١١٤/٨ ـ ١٢٩ ونشأة الفلسفة الصوفية د/ عرفان عبد الحميد ١٨٨ .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ج ٣٣٩/١٤ وتاريخ بغداد ج ١٣٨/٨ .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة الحلاج ج ٤٢٤٣/١٤ لمجموعة من المستشرقين إعداد وتحرير نخبة من العلماء بإشراف إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يوسف مركز الشارقة للإبداع الفكري برعاية الأمير الدكتور / سلطان بن محمد القاسمي والفلسفة الصوفية في الإسلام د/ عبد القادر محمود ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ولا أدري كيف جعلت الدائرة الذهبي من الشافعية ؟

(٤) المنقذ من الضلال د/ عبد الحليم محمود ٣٠٣ دار الكتب الحديثة القاهرة .

(٥) السابق ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

" رأينا أن المصادر التي كتبت عنه وقعت تحت الضغط السياسي الجائر الذي فرض حظراً على كتابه واسمه وذكره أو أي شيء آخر ينصفه [١] وقال " إن الحلاج كان شخصية مزعجة للنظام السياسي " [٢] وقال " لم يذكر التاريخ مَنْ هؤلاء الفقهاء الذين أنكروا على الحلاج اعتقاده ؟ إنه الغموض الهادف الذي فرضه العباسيون على الحلاج وتاريخه [٣] وقال " وكانت محاكمته سياسية وكان قتلاً سياسياً " [٤]

وما قال به الشيخان قاله أحمد أمين " إن قتل الحلاج كان مسألة سياسية بحتة اتخذت شكلاً دينياً لعلمهم ــ أي العباسيين ــ أن الدين أفعل في الشعوب من السياسة " [٥]

وهذا الكلام صدى لما يقوله لويس ماسينيون الذي يرى أن الحلاج راح ضحية مؤامرة كبرى في الدولة العباسية في حضور ومواجهة كل الفرق الإسلامية في عصره من الإمامية والسُنية والفقهاء والصوفية [٦] وهل من المعقول أن يقتل الرجل ويصلب لكونه محباً لآل البيت ؟ إن هذا مخالف لتاريخ الرجل ، فالرجل كان قرمطياً كما قال الثقات من المؤرخين والعلماء كالخطيب البغدادي في تاريخ بغداد [٧] والإمام الذهبي في السيّر [٨] وابن العماد الحنبلي في الشذرات [٩] ودائرة المعارف الإسلامية [١٠]

---

(١) انظر الحلاج أزمة فكر وأزمة إصلاح د/ محمد ابراهيم الفيومي ٢٦ ، ٢٧ مكتبة الأنجلو المصرية ط ١٩٩٩م .
(٢) السابق ٥٥ .
(٣) السابق ٧٥ هامش ١ .
(٤) السابق ٩٢ .
(٥) انظر ظهر الإسلام الأستاذ أحمد أمين ج ٢/٧٥ ، ٧٦ ط نهضة مصر القاهرة د/ت
(٦) انظر الفلسفة الصوفية في الإسلام د/ عبد القادر محمود ٣٤٦ .
(٧) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٨/١٢٤ .
(٨) سير اعلام النبلاء ج ١٤/٣٢٧ ، ٣٤٥ .
(٩) انظر شذرات الذهب في اخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ج ٢/٢٥٣ .
(١٠) انظر دائرة المعارف الاسلامية ج ١٤/٣٢ ، ٤٢ .

وكانت العبارة التي كتبت فوقه بعد صلبه عميل قُرمطي [١] .

إن استبعاد الأمور الدينية والاقتصار على الأسباب السياسية فحسب أمر غير مقبول وإن كنت أرى أن مشكلة الحلاج تكمن في مسألة الظاهر والباطن . فالرجل كان يلبس لكل جماعة لباسها ويتكلم بلسانها فهو كما يقول ابن النديم " يدعى كل علم ... يُظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة [٢] وينقل عن أبي بكر الصولي أنه قال " قد رأيت الحلاج وجالسته ، فرأيته جاهلاً يتعاقل وغبياً يتنابغ وفاجراً يتزهد وكان ظاهره أنه ناسك صوفي فإذا علم أن أهلاً يرون الاعتزال صار معتزلياً أو يرون الإمام صار إماماً وأراهم أن عنده علماً . أو رأى أهل السنة صار سُنياً وكان خفيف الحركة مشعبذاً قد عالج الطب وجرّب الكيمياء وكان مع جهله خبيثا [٣]

فالحلاج كان متلوناً والعوام عنده لهم علم والخواص لهم على آخر ومن ثم فهو يظهر للعوام أمراً ويبطن آخر . يظهر للعوام التوحيد والتمسك بالشريعة ومن هنا أحسن البعض الظن به ، حتى قال ابن خفيف ٣٧١ هـ إنه عالم رباني [٤] وقال إبراهيم النصر آبادي ت ٣٦٧هـ " إن كان بعد النبيّين والصديقين موحدُ فهو الحلاج " [٥] وقال عنه محمد بن عفيف وهو كما يقول ماسينيون كان أشعرياً متطرفاً وعالماً لا يثبت لجدله أحدُ من الناس . إنه دخل على الحلاج فرأى نوراً يتلألأ على جبينه ووجد اطمئناناً

---

(١) انظر نشأة الفلسفة الصوفية د/ عرفان عبد الحميد ١٩٥ والفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٣٣٢ .

(٢) انظر الفهرست لابن النديم ١٩٠ .

(٣) انظر الحلاج د/ محمد إبراهيم الفيومي ٦١ .

(٤) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١١٢/٨ .

(٥) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٤٤٤/٧ ـ ٤٥٥ والسّير ج ٣٢٩/١٤ .

يشع الأمن والسلام في كل شيء يحيط به .... وأن سجنه قطعة من الجنة[١] وربما كان ذلك من الأمور التي خدع بها القاضي الشافعي ابن سريج عندما قال " إن مثل هذا لا يدخل في القضاء والأدلة غير ثابتة والدليل لا يوجد [٢] ويبطن أمراً آخر وهو الدعوة السرّية الباطنية وكانت القرمطة أحد مظاهرها . يقول ابن كثير في بيان ظاهره وباطنه " فالذين أجملوا القول فيه غرّهم ظاهره . ولم يطلعوا على باطنه ولا باطن قوله ، فإنه كان في ابتداء أمره فيه تعبد وتألّه وسلوك ولكن لم يكن له علم ولا بني أمره وحاله على تقوى من الله ورضوان .. " [٣]

ويقول الإمام الذهبي " إنه صوفي الزيّ والظاهر يتستر بالنسب إلى العارفين وفي الباطن من صوفية الفلاسفة أعداء الرسل كما كان جماعة في أيام النبي ﷺ ينتسبون إلى صحبته وإلى ملته وهم في الباطن من مردّة المنافقين [٤] ويقول " فتدبر يا عبد الله نحلة الحلاج الذي هو من رؤوس القرامطة ودعاة الزنادقة وأنصف وتورع واتق ذلك وحاسب نفسك ، فإن تبرهن لك شمائل هذا المرء شمائل عدو الإسلام محب الرئاسة حريص على الظهور بباطل وبحق فتبرأ من نحلته وإن تبرهن لك والعياذ بالله أنه كان والحالة هذه محقاً هادياً مهدياً فجدد إسلامك واستغث بربك أن يوفقك للحق وأن يثبت قلبك على دينه [٥]

والخلاصة : أن الحلاج أراد أن يسمو بآرائه وأفكاره فوق الشريعة فذبحته الشريعة بسيفها بسبب تطاوله عليها واستهانته بها ولا ينبغي أن نحمل

---

(١) انظر الحلاج أزمة فكر وأزمة إصلاح د/ محمد إبراهيم الفيومي ٧٧ .
(٢) السابق ٦٧ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ : ٤٥ ؛ تحقيق على تركي البارودي .
(٤) انظر سير اعلام النبلاء ج ١٤ : ٣٥٣ .
(٥) سير اعلام النبلاء ج ١٤ : ٣٥٥ .

فتوى الفقهاء ومشاركتهم في ذلك فوق ما تحتمل [١] فثورة الشعب بمعظم طوائفة هبت لمحاربة الحلاج ومحاكمته .

**٢ ــ شهاب الدين السهروردي المقتول ت ٥٨٧ هـ :**

يعتبر السهروردي المقتول من متفلسفة الصوفية في الإسلام واسمه أبو الفتوح يحيي بن حبسن بن أميرك ويلقب بشهاب الدين ويوصف بالحكيم ومولده سنة ٥٥٠ هـ وقيل سنة ٥٤٩هـ في الشمال الغربي من إيران في ميديا القديمة بسهرورد ومقتله بأمر صلاح الدين الأيوبي في حلب سنة ٥٨٧هـ [٢] وبالرغم من حياته القليلة التي عاشها فقد ألف كتاب التلويحات اللوحية والعرشية وكتاب الألواح العمادية ألفه لعماد الدين أبي بكر بن قرا أرسلان صاحب خرت برث وكتاب اللُحمة والمقاومات وهو لواحق على كتاب التلويحات وهياكل النور والمعارج والمطاوحات وحكمة الإشراق[٣] ويذكر الباحث قاسم محمد عباس أن تراث الرجل كبيرٌ وأنه جمع له أربع وسبعين كتاباً ونصاً دوّنها السهروردي بالفارسية والعربية [٤] .

---

(١) راجع في ذلك مواقف الخلاف بين الفقهاء والصوفية د/ نظلة الجبوري ١٢٠ والفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٦٠٧ .

(٢) انظر في ترجمته وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢٦٨/٦ تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت لبنان د/ت وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لموفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة ٦٤١ ـ ٦٤٦ منشورات مكتبة الحياة بيروت لبنان ط ١٩٦٥م وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ج ٢٩٠/٤ ـ ٢٩٢ وتاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام د/ محمد علي أبو ريان ٤٨٢ ـ ٤٨٥ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ٢٠٠٠م والحركة الصوفية في الإسلام له أيضا ٢٤٤ ـ ٢٥٤ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩٤م وأصول الفلسفة الإشراقية له أيضا ١٠ ـ ١٣ ط القاهرة ط الأولى ١٩٥٩م والدكتور أبو ريان من الشخصيات التي لها عناية بالسهروردي وقد حقق معظم كتبه كما عني بدراسة المستشرق كوربان ونشر عدة مصنفات له

(٣) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٦٤٦ ومدخل إلى التصوف الإسلامي والتفتازاني ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٤) انظر : Al . Mada . Daily . Daily . Newspepars

وتتلمذ السهروردي على جماعة من مشاهير العلماء [١] واتسمت حياته بالحلّ والترحال فقد كان كثير التنقل والأسفار مهتماً بغشيان الجماعة الصوفية محباً للوحدة التي هيأت لحياته الروحية التأملية السلوك في معارج أهل الطريق [٢] وكانت نهاية الترحال في سورية حيث استقر في حلب وفيها لقي مصرعه . فما سبب ذلك ؟

تكاد تجمع المصادر على أن خصومة شديدة وعنيفة قامت بين السهروردي وجماعة من الفقهاء والمتكلمين في حلب وذلك لأسباب كثيرة منها المناظرة التي وقعت بينه وبينهم في مسائل كثيرة لم يتمكنوا فيها من مجاراته ، فظهر عليهم بحجته وبراهينه وظهر فضله للملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي فقرّبه وأقبل عليه وازداد غيظ المناظرين له ورمّوه بالإلحاد والزندقة [٣] هكذا بإجمال دون تفصيل لما حدث فيها .

ويذكر العماد الأصفهاني المعاصر لصلاح الدين الأيوبي قصة مقتل السهروردي وما حدث في مناظرته للفقهاء فيقول " سنة ٥٨٨هـ وفيها قتل الفقيه شهاب الدين السهورودي وتلميذه شمس الدين بفعلة حلب . أخذ بعد أيام وكان فقهاء حلب قد بغضوا عليه [٤] لما بحث معهم في سائر المذاهب

---

(١) انظر الحياة الروحية في الإسلام د/ مصطفى حلمي ١٧٣ ومدخل إلى التصوف الإسلامي د/ التفتازاني ١٩٢ ونشأة الفلسفة الصوفية د/ عرفان عبد الحميد ٢٠٦ .

(٢) انظر نشأة الفلسفة الصوفية ٢٠٦ وقد نقل ذلك عن السهروردي المقتول هنري كوربان ٩٨ .

(٣) انظر في هذه المناظرة معجم الأدباء . إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي الرومي ج ٢٨٠٦/٦ ترجمة رقم ١٢٢٣ تحقيق د/ إحسان عباس دار الغرب الإسلامي بيروت ط ١٩٩٣/١م وعيون الأطباء لابن أبي أصيبعة ٦٤٢ ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢٦٨/٦ وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢٠٨/٢١ موسسة الرسالة بيروت لبنان ط ١٩٩٨/١١م ، ١٤١٩هـ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٢٩٠/٤ والحركة الصوفية د/ محمد علي أبو ريان ٢٤٦ وتاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ٤٨٤ ونشأة الفلسفة الصوفية د. عرفان عبد الحميد ٢٠٧ .

(٤) انظر عيون الأطباء لابن ابي اصيبعة ٦٤٤ .

ما خلا الفقيهين ابنا جَهْبَل وهما : زين الدين ومجد الدين فكانا من أشد الجماعة عليه كما يقول ابن خلكان [١] ولكن الدكتور أبو ريان يقول عن هذين الشيخين الفقيهين " إنهما قالا عن السهروردي إنه رجل فقيه " [٢]

وهذا تناقض لم يلتفت إليه الدكتور أبو ريان ويواصل الأصبهاني قوله ومناظرته في القلعة ليست بحسن . ينزل إلى الجامع ويجتمع بالفقهاء كلهم ويعقد له مجلس في الخلاف ... وأما علم الأصول ما عرفوا أن يتكلموا معه وقالوا له أنت قلت في تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً وهذا مستحيل . فقال لهم ماحداً لقدرة الله . أليس القادر إذا أراد شيئاً لا يمتنع عليه ؟ قالوا : بلى . قال : فالله قادر على كل شيء ، قالوا : إلا على خلق نبي فإنه مستحيل . قال فهل يستحيل مطلقاً أم لا ؟ قالوا له : كفرت وعملوا له أسباباً لأنه بالجملة كان عنده نقص عقل لا علم ومن جملته أنه سمى نفسه المؤيد بالملكوت " [٣]

ولما رأى الفقهاء إصراره على رأيه كفروه وعملوا محاضر بكفره وسيّروها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وقالوا : إن بقي فإنه يفسد اعتناء الملك الظاهر وكذلك إن أطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد ... فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه : إن هذا الشهاب السهروردي لابد من قتله ولا سبيل أنه يطلق ولا يبقى بوجه من الوجوه .. ولما بلغ السهروردي ذلك وأيقن أنه يقتل وليس جهة إلى الإفراج عنه

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٦/٢٧٢ وعلق الإمام الذهبي على صنيع الفقيهين ابنا جهبل بقوله " قد أحسنوا وأصابوا " انظر سير اعلام النبلاء ج ٢١/٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) انظر تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام د. محمد علي أبو ريان ٤٨٤ .

(٣) انظر تاريخ الفكر الفلسفي د. محمد علي أبو ريان ٤٨٤ والحركة الوصفية له أيضا ٢٤٤ وقد نقل ذلك من البستان الجامع لتواريخ الزمان للعماد الأصفهاني ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

اختار أنه يترك في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب إلى أن يلقى الله تعالى . ففعل به ذلك [١] وذكر القاضي بهاء الدين بن شداد قاضي حلب أن صلاح الدين عرف به فأمر بقتله . فقتله وصلبه أياماً [٢] . وقيل إن الظاهر أمر بخنقه في السجن فخنق سنة ٥٨٧هـ وقد قارب الأربعين [٣]

وهكذا انتهت المناظرة بين السهروردي والفقهاء بالقتل وإن اختلفت طريقته كما حكاها المؤرخون المعاصرون لها ولمن جاء بعدها بفترة قريبة

والحقيقة أن اختيار هذه المسألة من قبل الفقهاء لم يأت من فراغ لو لم يسبق إلى علمهم قراءة أو سماعاً أ، السهروردي يقول بهذا القول ويدين به ولكونه لا عقل له كما يقول ابن أبي أصيبعة [٤] وكما يقول الإمام الذهبي " كان أحمق طياشاً منحلاً " [٥] تدرع بحيلة شرعية وهي ثبوت القدرة الإلهية المطلقة خوفاً من إلحاق النقص بها ليخفي حقيقة مذهبه ونظريته في قطب الوقت واللسان يغرف مما في القلب مهما حاول الإنسان ستره وإخفاؤه . ولسنا بذلك مع الدكتور أبو ريان الذي يرى أن السهروردي لم يهاجم النص الذي ينكر أن محمداً خاتم المرسلين في قوله تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ [٦] إلا أنه حفظاً للقدرة الإلهية من إلحاق النقص بها قرر إمكان خلق نبي جديد ولو وقفنا عند هذه النقطة لرأينا سلامة الدفاع كما يقول الدكتور عبد القادر محمود [٧] .

---

(١) انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٦٤٢ .
(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٦/٢٧٣ .
(٣) انظر معجم الأدباء لياقوت الحوي ج ٦/٢٨٠٧ .
(٤) انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٦٤١ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٦/٢٦٩ .
(٥) انظر سير أعلام النبلاء ج ٢١/٢١١ .
(٦) الاحزاب آية ٤٠ .
(٧) انظر الفلسفة الصوفية في الإسلام د. عبد القادر محمود ٤٤٢ .

ولكننا لو تتبعنا فلسفة السهروردي لراياه في نظريته قطب الوقت يؤكد أن المتوغل في التأله لا يخلو العالم منه " وهو خليفة الله " ولا تخلو الأرض من متوغل في التأله أبداً . إذ لابد للخلافة من التلقي لأن خليفة الملك لابد له أن يتلقى منه ما هو بصدده . أقول لو تتبعنا السهروردي في هذا لرأيناه يصل إلى غايته الحقيقية من وراء ذلك وهي تحطيم القيد من توقف الرسالات بعد الإسلام وإطلاقها مع أقطاب الوقت المتوغلين في التأله والبحث الذين هم أفضل من الأنبياء والأولياء معاً لأن الأنبياء والأولياء متوغلون في التأله فقط [١]

وكان ابن تيمية على حق حين قال " إن السهروردي يفضل الفيلسوف المتأله المتوغل في البحث على النبي [٢] .

ولو تعمقنا قليلاً لوجدنا السهروردي يرتب أصناف الطالبين للمعرفة ويحدد مراتبهم على أساس حظوظهم من التأله والبحث " حكيم متوغل في التأله عديم البحث وهم كأكثر الأنبياء والأولياء ومشايخ الصوفية كالبسطامي والحلاج والتستري حكيم متوغل في البحث عديم التأله كأتباع أرسطو في الإسلام أمثال الفارابي وابن سينا . ثم الجامع بين التأله والبحث وهو أجود الطالبين [٣]

ولم يصل إلى هذه الرتبة إلا السهروردي نفسه . وإذا كان السهروردي قد جمع بين التأله والبحث فله الرئاسة وهو الذي يسميه الكافة "بالقطب"

---

(١) انظر الفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٤٤٢ ونشأة الفلسفة وتطورها د/ عرفان عبد الحميد ٢١٤ .

(٢) انظر الفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٤٤٢ وقد نقل ذلك من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٥/٩٣ ط ١٩١١م .

(٣) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد ٢١٤ والفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٤٦٠ والحياة الروحية في الإسلام د مصطفى حلمي ١٧٦ ، ١٧٧ . ٤١١

وقد يكون متولياً ظاهراً وقد يكون خفياً وإذا كانت السياسة بيده كان الزمان نورانياً وإذا خلا الزمان عن تدبير إلهي كانت الظلمات غالبة [١]

ويفهم من ذلك أن أفضل أصناف الطالبين للمعرفة من جمع بين التأله والبحث . بل وأفضل من الأنبياء والمرسلين وهو الإنسان الكامل على الحقيقة . وإذا كان السهروردي قد وصل إلى هذه الدرجة فهو أفضل من الأنبياء والمرسلين بناءً على نظريته في الفيض . وهذا ما يفسر لنا رأيه بأن النبوة تنال بالاكتساب لا بالاصطفاء كما قال الله تعالى ﴿ **الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾[٢] وقوله ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾[٣] وقد ذكر الإمام الذهبي ما يدل على ذلك فيما نقله عن الموفق يعيش النحوي الحلبي ٦٤٣هـ أنه قال لما تكلموا فيه يعني ـ السهروردي ـ قال له تلميذه إنك تقول إن النبوة مكتسبة .. " [٤] وإذا كانت النبوة تنال بالاكتساب فلابد لنا أن نصدق إدعاءك إياها ولذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية على حق عندما هاجمه بقوله " فإن الواحد من هؤلاء " يعني من متفلسفة الصوفية يطلب أن يصير نبياً كما كان السهروردي المقتول يطلب أن يصير نبياً وكان قد جمع بين النظر والتأله وسلك نحواً من مسلك الباطنية وجمع بين فلسفة الفرس والرومان وعظم أمر الأنوار وقرب دين المجوس الأول " فقتله المسلمين على الزندقة بحلب في زمن صلاح الدين الأيوبي [٥] .

---

(١) انظر نشأة الفلسفة الصوفية ٢١٤ ، ٢١٥ والفلسفة الصوفية د. عبد القادر محمود ٤٤٨ ، ٤٦٠ .

(٢) الحج آية ٧٥ .

(٣) الأنعام آية ١٢٤ .

(٤) انظر سير اعلام النبلاء ج ٢١ ٢١٧ .

(٥) انظر بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والإتحاد لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٩٤ ، ١٩٥ تحقيق د. موسى بن سليمان الدويشي مكتبة العلوم والحكم المنورة ط ٣ ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م ومدخل الى التصوف د. ابو الوفا التفتازاني ١٩٨ والفلسفة الصوفية ـ عبد القادر محمود ٤٧٨ .

وهذا هو المعنى الذي كان يبطنه السهروردي في نفسه ولا يظهره يقول ابن خلكان " قال الشيخ سيف الدين الآمدي ت ٦٣١هـ اجتمعت بالسهروردي في حلب . فقال لي : لابد أن أملك الأرض ، فقلت له من أين لك هذا ؟ قال : رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر فقلت : لعل هذا يكون اشتهار العلم وما يناسب هذا . فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه ورأيته كثير العلم قليل العقل [١] .

ومما يدل على أن الأمر الذي في نفسه هو النبوة أن الإمام الذهبي أورد الرواية السالفة عقب رواية إدعاء السهوردي اكتساب النبوة [٢]

فالفقهاء كانوا على حق عندما هاجموه وكفّروه وأفتوا بقتله [٣] فإذا أضفنا إلى ذلك أن للسهروردي آراءً وأقوالاً أخرى كفيلة بوجوب قتله وإعدامه تأكد لنا صحة حكم الفقهاء وفتواهم بشأنه ، كما أن آراءه وأقواله تتفق إلى حد كبير مع آراء وأقوال الحلاج الذي أُعدم قبله ولم يعتبر به . فكان يقول بالتناسخ وقدم العالم وإمكان تقليد القرآن ومحاكاته [٤] ويقول عنه ابن خلكان " كان يتهم بانحلال العقيدة والتعطيل ويعتقد مذهب الحكماء المتقدمين واشتهر عنه ذلك [٥] ويقول أيضاً " وأكثر الناس على أنه كان ملحداً لا يعتقد شيئا [٦] كما كان متهوراً مستهتراً [٧] قليل الدين [٨] . غير مكترث بالأعراف الدينية والاعتبارات الاجتماعية [٩] ويقول عنه أحد

---

(١) انظر وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢٧٢/٦ وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢١١/٢١

(٢) سير اعلام النبلاء ج ٢١ ٢١١ .

(٣) انظر مدخل الى التصوف الاسلامي د. التفتازاني ١٩٧ ، ١٩٨ ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د. عرفان عبد الحميد ٢٠٧ .

(٤) الفلسفة الصوفية د. عبد القادر محمود ٤٤٣ ، ٤٦٩ ، ٤٧٩ .

(٥) انظر وفيات الاعيان لابن خلكان ٢٧٢/٦ .

(٦) السابق ج ٦ ٢٧٣ .

(٧) انظر سير اعلام النبلاء للذهبي ج ٢٠٨/٢١ .

(٨) انظر السابق ج ٢١ ٢٠٧ .

(٩) انظر نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ٢٠٧ .

الباحثين إنه كان شيعياً قرمطياً خبيثاً وأقواله وآراؤه امتداد لهم [١] كما أن نظريته الإشراقية وإتحاد البسطامي وحلول الحلاج كلها تؤدي إلى وحدة الوجود . ووحدة الأديان والإنسان الكامل الذي هو أفضل من النبي وولايته ممتدة غير معلقة عند خاتم الرسل ﷺ [٢] وذلك كله تحطيم للقوانين والشرائع السماوية ودعوة إلى إهمال التكاليف الشرعية [٣] فلم تكن المناظرة التي وقعت بين السهروردي والفقهاء هي كل شيء أو السيف الوحيد الذي ترتب عليه ردّ الفقهاء وإنما المخالفات الصريحة والكفريات الشنيعة التي لم يجد الفقهاء بداً من التصدي لها والوقوف في وجه أصحابها وبيان حكم الإسلام فيها والشريعة لم تقف عاجزه وكذلك أصحابها أمام الحوادث التي من شأنها أن تقوض المجتمع الإسلامي وتزلزل أركانه وتصدع بنيانه . والسهروردي لما خالف الشريعة أحكمت سيفها في رقبته يقول الدكتور عبد القادر محمود " وكان أن ظهر السهروردي في عهده صلاح الدين الأيوبي السني لكنه لحق برائده الحلاج على سيف الشريعة[٤] وهذا التيار الفلسفي الصوفي الذي يمثله السهروردي ومن قبله الحلاج لا يمثل إلا قلة ولم يكن له ثقل في المجتمع أو جمهور الناس كالفقهاء .

**٣ ــ ابن برّاجان ت ٥٣٦ هـ :**

هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الإفريقي الإشبيلي المتوفي سنة ٥٣٦ هـ كان كما تصفه المصادر عبداً صالحاً عارفاً شيخاً للصوفية قال عنه ابن الأبار " كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث

---

(١) الفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٦١ ، راجع نشأة الفلسفة د/ عرفان عبد الحميد ٢١٥ .

(٢) الفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٤٧٩ .

(٣) السابق ٤٨٥ .

(٤) السابق ٦٠٧ .

والتحقيق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد في العبادة .. " [١] وله تفسير القرآن العظيم . نحي فيه منحى الصوفية وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات [٢] وشرح أسماء الله الحسنى [٣] . وعين اليقين ووصفه الفاسي فيما نقله عن ابن خلدون أنه متضمن لعقائد ضالة مضلة [٤] وقد عاش بن برّاجان حياة جدل ونزاع مع الفقهاء حتى سعوا بشكواه إلى ابن تاشفين ليخلصهم منه ، وانتهى الأمر بحبسه حتى مات في سجنه .

وتصور لنا المصادر التاريخية محنة ابن برّاجان ، أنه سعى عليه سعاية بأطلة عند علي بن يوسف بن تشافين ، فأحضره إلى مراكش ، فلما وصل إليها قال لا أعيش إلا قليلا . ولا يعيش الذي أحضرني بعدي إلا قليلاً . فعقدوا مجلس مناظرة . وأورد الفقهاء المسائل التي أنكروها عليه فأجاب وخرّجها مخارج محتملة فلم يرضوا منه ذلك لكونهم لم يفهموا مقاصده . وقرروا عند السلطان أنه مبتدع فحبس ومرض ومات في محبسه عام ٥٣٦ هـ . واتفق على أن علي بن يوسف بن تاشفين مات بعده سنة ٥٣٧ هـ ولما قيل لابن تاشفين إن ابن برّاجان مات أمر أن

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢٣٦/٤ ، ٢٣٧ تحقيق د/ إحسان عباس دار صادر بيروت لبنان وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ١١٣/٤ ولسان الميزان للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ١٦/٤ ، ١٧ دار الفكر بيروت لبنان ط ١٤٠٧/١هـ - ١٩٨٧م والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية الشيخ عبد الروف المناوي ج ٦٨٢/١ - والأعلام للزركلي ج ٦/٤ دار العلم للملايين بيروت لبنان ط ١٩٨٩/٨م .

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢٣٦/٤ ، ٢٣٧ وشذرات الذهب ج ١١٣/٤ ومفتاح السعادة ومصباح السيادة لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة ج ١١١/٢ ، ١١٢ تحقيق كامل بكري وزميله م . س .

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ٢٣٦ ، ٢٣٧ والأعلام للزركلي ج ٦/٤ .

(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي ج ١٨٠/٢ تحقيق فواد سيد ط القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م .

يطرح على مزبلة بغير صلاة ولا دفن بحسب ما قرره معه من طعن عليه من الفقهاء . فاتفق أن أهل الفضل لما بلغه وفاته أمر عبداً أسود نادى جهاراً في الأسواق أحضروا جنازة فلان فامتلأت الرحاب بالناس فغسلوه وصلوا عليه ودفنوه [١] .

ولم أقف على المسائل التي ناظر فيها الفقهاء وأجابهم عليها حتى انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه . لكننا لو فهمنا الظروف التاريخية السائدة في هذا العصر وما كان من أمر ابن تاشفين في التصوف حيث أمر بإحراق كتب أبي حامد الغزالي عندما وصلت إليه " [٢] لما أفتاه الفقهاء بأنها بدعة [٣]

وكان ابن برّاجان ت ٥٣٦ والغزالي ت ٥٠٥ هـ متعاصران وإن لم تسعفنا المراجع والمصادر باللقاء لكننا لا نستبعد التأثر بالأفكار .

كما ظهرت فتنة محمد بن عبد الله الملقب بالمهدي " ابن تومرت " والتي عجز ابن تشافين عن إخمادها فمات غماً بسببها في مراكش [٤] .

فإذا أضفنا إلى ذلك سبباً آخر أشد من ذي قبل وهو أن ابن برّاجان كان ينتمي إلى مدرسة ابن مسرّة . محمد بن عبد الله (٢٦٩هـ ـ ٣١٨هـ أو ٣١٩هـ) (٨٨٣م ـ ٩٣١م) وكان هذا الرجل يظهر تنسكه وزهده ويخفي تشيعه الباطني الخبيث يقول الدكتور عبد القادر محمود عن ابن مسرّة هذا " إنه كان يقول بوحدة الوجود وينشر فلسفة إلحادية خبيثة " [٥]

---

(١) انظر لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ١٧/٤ والكواكب الدرية للمناوي ج ٦٨٢/١ ، ٦٨٣ ومفتاح السعادة ج ٤٤١/١ وشفاء السائل لابن خلدون ٥٨ تحقيق الطنجي والفلسفة الصوفية عبد القادر محمود ٤٩٢ .

(٢) انظر العبر في غبر من خبر للامام الذهبي ج ٤٥٢/٢ تحقيق محمد السعيد زغلول دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١٤٠٥/١هـ ـ ١٩٨٩م وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ج ١١٥/٤ .

(٣) راجع في ذلك إحياء علوم الدين في منظور الغرب الإسلامي ايام المرابطين والموحدين للاستاذ محمد المنوني ١٢٧ ، ١٢٨ بحث ضمن كتاب " ابو حامد الغزالي . دراسات في فكره وعصره وتأثيره منشورات كلية الاداب بالرباط المغرب ١٩٨٨م .

(٤) انظر الاعلام للزركلي ج ٥ ٣٣ . (٥) الفلسفة الصوفية في الاسلام ـ عبد القادر محمود ٤٨٩

ولمّا علم الفقهاء ما قاله ابن مسرّة وقفوا في وجهه وثاروا ضده وخاصة فقهاء المالكية [١] وكان أحمد بن خالد الحباب الفقيه المالكي أحد الذين قاموا بثورة علنية على ابن مسرّة وأتباعه ومنهم ابن برّاجان فقد كتب وخطب ضدهم في كل مكان وكان لزهادته السنية وتصوفه السني الأثر الإيجابي ضد ابن مسرّة " [٢]

وإذا علمنا هذه الأسباب أدركنا موقف الفقهاء من ابن برّاجان وإنهم كانوا على علم وبينّة أنه من أتباع ابن مسرّة وأعتقد أن الذين ذكروا تصوفه ووصفوه بالعلم والمعرفة لم يقفوا على الوجه الآخر له . ولو وقفوا لغيّروا رأيهم فيه . ولذلك كان ابن خلدون وهو مالكي مشهور على حق عندما وصف كتاب ابن برّاجان " عين اليقين " بأنه من الكتب المتضمنة لعقائد ضالة مضلة . وأوصى بإحراق هذا الكتاب وأمثاله فقال " فالحكم في هذه الكتب وأمثالها إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار والغسل بالماء حتى ينمحي أثر الكتابة لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين بمحو العقائد المضلة ... ثم قال فيتعين على ولي الأمر إحراق هذه الكتب دفعاً للمفسدة العامة ويتعين على من كانت عنده التمكن منها للإحراق وإلا فينتزعها منه ولي الأمر ، لأن ولي الأمر لا يعارض في المصالح العامة[٣]

**٤ ــ محي الدين بن عربي ت ٦٣٨ هـ :**

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي الأندلسي المرسي الملقب بمحي الدين المعروف بابن عربي

---

(١) السابق ٤٨٨ .

(٢) السابق ٤٨٩ .

(٣) انظر العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للتقي الفاسي المكي ج ١٧٨/٢ ـ ١٨١ وشفاء السائل لتهذيب المسائل لابن خلدون ٥٨ ـ ٦٢ / ١١٠ تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط ١ إستانبول سنة ١٩٥٧م .

الصوفي ولد عام (٥٦-هـ ـ ٦٣٨هـ ) ( ١١٦٥م ـ ١٤٢٠م) رحل كثيراً وانتهى به المطاف في الشام بدمشق وألف كثيراً وكتبه مشهورة بين الناس لاسيما بأرض الروم " تركيا " [١]

وتتلمذ في صباه في الأندلس ـ العامرة بعلمائها ـ على يد جماعة كبار من علماء الفقه والحديث والقراءات وغيرها في أسرة علمية . فأبوه علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف وجده أحد قضاة الأندلس وعلمائها وهو من الفقهاء ودفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد الفقهاء ، فقرأ عليه القرآن بالسبع في كتاب الكافي . فما أتم العاشرة حتى كان عالماً بالقراءات [٢] ملهماً في المعاني والإشارات ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الفقه والحديث يذكرهم لنا الإمام شمس الدين بن مسّدي في روايته عن محي الدين إذ يقول " ... سمع في بلاده في شبابه الباكر من ابن زرقون والحافظ بن الجد وأبي الوليد الحضرمي والشيخ أبي الحسن بن نصر " [٣] فبداية ابن عربي كانت بداية شرعية تتلمذ فيها على أيدي كبار الفقهاء والمحدثين . ومع أن العلماء يقولون إذا صحت البداية صحت النهاية إلا أنها اختلفت وكانت النهاية المعارضة الشديدة للفقهاء وطريقتهم . فما سرّ ذلك يا ترى ؟ إن شخصية ابن عربي من الشخصيات المحيّرة التي حيرت العلماء والباحثين ، فبعضهم يصفه بأنه صدّيق وبعضهم يصفه بأنه زنديق . يقول ابن حجر

---

(١) انظر العقد الثمين ٢/١٦٠ ـ ١٩٩ وشذرات الذهب ج ٥/١٩٠ ولسان الميزان لابن حجر ٥/٣١٠ والطبقات الكبرى ٢/٤٠٣ .

(٢) انظر ابن عربي صاحب الفتوحات المكية د/ محمد إبراهيم الفيومي ١٢ ، ١٣ الدار المصرية اللبنانية ط ١/١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

(٣) انظر محي الدين بن عربي طه عبد الباقي سرور ١٦ مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢/١٩٥٥م وابن عربي د/ محمد ابراهيم الفيومي ٤ .

عنه : " قال أشياء وعدها طائفة من العلماء مروقاً وزندقة . وعدّها طائفة من العلماء من إشارات العارفين ورموز السالكين وعدّها طائفة من متشابه القول وأن ظاهرها كفر وضلال وباطنها حق وعرفان "[١] وقال المناوي " تفرق الناس في شأنه شيعاً ، فذهبّ طائفة إلى أنه زنديق لا صدّيق ، وقال قوم إنه واسطة عقد الأولياء ورئيس الأصفياء .. وصار آخرون إلى اعتقاد معنى ولايته وتحريم النظر في كتبه [٢] وسبب الاختلاف فيه راجع إلى ذات الشيخ . فقد كان شديد التناقض فيما يكتب كثير التقلب بين الإلتزام بالشرع وحدوده مرة وتجاوز ما تعارف عليه الفقهاء والعلماء من رسوم الدين وحدوده مرة أخرى [٣] وسبباً آخر ذاتي أيضاً هو استخدام ابن عربي لغة الرمز والإشارة [٤] يقول أستاذنا الدكتور الفيومي " كان ابن عربي مغرقاً في الرمزية .. وبلغ الذروة في الغموض وإخفاء المعاني ولم يتقدم عليه إلا ابن سبعين .. وكان ذلك من الأسباب التي أثارت عليه الخصوم[٥] الفقهاء وغيرهم ــ ويضاف إلى ما سبق رغبة الشيخ في إخفاء مذهبه في وحدة الوجود وخوفاً من التصريح به في صورة واضحة متكاملة في كتاب أو جزء من كتاب خشية اعتراض المعترضين وإنكار المنكرين من الفقهاء والعلماء [٦] ولو شرح مذهبه بلغة واحدة لوضحت معانيه وارتفع الشك في

---

(١) لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج ٣١٠/٥ .

(٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ١٩٥/٥ وجامع كرامات الأولياء للشيخ يوسف بن علي النبهاني ١١٩ دار صادر بيروت لبنان ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد ٢٢٥ .

(٣) انظر نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٤) السابق ٢٢٤ .

(٥) انظر ابن عربي صاحب الفتوحات المكية ٥٦ ، ٥٧ .

(٦) انظر الفلسفة الصوفية نشأتها وتطورها ٢٢٤ والفلسفة الصوفية في الإسلام د/ عبد القادر محمود ٤٩٩ .

أمره [١] . وبذلك صارت شخصيته شخصية إزدواجية المعايير ، أو كما يقول الدكتور أبو العلا عفيفي : " الثنائية في الأسلوب " فابن عربي على استعداد لأن ينتقل بقارئه من لسان الظاهر إلى لسان الباطن أو العكس "[٢] وهذا الأمر هو الذي دعا بعض المؤرخين إلى وصفه بأنه ظاهري المذهب باطني النظر في الاعتقادات [٣]

ويبدو أن ابن عربي كان يعلم أن ما يثيره من آراء وأفكار يمثل مشكلة بالنسبة للفقهاء بمقتضى منهجهم المعروف وهو التحاكم إلى النصوص بمعناها الشرعي الظاهري الذي دأبوا عليه ، في الوقت الذي كان يرى أن النصوص لها معنى آخر معناها ــ الباطني ــ وهو غير المعنى الذي يتحاكم إليه ويحكم به الفقهاء ولذلك وقع الخلاف والنزاع بينه وبينهم واحتدم النزاع عندما قال بوحدة الوجود والذي يعني بوضوح أن الحق هو الخلق أو الحق المنزه هو الخلق المشبه بلا فرق بينهما انظر قوله " سبحان من خلق الأشياء وهو عينها وقوله :

يا خالق الأشياء في نفسه ... أنت لما تخلق جامـــــــع

كخلق ما لا ينتهي كونه ... فيك فأنت الضيق الواســـع [٤]

وابن عربي اشتهر بوحدة الوجود واشتهرت به وحدة الوجود وكتاباه

---

(١) انظر ابن عربي في دراساتي د/ أبو العلا عفيفي ١٦ مقال ضمن الكتاب التذكاري لمحي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده دار الكتاب العربي ١٩٦٩م . وانظر مقدمة فصوص الحكم د/ أبو العلا عفيفي من ١٥ ـ ٢٠ توزيع دار الفكر العربي

(٢) مقدمة الفصوص د/ أبو العلا عفيفي ١٧ .

(٣) لسان الميزان لابن حجر ج ٣١٠/٥ والوافي بالوفيات للكتبي ج ٤٧٨/٢ .

(٤) انظر فصوص الحكم لابن عربي المقدمة ٨٨ ومصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٨ ، ٩٩ تقديم وتحقيق الشيخ عبد الرحمن الوكيل مكتبة المؤيد والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للمكي ج ١٥٨/٢ ـ ١٩٩ والفلسفة الصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد ٢٢٧ ، ٢٢٨ والصوفية في نظر الإسلام سميح عاطف الزين ٤٦٠ وابن عربي د/ محمد ابراهيم الفيومي ٦٠ ـ ٤٢٠

" فصوص الحكم " " والفتوحات المكية " طافحان بذلك [١] . يقول الإمام الذهبي عن ابن عربي في ذلك " صاحب التصانيف وقدوة القائلين بوحدة الوجود " [٢]

يقول شيخنا " إن ابن عربي هو أول من صاغ أصول مذهب وحدة الوجود " [٣] . وعندما قال بوحدة الأديان " يقول ابن عربي مصوراً عقيدته في ذلك :

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه [٤]

فعقيدته عقيدة جامعة لمعتقدات الناس جميعاً فهي تشمل إذا ديانات السماء وعقائد الأرض كلها بحيث لا يفرق بين وثنية قديمة أو إلحادية جديدة ولا بين إسلام أو نصرانية أو يهودية ، بل هو في آن واحد مؤمن ووثني ومتدين وملحد ثم يؤدي عبادته لأي ربّ يختاره ففي كل حين عنده رب ، يراه مرة في وثن وأخرى في حيوان أو راهب في كنيسة . يقول في ذلك :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن [٥]

وعندما قال بالحقيقة المحمدية [٦] أو النور المحمدي ــ أو الإنسان

---

(١) انظر الفلسفة الصوفية ٢٢٧ .

(٢) العبر في خبر من غبر للإمام الذهبي .

(٣) ابن عربي صاحب الفتوحات د/ محمد إبراهيم الفيومي ٤٥ .

(٤) فصوص الحكم لابن عربي تقديم د/ أبو العلا عفيفي ٣٤٥ .

(٥) السابق ٢٨٩ والفلسفة الصوفية في الإسلام د/ عبد القادر محمود ٥٢٠ ، ٥٢٥ ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ٢٢٦ والصوفية في نظر الإسلام ٤٧٠ ـ ٤٧٣ وتنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ٩٩ ، ١٠٠ .

(٦) يقول أحد الباحثين يمكن إجمال نظرية الحقيقة المحمدية عند ابن عربي في ثلاث نقاط أ ـ أنه مبدأ الخلق وأصل الكون ، ب ـ أنه الصورة الكاملة للإنسان الكامل ، جـ ـ أنه المشكاة التي استقى منها جميع الأنبياء رسالتهم ثم الأولياء من بعدهم . انظر الحقيقة المحمدية في الدراسات الصوفية للأستاذ مصطفى نجو مقال على شبكة الانترنت HTTP:11.W.W.W Kasnazan . Com

الكامل ويعني بذلك أزلية هذا النور أو القديم قبل المخلوقات وقد توصف بالصفات الإلهية .

يقول ابن عربي " بدأ الخلق من الهباء ، كان أول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العرش الإلهي لا يحصرها " أين " لعدم التميز . ووجدت في الهباء على المثال القائم بنفس الحق المعبّر عنه بالعلم به . وقد وجد لإظهار الحقائق الإلهية التي أوجدتها الحقيقة المحمدية ويوضح ابن عربي نظريته تلك عندما يقول الله لمحمد " ... وتكون فيها كما أنا فيك . فلست سواك . كما لست سواي . فأنت صفاتي فيهم وأسمائي فتقصد النبي ﷺ عندما سمع هذا القول ــ عرقا ــ فكان ذلك العرق الطاهر ماءً وهو الذي أخبر الله عنه في قوله ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ [١] ثم ابنجست منه ﷺ عيون الأرواح ، فظهر الملأ وهو بالمنظر الأجلى فكان محمد ﷺ الجنس العالي لجميع المخلوقات ، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس . فخلق الله من ذلك النور المنبعث منه العرش وجعله مستواه وجعل الملأ الأعلى وغيره محتواه [٢] .

وعندما قال بختم الولاية فقد صرح ابن عربي بأن الولي قد يكون رسولاً فيكون أفضل من الرسول وأن الولاية الحقيقية خيرٌ من الرسالة وأفضل منها لأن الولاية الكاملة هي جوهر الرسالة الكاملة بل يؤكد أنه إذا

---

(=) وانظر الفتوحات المكية لابن عربي ج ٢/٢٣٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣ ، ج ٤٣/١ وهذه النظرية مرتبطة بوحدة الأديان وكلا الأمرين يدور في وحدة الوجود .

(١) هود آية ٧ .

(٢) انظر الصوفية في نظر الإسلام ٤٨٠ ، ٤٨١ والموسوعة الصوفية د/ عبد المنعم الحفني ١٢٤٩ ـ ١٢٥٢ والفلسفة الصوفية ٥٧٧ ، ٥٧٨٠ ، ٥٨٩ والنصوص في مصطلحات التصوف محمد غازي عرابي ٣٢ ـ ٣٤ .

كان محمد ﷺ خاتم الرسل فإن ابن عربي نفسه هو خاتم الأولياء الذي هو في نظر نفسه ومنطقه خير وأفضل من خاتم الرسل [١]

ولا شك أن وحدة الأديان والحقيقة المحمدية وختم الولاية كلها متولدات وحدة الوجود [٢] ويلزم من وحدة الوجود لوازم لم يتحرج الصوفية من التسليم بها وهو كفر وضلال من ذلك أن العالم بكل ما فيه خير في ذاته بما في ذلك الشرك والمعاصي لأنها لا تعدو أن تكون آثاراً ومظاهر لأفعال الله وأنها من هذه الناحية من صفات الكمال الإلهي . فهم لا يتورعون عن القول بأن إبليس نفسه سبح الله بعصيانه لأن هذا العصيان كان خاضعاً للمشيئة الإلهية ومن لوازم مذهبهم قولهم بصحة جميع العقائد الدينية أيّا كانت ، فإن الحق كما يقول ابن عربي لا تحصره عقيدة دون أخرى [٣]

كما يؤدي إلى الإلحاد وإلغاء كل الشرائع الدينية والقوانين السماوية وإلغاء الإرادة والمسئولية الإنسانية [٤]

ولابن عربي دعاوى خطيرة تؤدي إلى كفره وقد أحصى له ملا علي القارئ أربعاً وعشرين دعوة كفرية وهذه الدعاوى هي التي دعت الفقهاء إلى تكفيره والحكم عليه بالزندقة . يقول الفاسي " وقد بيّن الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي شيئاً من حال الطائفتين القائلتين بالوحدة وجعل ابن عربي منهم بالخصوص .

---

(١) انظر فصوص الحكم لابن عربي ٦٢ ، ٦٣ وتعليق د/ أبو العلا عفيفي ٢٤ ، ٢٥ والفتوحات المكية لابن عربي ج ١٧٧/٣ والفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٥١٤ ، ٥١٥ والعقد الثمين للمكي ج ١٨٩/٢ .

(٢) انظر الفلسفة الصوفية ٥١٥ .

(٣) ابن عربي د/ محمد إبراهيم الفيومي ٦٠ .

(٤) انظر الفلسفة الصوفية د/ عبد القادر محمود ٥١٥ ، ٥١٦ .

وبيّن بعض ما في كلامه من الكفر ووافق على تكفيره بذلك جماعة من أعيان علماء عصره من الشافعية والمالكية والحنابلة لما سئلوا عن ذلك [١] وعد الفاسي جملة من فقهاء المذاهب الذين كفروه بآرائه ومقالاته منهم القاضي بدر الدين بن جماعة ٧٣٣هـ [٢] والقاضي سعد الدين الحارثي قاضي الحنابلة بالقاهرة [٣] وخطيب القلعة الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف الخزرجي الشافعي ت ٧١١ هـ [٤] والقاضي زين الدين الكنفاني الشافعي مدرس الفخرية والمنصورية ت ٧٣٨هـ والشيخ شرف الدين عيسى الزواوي المالكي ت ٧٤٣هـ [٥] والعلاّمة ابن خلدون من المالكية ت ٨٠٨هـ [٧] وغيرهم الكثير . ويذكر ابن طولون الحنفي ت ٩٥٣هـ في القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية أن فرقة تعتقد ضلاله وتعده مبتدعاً إتحادياً كافراً وهم غالب فقهاء أبناء العرب وجميع المحدثين . وسمعت وقد عدّهم بعض المتأخرين إلى نحو خمسمائة ومنهم قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز المصري . العلامة شهاب الدين أحمد بن حمدان الحراني .. وابن تيمية وكمال الدين جعفر الإدفوي وغيرهم [٨]

---

(١) انظر العقد الثمين للمكي ج ١٦١/٢ .
(٢) السابق ج ١٧١/٢ .
(٣) السابق ج ١٧٢/٢ .
(٤) السابق ج ١٧٣/٢ .
(٦) السابق ج ١٧٦/٢ .
(٧) العقد الثمين ج ١٧٨/٢ .
(٨) انظر القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لمحمد بن طولون الصالحي الحنفي ج ٥٣٨/٢ ـ ٥٣٩ تحقيق محمد أحمد دهمان ط ١٤٠٠/١ هـ وكتاب ابن عربي الصوفي في ميزان البحث والتحقيق الشيخ عبد القادر بن حبيب الله السندي ج ١١١/٢ نشر وتوزيع دار البخاري المدينة ط ١٤١١/١هـ ـ ١٩٩١م .

وهناك من العلماء من ألف الكتب ودوّن المدونات في كفر ابن عربي [١] ولم يكن الحكم عليه مقصوراً على الفقهاء والمحدثين ، بل هناك من الصوفية من عاب قوله وذمه وهو عبد الحق بن سبعين ت ٦٦٩هـ فقد قال " إن تصوف ابن عربي فلسفة جمحة وهذا مشهور عن ابن سبعين ويا ويح من بالت عليه الثعالب [٢] .

ولم يكن ابن عربي إزاء موقف الفقهاء قليل الحيلة عاجز اللسان ضعيف البيان فقد وصفهم بالجهل وعدم الفهم وسماهم بالفراعنة ودجاجلة عباد الله الصالحين كما تقدم . فالاتهام واقع من الجميع بيد أن حكم الفقهاء كان عن قضايا واضحة ومشهورة بأدلة مشروعة أما حكم ابن عربي فلا يخرج عن الاتهام العاري عن الأدلة والذي لا يعد وأن يكون ردة فعل لما كشف الفقهاء أمره وأظهروا حقيقته وأوضحوا للناس حاله وشأنه .

وقد امتدت أحكام الفقهاء على الطريقة الأكبرية بعد ابن عربي فلم يكتب لها الذيوع والانتشار بين جماهير الناس كما انتشرت طرق صوفية أخرى معاصرة ولاحقة لها كالقادرية والرفاعية والبدوية والشاذلية والنقشبندية وذلك بسبب إتهام الفقهاء له في حياته وبعد وفاته [٣]

**٥ ــ عبد الوهاب الشعراني ت ٩٧٣ هـ :**

هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي نسبة إلى محمد بن الحنفية

---

(١) راجع في ذلك تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي للبقاعي وتحذير العباد من أهل العناد وبدعة الاتحاد له أيضا . تحذير التنبيه والغبي من الافتتان بابن عربي لتقي الدين الفاسي المكي انظر العقد الثمين ج ١٦٢/٢ هامش ١ وفاضحة الملحدين وناصحة الموحدين لعلاء الدين البخاري ت ٨٤١ هـ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٧ مجاميع م ١٩٨ ، ١٩٩ والصوفية في نظر الإسلام .

(٢) العقد الثمين ٢٩

(٣) الطريقة الأكبرية في الكتاب التذكاري الفصل الثاني عشر د/ أبو التفتازاني ٢٩٥ - ٣٥٣ ونشأة الفلسفة الصوفية ٢٣٤ .

الشعراني أبو محمد يقول : " ومن نعمة الله نعمة شرف نسبي لكوني من ذرية الإمام محمد بن الحنفية [١] .

ولد في قلقشندة بمصر ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية وإليها نسبة الشعراني ، ويقال الشعراوي ، وكان ذلك عام ٨٩٨هـ ـ ١٨٩٣م وتوفى في القاهرة عام ٩٧٣هـ ـ ١٥٦٥م له مؤلفات كثيرة في التصوف وغيره وشهرته بالتصوف أكثر [٢] .

تتلمذ على يد كثير من علماء عصره منهم جلال الدين السيوطي والشيخ زكريا الأنصاري وناصر الدين اللقاني والسمنودي والشيخ علي الخواص وكان أميّا لا يقرأ ولا يكتب والشيخ محمد الشناوي ت ٩٣٢هـ[٣] وقيل إنه خلّف ثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم وقد استغرق بعضها خمسة مجلدات ووقع الكثير منها في مجلدين كبيرين ولكن على باشا مبارك يقول إن مؤلفاته تقارب السبعين وأحصى له بروكلمان أكثر من سبعين كتاباً بعضها مخطوط وبعضها مطبوع [٤]

وكان عصر الشعراني عصر الخلافات والنزاعات ليس بينه وبين الفقهاء فقط بل بين المذاهب الفقهية المختلفة والاتجاهات الصوفية المتباينة

---

(١) انظر لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ـ الشيخ عبد الوهاب الشعراني ٩ مكتبة عالم الفكر القاهرة ط الثانية د/ت والأعلام للزركلي ج ١٨٠/٤ ، ١٨١ .

(٢) راجع هذه المؤلفات في الأعلام للزركلي ج ١٨٠/٤ ، ١٨١ والتصوف في مصر إبان العصر العثماني إمام التصوف في مصر الشعراني د/ توفيق الطويل ج ١٧/٢ ط الهيئة العامة المصرية للكتاب .

(٣) انظر التصوف في مصر د/ توفيق الطويل ج ١٨/٢ ـ ٤٦ .

(٤) راجع في ذلك الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة على باشا مبارك ج ٣٤٦/١٤ ، ٣٤٨ ط دار الكتب المصرية القاهرة ط ١٩٩٨/٢م ومعجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج ٣٣٩/٢ ، ٣٤٠ تحقيق مكتب التراث بمؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط ١٤٢٤/١هـ ـ ١٩٩٣م والتصوف في مصر ج ١٩/٢ .

وقد ردّ الدكتور الطويل الخصومة بينه وبين الفقهاء إلى حسدهم له وغيرتهم منه وإلى ما كان يتمتع به ــ أي الشعراني ــ من مكانة ملحوظة ونفوذ مرموق [١] .

وأشار نيكلسون المستشرق الإنجليزي المعروف إلى أن الشعراني كان لسعة علمه بالدين يحارب الفقهاء بسلاحهم ورأى فولوز المستشرق الألماني أنه بدأ في البحر المورود جريئاً في مهاجمة العلماء والتنديد بطمعهم وزهوهم والتشهير بجشعهم وتهافتهم على الوظائف [٢]

ويذكر الشيخ طه عبد الباقي سرور التهم التي وجهها إليه الفقهاء أو خصومة على حد تعبيره أنه أفتى بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها إذا كان وراء العبد حاجة .. وادعاؤه الاجتهاد المطلق وكلامه في مسائل خرق بها إجماع المسلمين [٣] .

ويرى ابن العماد الحنبلي أن حساد الشعراني طوائف مختلفة فيقول " وحسده طوائف مختلفة فدسوا عليه كلمات تخالف ظاهرها الشرع " [٤] فالحسد ليس مقصوراً على الفقهاء فقط بل كان من الصوفية أيضاً حتى أن علي باشا مبارك يذكر في الخطط التوفيقية أن أهل جامع الغمري ــ وهم من الصوفية لما تحول عنهم إلى المدرسة المعروفة بأم خوند بالقرب من مسكنه ــ حسدوه وبسطوا ألسنتهم في شأنه وأسمعوه غليظ القول وتحالفوا على المصحف أن لا يحضروا معه مجلس الذكر والصلاة على النبي ﷺ [٥]

---

(١) انظر التصوف في مصر ج ٢/٥٠ .

(٢) السابق ج ٢/٥١ وقد نقل ذلك من Vollers دائرة معارف الدين والأخلاق لناشرها R. Hastinga

(٣) راجع هذه التهم في التصوف الإسلامي والشعراني طه عبد الباقي سرور ١٤١ ، ١٤٢ دار نهضة مصر الفجالة د/ت .

(٤) انظر شذرات الذهب ج ٢/٤٣٨ .

(٥) انظر الخطط التوفيقية علي باشا مبارك ج ١٤/٣٤٤ .

فالحسد كان من الصوفية أيضاً .

ويصّر الدكتور توفيق الطويل على أن الخصومة كانت بينه وبين الفقهاء فقط أو بمعنى أدق الخصومة المحسوبة التي لها آثارها ونتائجها ولكنه يتحرز في الكلام فلا يعمم الحكم ويرى أن طائفة من الفقهاء هي التي جعلته مارقاً من الدين فيقول " وقد بدأ الشعراني مارقاً من الدين في رأي طائفة من الفقهاء [١] ويتحدث عن ثورة الفقهاء على الشعراني فيقول " ونهض بعضهم لمناوأته وحاولوا التنكيل به وأثاروا بشأنه فتنة بالجامع الأزهر وأشعلوا نارها بالحجاز فزيفوا مقدمة كتابه " كشف الغمة " واستعاروا نسخة مما نسخة مريدوه من كتاب " البحر المورود " والذي هاجمهم فيه ودسوا فيه تعاليم تخالف ظاهر الشريعة وضمنوها وجوهاً من العبث لا تتفق مع صلاحه ووقاره . وأرسلوها إلى طائفة من خصومه فأذاعوها في مصر ومكة وحرصوا على التشهير بها بين رجال الأزهر من غير أن يراجعوه في أمرها ولبث التزييف قائماً ثلاثة سنوات حتى اشتعلت في الأزهر فتنة تزعمها الشيخ حسين العبادي وأذكى نارها ولكن الشيخ الشعراني كان له حزب من العلماء ينتصر له ويدافع عنه شر خصومه وحساده وقد تزعم حركة الدفاع عنه " ناصر الدين اللقاني " و "شهاب الدين الرملي" ولكن الفتنة لبثت قائمة وخصومه ينالون من عرضه ودينه حتى اتصل بهم وأرسل إليهم نسخته الأصلية وعليها إجازات الفقهاء وحملة الشريعة من أهل المذاهب الأربعة وهم أحمد بن عبد العزيز بن علي القنوجي الشهير بابن النجار " حنبلي " وناصر الدين اللقاني " مالكي" وشهاب الدين أحمد بن يونس "حنفي" وشهاب الدين الرملي "شافعي" وعندئذ

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ج ٢/٥١ .

انكشف دس خصومه وحساده وبرئت ساحته ولما سكنت الفتنة أخذ حساده يشيعون في مصر ومكة بأن العلماء الذين ذادوا عنه وأجازوا ما كتبه قد بان لهم مروقه وإلحاده . فعدلوا عن رأيهم فيه وحسن ظنهم به . وسكنت الفتنة مرة أخرى ولكن خصومه في معسكر الأزهر مازالوا يضيقون به ولا يخفون تبرمهم به كلما رأوه ومنهم من سعى إلى اغتياله ومن أمل في إمكان نفيه بعيداً عن مصر ومن شهر بجهله بالحقيقة والشريعة على السواء [١]

والحقيقة أنني استبعد الدس من الفقهاء لأن هذا لا يتفق مع دينهم وأخلاقهم ، فأي فقيه يرضى أن يدس كلاماً في كتب غيره ويتقول على إنسان ما لم يقله ؟ ثم إن الشعراني نفسه يقول " ثم صبري على الحسده والأعداء حين دسوا في كتبي ما يخالف الشريعة ثم أشاعوا ذلك عني [٢] وأعداء الشعراني وحساده كثر ليسوا من الفقهاء فقط بل طوائف مختلفة من الفقهاء والصوفية وغيرهم فهم طوائف مختلفة كما يقول صاحب شذرات الذهب [٣] فلم وجهنا أصابع الاتهام إلى الفقهاء فقط دون غيرهم ؟ إننا لو فهمنا الخلاف بين الصوفية والفقهاء في إطار الخلاف المنهجي لكان أولى من اتهام الفقهاء بالدس وأن الفقهاء معذورون في إنطلاقهم من التحاكم إلى الظاهر والحكم به ولذلك اعترف الشعراني بهذه الحقيقة عندما قال " ثم مبادرتي لإقامة العذر لكل من آذاني لكونه ما آذاني إلا بعد مخالفتي لهوان أو بعد وقوعي في ذنب يقتضي عنده ذلك ثم كثرة تعظيمي وتبجيلي لكل

---

(١) التصوف في مصر ج ٥١/٢ ـ ٥٣ وراجع كذلك الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك ج ٣٤٦/١٤ ومن كتب الشعراني لطائف المنن ١٢ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٣٧ واليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ج ٦/١ ، ٧ ط دار المعرفة بيروت لبنان ط الثانية د/ت .

(٢) لطائف المنن للشعراني ٣٥ .

(٣) شذرات الذهب ج ٤٣٨/٨ وراجع الخطط التوفيقية ج ٣٤٦/١٤ .

عالم أنكر عليّ وبالغ في الإنكار لكونه غار لظاهر الشريعة على قـــدر عقله [١] وقوله " ثم إقامة العذر للفقيه إذا بادر إلى الإنكار على بعض أهل الطريق [٢] .

ثم إن من يتأمل مؤلفات الشعراني يجد فيها المبالغات والمخالفات لعل أبرزها دفاعه عن شيخه محي الدين بن عربي وتأييده له وتبنيـــه لأقوالـــه وآرائه وخاصة في رفع درجة الولي على رتبة النبي [٣] واتهامـــه للعلـــم الظاهري ومهاجمته له [٤] وأن الله أطلعه على بعض المنعمين والمعـــذبين في قبورهم [٥] واعتقاد الجن وكثير من المسلمين والنصارى وغيرهم فيـــه الصلاح وخدمة الجن له [٦] وأن الجن أرسلوا إليه شخصاً منهم في صورة كلب أصفر يسألونه عن نيف وسبعين سؤالاً في التوحيد . وقالوا قد عجز علماء الجن عن الجواب عنها وقد نزل إليه هذا الكلب من طاقـــة قاعتـــه المجاور " للمدرسة التي على الخليج الحاكمي فأجابهم عنهـــا فـــي نحـــو خمسين ورقة في كتاب بعنوان " كشف الحجاب والران عن أسئلة الجان[٧] وأنه قد بني كتابه كشف الغمة على ما بشره به الهاتف عليه السلام وكذلك الميزان الذي سار عليه فيه ، فقال " وقد أخبرني الهاتف عليه الســـلام أن هذا الميزان لم يظفر به أحدُ من التابعين ولا أحدُ من الأئمة المجتهدين"[٨]

ومن يطالع كتب الشعراني الطبقات الكبرى ولطائف المنن واليواقيت

---

(١) لطائف المنن ٣٦ .
(٢) السابق ١٦ .
(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ج ٢/٥٦ ـ ٦٣ .
(٤) السابق ٩٩ ـ ١٠٤ .
(٥) لطائف المنن ١٢ .
(٦) لطائف المنن ١٧ .
(٧) انظر الخطط التوفيقية علي باشا مبارك ج ١٤/٣٤٧ .
(٨) انظر كشف الغمة عن جميع الأمة للشيخ عبد الوهاب الشعراني ج١/٨ ، ١٠ ط مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر ط الأخيرة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م .

والجواهر وكشف الغمة وغيرها يجد فيها كثيراً من المخالفات التي لا تتفق مع ظاهر الشريعة وأحكام الفقهاء وإن كنا لا نقول بعصمتهم . فلا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ .

**٦ ــ محمد بن عبد الرؤف المُناوي ت ١٠٣١هـ :**

ولد الإمام المناوي ٩٥٢ ــ ١٥٤٥ ، ت عام ١٠٣١هـ ــ ١٦٢٢م وتتلمذ على يد كثير من العلماء والمشايخ حتى عد من كبار الفقهاء والمحدثين والصوفية وله مؤلفات عديدة تربو على الثمانين ولما مات قيل في موته ، مات شافعي الزمان [١] وعصره لا يختلف عن عصر الشعراني ، فقد كان معاصراً له ومن تلاميذه . وقد وسم بأنه عصر التعصب الديني والصراع المذهبي بين الفقهاء والصوفية يقول د/الطويل واصفاً هذا العصر وما حدث فيه من مآسي أودت باغتيال المناوي وتاريخ التصوف في هذا العصر حافل بالمآسي التي تشهد بالتعصب الديني وتنطق بضيق العقول وكدر النفوس ومن أفظع هذه المآسي اغتيال عبد الرؤف المناوي ١٠٣١هـ رغم ما كان عليه من علم أدى إلى إعجاب الكثيرين الفقهاء به[٢]

والمناوي صوفي كبير صاحب طريقة صوفية وله مؤلفات كثيرة في التصوف [٣] وشهرته في التصوف لا تقل عن شهرته في الفقه والحديث وهو متأثر بمحي الدين بن عربي كشيخه الشعراني وقد ذيل شرحه فيض القدير للجامع الصغير بأقواله .

ويبدو أنه كان مؤثراً للسلامة محباً للعزلة فانشغل بنفسه وانقطع عن

---

(١) انظر الأعلام للزركلي ج ٢٠٤/٦ وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمولى محمد المحبي ج ٤١٢/٢ ـ ٤١٦ دار صادر بيروت لبنان د/ت .

(٢) التصوف في مصر د/ توفيق الطويل ١٧٠ .

(٣) راجع هذه المؤلفات في خلاصة الأثر ج ٤١٣/٢ ـ ٤١٦ .

مخالطة الناس وانعزل في منزله . وأقبل على التأليف فصنف في غالب العلوم ثم ولي تدريس المدرسة الصالحية [١] وهذه المدرسة كانت وقفاً على أكبر علماء الشافعية وهو شيخ الأزهر في العادة كما يقول الجبرتي [٢] وهنا أحس فقهاء الشافعية خاصة علماً بأن الشيخ المناوي شافعي والفقهاء عامة أن المدرسة قد اغتصبت منهم . وهالهم إعطاء هذا المنصب لرجل لا يعرفون عنه إلا أنه من أهل التصوف وكان ذلك بداية الحسد والكيد الذي أودى بحياة الرجل [٣] .

يقول المحبي " ولى الشيخ تدريس المدرسة الصالحية فحسده أهل عصره وكانوا لا يعرفون مزية علمه لإنزوائه عنهم ولما حضر الدرس فيها ورد عليه من كل منصب فضلاؤه منتقدين عليه وشرع في إقراء مختصر المزني ونصب الجدل في المذاهب وأتى في تقريره بما لم يسمع من غيره فأذعنوا لفضله وصار أجلاء العلماء يبادرون لحضوره وأخذ عنه منهم خلق كثير وكان مع ذلك لم يخل من طاعن وحاسد حتى دس عليه السم فتوالى عليه بسبب ذلك نقص في أطرافه وبدنه مع كثرة التداوي ولما عجز صار ولده تاج الدين محمد يستملي منه التأليف حتى توفى سنة ١٠٣١هـ ودفن في زاويته [٤] .

وإذا كان المحبي يقول بأن حساده هم الذين دسوا له السم هكذا مطلقاً دون تقيد بالفقهاء فإن الدكتور الطويل يقول إن الفقهاء هم الذين اغتالوا المناوي [٥] .

---

(١) انظر خلاصة الأثر للمحبي ج ٤١٣/٢ .
(٢) انظر التصوف في مصر د/توفيق الطويل ج١٧٠/١ وقد نقل ذلك من تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمن الجبرتي ج ١٥٩/٢ .
(٣) انظر التصوف في مصر د/ الطويل ج ١٧٠/١ .
(٤) انظر خلاصة الأثر للمحبي ج ٤١٣/٢ ـ ٤١٦ والتصوف في مصر د/الطويل ج ١٧٠/١ .
(٥) انظر التصوف في مصر د/ توفيق الطويل ج ١٧٠/١ .

والحقيقة أن هذا إتهام خطير للفقهاء ولا دليل عليه وما ورد في المصادر كلام عام مطلق ولا دليل على تخصيصه وتقييده بالفقهاء .. ولم لا يكون الشيخ قد أصابه المرض واعتلته الآفات بسبب قلة الطعام وكثرة السهر والعزلة التي فرضها على نفسه كما هو دأب الصوفية حتى أصابه المرض في أطرافه وعجز جسده وربما كان في كلام الزركلي ما يدل على ذلك " وكان قليل الطعام كثير السهر . فمرض وضعفت أطرافه فجعل ولده تاج الدين يستملي من تأليفه " [١] وهل من المعقول أن يكون هناك فقيه يعي معنى الفقه يصل به الحد إلى دس السم لخصمه ؟ إن هذه الأخلاق لا تليق بالعامة والسوقة فكيف بالفقهاء ؟ إن أمثال هذه الروايات تظهر الفقهاء في صورة المجرمين والظلمة الذين يريدون التخلص من الخصوم بأي وسيلة حتى لو كانت الوسيلة هي السم وتظهر الصوفية في صورة الحمل الوديع الذي يعتدي عليه دائماً دون التفات إلى ما تحدثه من مخالفات وكأنهم معصومون . كما أن وجود هذه الروايات في المصادر القديمة والحديثة من شأنه أن يوغر الصدور ويغير النفوس بشحنها ضد الفقهاء والتحامل عليهم وهذا يؤدي إلى ازدرائهم وعدم اعتبارهم لأحكامهم وآرائهم وعلى الباحث أن ينظر إلى هذه الروايات وأمثالها بعين العقل والحكمة وأن يزنها بميزان الشرع القويم والعقل السليم .

**" إتهامات لا تثبت "**

١ ــ التهمة الأولى : يذهب بعض الباحثين إلى أن الفقهاء هم من كانوا وراء المحنة الكبيرة التي عرفت بمحنة غلام الخليل [٢] ت ٢٧٥ هـ يقول

---

(١) الأعلام للزركلي ج ٦/٢٠٤ .

(٢) غلام الخليل : هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس الباهلي البصري غلام خليل سكن بغداد وكان له جلالة عجيبة وصولة مهيبة .. إلا أنه كان يروى الكذب =

الدكتور عبد الله الشاذلي " أما هجوم الفقهاء على الصوفية فقد إنهال على الجانب العلمي وما فيه من أذواق ومكاشفات وعلى الجانب السلوكي وما يحوى من شطحات وإنحرافات أما بالنسبة لحجم العداء فمن الخطأ المبالغة فيه مهما بلغ ذروته في بعض الأحيان إلى حد القتل الجماعي فيما عرف بمحنة غلام الخليل [١]

ويقول باحث آخر " وقد بلغت أزمة المتصوفة ذروتها بمحنة غلام الخليل والتي اتهم فيها سبعين من الصوفية من بينهم الجنيد شيخ الطائفة ببغداد ... إلا أن الصوفية لما مزجوا مسائل الكلام والفلسفة اللاهوتية بالتصوف زادوا الطين بلة حيث كان لهم مذاهب في الاتحاد والحلول مما رآه فقهاء الإسلام منافياً للإسلام مؤدياً إلى الكفر فزادت الخصومة بين الفريقين [٢] والحقيقة أن هذا الاتهام باطل ولم يكن للفقهاء أي دور على الإطلاق فيما عرف بمحنة غلام الخليل ولم يذكر ذلك أحدٌ من العلماء القدامى الذين حكوا هذه المحنة بما فيها ولو كان لهم دور في ذلك ولو من بعيد لذكروه . وإن كان ذلك لا يمنع دور الفقهاء في موقفهم من بيان شطحات ومخالفات الصوفية على العموم وحقيقة الغلام أنه كان من الصوفية في المراحل الأولى إلا أنه خالفهم وعارضهم وانقلب عليهم ، يقول أحد الباحثين " وكان غلام الخليل من الصوفية ثم انقلب عليهم وكاد لهم وألب عليهم " [٣]

---

(=) ويرى وضع الحديث وصفه الذهبي وغيره بأنه كان عالما زاهدا ت ٢٧٥هـ انظر ترجمته في تاريخ بغداد ج ٧٨/٥ ـ ٨٠ وسير أعلام النبلاء ج ٢٨٢/١٣ـ ٢٨٥ .

(١) انظر التصوف الإسلامي د/ عبد الله الشاذلي ج ٢٨٧/٢ ـ ٢٨٨ .

(٢) انظر في تراثنا العربي والإسلامي د/ توفيق الطويل ١٨٢ سلسلة عالم المعرفة ط المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت ٨٧ واتجاهات الفكر التربوي في العصر العباسي للأستاذ عبد الرحمن بن عبد الخالق الغامدي شبكة المعلومات

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج ٢٨٧/٢ .

وسبب هذه المحنة كما تقول المصادر أنه نسب الصوفية المعاصرين له إلى الزندقة لقولهم بالحلول . يقول ابن الجوزي " لما كانت محنة غلام الخليل ونسب الصوفية إلى الزندقة . أمر الخليفة العباسي الموفق بالقبض عليهم فأخذ النوري [١] ومعه جماعة فأدخلوا على الخليفة فأمر بضرب أعناقهم ولما أسرع النوري وابتدر إلى السياق ليضرب عنقه قال له ما دعاك إلى البدار ؟ قال آثرت حياة أصحابي على حياتي هذه اللحظة فتوقف السياف ورفع أمرهم إلى الخليفة فرد أمرهم إلى القاضي إسماعيل بن إسحاق [٢] فأمر بتخليتهم [٣] وممن كان مع أبي الحسين ــ ابو القاسم الجنيد ت ٢٩٧هـ وأبو حمزة الصوفي النيسابوري ت ٢٦٩هـ وأبو بكر الدقاق ت ٢٩٠ هـ وجماعة من أقران هؤلاء [٤] ثم يقول ابن الجوزي " ومن أسباب هذه القصة قول النوري " أنا أعشق الله والله يعشقني فشهد عليه بهذا يعني غلام الخليل " [٥]

ويذكر الطوسي أن غلام الخليل قال لأمير المؤمنين إن ببغداد رجلاً من الزنادقة دمه حلال فإن قتله أمير المؤمنين فدمه في عنقي ، فبعث الخليفة إلى النوري فشهد عليه غلام الخليل أنه سمعه يقول أنا أعشق الله .. واحتج النوري على قوله ، بقول الله عز وجل " يحبهم ويحبونه " [٦] وليس العشق بأكثر من المحبة [٧] .

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري صوفي له مخالفات انظر ترجمته في كشف المحجوب للهجويري ج ٤٣٢/١ .

(٢) هو إسماعيل بن إسحاق البصري المالكي ت ٢٨٨ هـ انظر ترجمته في تاريخ بغداد ج ٢٨٤/٦ وسير أعلام النبلاء ج ٣٣٩/١٣ .

(٣) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ج ١٠٣٤/٣ واللمع للطوسي ٣٩٢ .

(٤) انظر تلبيس إبليس ج ١٠٣٦/٣ وسير أعلام النبلاء ٢٨٤/١٣٠ .

(٥) تلبيس إبليس ج ١٠٣٨/١٣ .

(٦) المائدة آية ٥٤ .

(٧) اللمع للطوسي ٤٩٢ .

... قال فبكى الموفق من دقة كلامه [١] .

ولو دققنا الكلام في أقوال هؤلاء الصوفية لعلمنا أن إتهام غلام الخليل لهم صحيح ولم يكن من فراغ . فالنوري يقول : أنا أعشق الله والله يعشقني كما تقدم .

وأبو حمزة الوصفي يقول : لما سمع غراباً على سطح المسجد زعق لبيك . لبيك [٢]

ولما سمع عند الحارث المحاسبي شاة تقول " ميع قال : لبيك يا سيدي . حتى غضب عليه الحارث وقال له : إن لم تتب من هذا الذي أنت فيه أذبحك " [٣] .

فلما رأى غلام الخليل ما عليه القوم رماهم بالحلول والزندقة [٤]

وقد استغلت الدولة العباسية غلام الخليل لزهده وتقشفه لتضرب به الصوفية وخاصة أن أم الموفق كانت تميل إليه ويحظى بمكانة عندها . فأمرت المحتسب أن يطيع الغلام وعلى الفور أرسلوا الأعوان في طلبهم وكانوا نيفاً وسبعين نفساً فمنهم من اختفى ومنهم من حبس ومنهم من خلصته العامة [٥]

ولئن كان الغلام أنكر على الصوفية ما وقعوا فيه وهذا مما يحمد له إلا أنه كان ينكر خطأهم بخطأ أغلظ منه حتى جعل محبة الله بدعة وكان يقول

---

(١) يقول ابن الجوزي معلقاً على كلام النوري السابق " هذا خطأ من ثلاثة أوجه أحدها من حيث الاسم فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح والثاني أن صفات الله منقولة وهو يحب ولا يعشق والثالث من أين له أن الله يحبه وهذه دعوى بلا دليل " انظر تلبيس إبليس ج ١٠١٢/٣ ، ١٠١٣ .

(٢) تلبيس إبليس ج ١٠٠٢/٣ .

(٣) اللمع ٤٩٥ وتلبيس إبليس ج ١٠٠٨/٣ وسير أعلام النبلاء ج ١٦٧/١٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء ج ٢٨٤/١٣ .

(٥) السابق ج ٢٨٤/١٣ .

: الخوف أولى بنا . قال ابن الأعرابي : وليس كما توهم . بل المحبة والخوف أصلان لا يخلو المؤمن منهما [١] هذه هي محنة الصوفية التي اشتهرت وعرفت بمحنة الخليل وليس للفقهاء فيها دخل لا من قريب ولا من بعيد .

٢ ــ التهمة الثانية : وهي محنة فريد الدين العطار ت ٥٨٦هـ [٢] فقد اتهمه أحد الفقهاء السنيين من أهل سمرقند بالإلحاد والكفر ، حتى فرّ الرجل إلى مكة بعد أن حرّض العامة على هدم منزله والإغارة على أمتعته . يقول الدكتور بديع جمعة فيما نقله عن براون المستشرق الإنجليزي " إن العطار نسب إليه كتاب مظهر العجائب وهو عبارة عن منظومة في مدح علي بن أبي طالب ... ويبدو أن نشر العطار لهذه المنظومة كان سبباً في إذاعة روح السخط والتعصب لدي أحد الفقهاء السنيين من أهل سمرقند فأمر بإحراق نسختها واتهم صاحبها بالإلحاد وأنه حقيق بالموت والإعدام . ثم أمعن في الكيد له فاتهمه بالكفر لدي براق التركماني وحرّض العامة على هدم منزله والإغارة على أمتعته . واضطر العطار بعد ذلك إلى أن يرحل ويلجأ إلى مكة [٣] .

والحقيقة أن محنة العطار الشاعر الصوفي لم تكن بسبب الفقهاء . فعلاقته بالفقهاء كانت جيدة وخاصة فقهاء عصره . وإنما محنته كانت بسبب المغول الذين اجتاحوا البلاد يقول أحد الباحثين " إن المغول قد

---

(١) السابق ج ١٣/٢٨٤ .

(٢) ولد محمد فريد العطار على خلاف بين العلماء في الفترة ما بين عام ٤٥٠ إلى ٥٥٠ وتوفى عام ٥٨٦ هـ وله مؤلفات أشهرها تذكرة الأولياء ومنطق الطير وغيرها . انظر المقدمة التي كتبها د/ بديع جمعة في كتاب منطق الطير ٢٠ ط المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة ١٩٩٣م .

(٣) انظر مقدمة د/ بديع جمعة لكتاب منطق الطير ٣٤ .

خرّبوا كل مظاهر الحياة في نيسابور وقتلوا كل حيّ وأحرقوا كل عود أخضر إلا أن هذا في رأيي على سبيل المبالغة في وصف فداحة الغزو . فلا يعقل مهما كانت ضراوة المعركة أن يصيب الموت والقتل كل ساكني نيسابور ... ولابد من نجاة البعض ولم لا يكون العطار من بين الناجين وبخاصة أنه لم يشارك في حمل السلاح والكفاح .

ولذلك استطاع العطار بطريقة أو بأخرى أن يهرب من القتل . وظل على قيد الحياة حتى توفى عام ٦٢٧هـ [١]

فمحنة العطار وهروبه طلباً للنجاة كانت بسبب غزو المغول لنيسابور الذي قضى على الأخضر واليابس ولم يكن بسبب الفقهاء ولم لا يكون هناك عطار آخر يشبه اسمه اسم العطار الذي معنا . كتب الكتاب المذكور وحشاه بالتشيع ليتقول عليه ظلماً وزوراً يقول د/ بديع جمعة فيما نقله عن الأستاذ جولبنا رلي المترجم التركي لمنطق الطير " ويؤخذ من هذا كله أنه في القرن التاسع الهجري أو بعد هذا القرن وجد عطار آخر أو كتبت كتب باسم العطار كتبها شيعي باطني وإن كتاب " مظهر العجائب " ولسان الغيب وشتر نامة وما يشبهها قد كتبت باسم العطار لتترنم بالتشيع المغالي فيه . وقد تكون هذه الكتب عن تصنيف هذا العطار الآخر [٢] والخلاصة أن العطار كان سنياً ولم يكن شيعياً وكل كتبه ومنظوماته تثبت ذلك [٣] ولا علاقة للفقهاء في سمرقند وغيرها بمحنته . وبعد

فبالتأمل في ضحايا النزاع والصراع بين الصوفية والفقهاء نجد أن الصوفية فيه كانوا على قسمين : الأول : صوفية الفلاسفة والثاني صوفية

---

(١) انظر مقدمة د/ بديع جمعة لكتاب منطق الطير ٤٣ .

(٢) السابق ٣٤ ، ٣٥ وقد نقل ذلك من الترجمة التركية لكتاب منطق الطير للأستاذ / جولبنا رلي " ط إسطنبول ١٩٦١م .

(٣) السابق ٣٥ .

السنة . وكان الصراع في الأول أقوة وأوسع وفي الثاني أضعف وأضيق ولكل قسم إشكاليته إشكالية الأول : أنه أراد الانفتاح الفلسفي دون التقيد بنصوص الشرع كثيراً ومن ثم أعلن ثورته على الفقهاء لأنهم في نظره يمثلون الاتجاه التقليدي بوقوفهم عند الحد الظاهري للنص ولكنهم أي الصوفية يريدون مجاوزة النص الظاهري إلى المعنى الباطني والذي كان في معظمه فهم ذاتي خاص الأمر الذي أثار حفيظة الفقهاء وغضبهم فتصدوا لهم وكشفوا حقيقتهم وانتهى الأمر إلى ما رأيناه وغنى عن البيان أن هذا القسم كان أسبق تاريخياً حيث ظهر في فترة سيادة الفقهاء وريادتهم وكثرة أتباعهم الذين يمثلون السواد الأعظم والجمهور الأكثر حكاماً ومحكومين إذ لولا الحكام وتأييدهم للفقهاء والمحكومين وانقيادهم لهم ما كان لهم الظفر والغلبة بخلاف الصوفية فإنهم كانوا قلة إذا ما قيست بأتباع الفقهاء .

القسم الثاني : الذي كان اضعف ونطاقه أضيق باعتبار المنطلق الذي جمعه مع الفقهاء وهو الكتاب والسنة اللذان يمثلان مرجعية مشتركة لهما إلا أن الإشكالية تبدو في تأثره بصوفية الفلاسفة وأخذه بأقوالهم وتبنته آراءهم في بعض الأحيان . فمن الخطأ التسوية بين الفريقين والجمع بين القسمين بحكم واحد ويضاف إلى ما تقدم أن جانباً من الصراع لم يثبت عند التحقيق والتدقيق لكونه بني على روايات وحكايات لا أساس لها والتي تظهر الفقهاء في صورة الجلاد والصوفية في صورة الضحية وذلك في فترة تاريخية متأخرة فترة التراجع الحضاري حيث شاع التعصب وكثر الجهل .

## المبحث السادس

## إمكانية اللقاء

بعد هذه الرحلة الطويلة من الصراع بين الصوفية والفقهاء نتساءل : هل يمكن اللقاء بينهما ؟ وهل يمكن أن يكون هناك مصالحة تاريخية ؟ ويتناسى الفريقان ما كان في الماضي من صراعات ومآسي ؟ وخاصة أن الفقهاء الآن باتوا يعملون في مؤسسات حكومية ممثلة في دور الإفتاء والمجامع الفقهية والصوفية كذلك لم تعد أفراداً وإنما طرق صوفية مختلفة لها شيخ يعرف بشيخ مشايخ الطرق الصوفية .

ونستطيع أن نقول إن اللقاء بين الفريقين ممكن عن طريقين :

الأول : ونسميه باللقاء المنهجي ، والثاني : ونسميه باللقاء العلمي .

اللقاء المنهجي : ونعني به الجمع بين المنهجين . منهج النظر والاستدلال ومنهج الذوق والعرفان وقد اتجه إليه جماعة من الباحثين على اعتبار أنهما من صميم الإسلام ولا يخرجان عنه . وهدف أصحابهما وغايتهما الوصول إلى السعادة الأبدية والسيادة السرمدية فهما متلازمان لا ينفصلان وتوأمان لا يفترقان . وقد يكون كل منهما ثمرة للآخر ، يقول طاش كبرى زادة في بيان النسبة بين طريق النظر وطريق التصفية " اعلم أن الكل متفقون على أن السعادة الأبدية والسيادة السرمدية لا تتم إلا بالعلم والعمل وأنهما توأمان وله توجهان :

أحدهما : الشائع المشهور وهو أنه لا يعتد بواحد منهما بدون الآخر ، إذا العلم بدون العمل وبال ، والعمل بلا علم ضلال . وقال تعالى : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ [١] .

---

(١) فاطر آية ١٠ .

وثانيهما : أن كلا منهما ثمرة للآخر . مثلاً إذا تمهر الرجل في اكتساب العلم وحذق فيه لا مندوحة له عن العمل بموجبه ، إذ لو قصر في العمل لم يكن في علمه كمال . وأيضاً إذا باشر الرجل العمل وجاهد فيه وارتاض حسبما يتنوه من الشرائط ينصب على قلبه العلوم النظرية بكمالها كما قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ (١)

وهاتان طريقتان . الأولى منهما طريقة الاستدلال والثانية طريقة المشاهدة .

الأولى درجة العلماء الراسخين والثانية درجة الصديقين . وقد تنتهي كل من الطريقتين إلى الأخرى فيكون صاحبه مجمعاً للبحرين أي يجري الاستدلال والمشاهدة أو العلم والعرفان أو الشهادة والغيب وإذا عرفت أن السالكين إلى الحق مع كثرة الطرق وخروجها عن حد الإحصاء نوعان : أحدهما : ما يبتدي من طريق العلم إلى العرفان ومن طريق الشهادة إلى الغيب . وثانيهما : ما يبتدي من الغيب ثم ينكشف له عالم الشهادة عن طريق الجذبة الإلهية (٢) ويستدل على ذلك بما قاله أحد العارفين : " يشبه أن يكون الأول طريقة الخليل حيث ابتدأ من الاستدلال بأفول الشمس والقمر إلى وجود ربّ العالمين . والثاني : طريقة الحبيب : حيث ابتدأ بشرح الصدور وكشف له سبحات وجه ذي الجلال وأحرقته حتى إنمحق جميع ما أدركه وتلاشى في ذاته " فتحقق رتبة كل شيء هالك إلا وجهه ذوقاً وحالاً . لا علماً وقالاً هذا حال الجامعين بين المرتبتين " (٣)

---

(١) العنكبوت آية ٦٩ .

(٢) انظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة ج ٦٦/١ ، ٦٧ وأبجد العلوم صديق حسن خان ج ٦٩/١ ، ٧٠ ومناهج البحث عند مفكري المسلمين د/ علي سامي النشار ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٣) مفتاح السعادة ج ٦٧/١ .

وترى الباحثة د/ نظلة الجبوري أن الجمع بين المنهجين . منهج الفقهاء ومنهج الصوفية هو النهج الصواب فتقول " لابد من القول بأن الجامع بين العقل طريق الفقهاء والذوق طريق الصوفية هو النهج الصواب . وذلك لأن الإنسان عقل وروح . فهو بحاجة إلى النظر والاجتهاد في أمور وتفصيلات حياته المختلفة كي يتدبر ويستجيب لمتغيراتها وتطورها باستمرار وفقا للعقل . ولكن ما أحوج روح الإنسان إلى الصفاء والتأمل والراحة وسكون الروح إلى بارئها بعد ما بذله الإنسان من جهد عقلي في مسار حياته اليومي . وعندما يأخذ التصوف دوره في البنيان الاجتماعي والنفسي للفرد وعندها يغد والتصوف أخلاقاً وقاعدة للحياة .. وبهذا يتوافق التصوف مع الفقه في بناء الفرد ففي الوقت الذي يعتمد على العقل والنظر في بنيان الفرد العقلي والفكري لابد من إعداد الفرد إعداداً نفسياً متوازياً مع إعداده العقلي . وهنا يساعد التصوف بالذوق والتأمل المبني على أساس الشريعة والعقيدة في إعداد بنيان الفرد النفسي والخلقي [١] .

وأكد الجمع الدكتور راجح الكردي في نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة [٢] . بل إن الدكتور عبد الله الشاذلي يرى أن منهج التصفية ـ الكشف ـ منهج إسلامي[٣] اعترف به الفقهاء والأجلاء عامة وتمسك بأهدابه مخلصو الأولياء بصفة خاصة . وعليه فلا تعارض ولا تناقض بين المنهجين ويحتج لذلك قائلاً " والدليل على ذلك ما نراه من إجلال كبار الفقهاء لهذا الإدراك وتذوقهم له . ونيلهم كثيراً من الواقعات الوهبية فها هو

---

(١) انظر مواقف الخلاف بين الفقهاء والصوفية د/ نظلة الجبوري ١٤٠ ، ١٤١ مقال بمجلة الرسالة الإسلامية . الصادرة عن وزارة الأوقاف العراقية .

(٢) انظر نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة د/ راجح عبد الحميد الكردي ٦٩٧ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط ١٤١٢/١هـ ـ ١٩٩٢م .

(٣) انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج ٥٤/٢.

الإمام أبو حنيفة (١٥٠هـ) يعرف بأنه كان حاد الفراسة [١] . وله مع تلاميذه أخبار صادقة تدل على ذوقه ورقة حاله . ودرجة شفافيته ومنحه من عطاء الغيب [٢] ... وحث الإمام مالك على هذا المنهج فقال " ليس العلم بكثرة الرواية إنما هو نور يضعه الله في القلب حيث شاء " [٣] وسمع ابن حنبل أحمد بن الحواري الصوفي يقول على لسان شيخه " إذا طبعت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطوائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً . فقام الإمام وجلس ثلاثاً ثم قال لابن أبي الحواري . صدقت يا أحمد وصدق شيخك ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب من هذه ــ وذلك حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم " [٤] فالفقهاء أصحاب النظر والاستدلال لم ينكروا المنهج الذوقي ولهم في ذلك باع معروف . وخاصة أن الفقه عندهم كان موافقاً لما عليه الصوفية يقول أبو حنيفة " الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها " [٥]

فالفقهاء والصوفية إذا تقيدوا بالقيود الشرعية من الكتاب والسنة لم يفترق المنهجان . والخلاف إنما يأتي من الغلاة في الفريقين .

وبالرغم من كون الجمع بين المنهجين يحل مشكلة الصراع بين الفقهاء والصوفية وهو ما نريده إلا أن عليه إشكالات وهي التي أوردناها في المبحث الثالث ومنها أننا بالجمع نقابل بين المحدود واللا محدود والمعلوم واللا معلوم والمعقول واللا معقول .

---

(١) انظر تاريخ بغداد ج ٢٤٨/٤ .
(٢) التصوف الإسلامي د/ عبد الله الشاذلي ج ٥٤/٢ .
(٣) إحياء علوم الدين ج ٢٧/١ والطبقات الكبرى ١٢٨/١ .
(٤) انظر التصوف الإسلامي د/ عبد الله الشاذلي ج ٥٥/٢ وبغية المستفيد شرح منية المريد ٩ لمحمد العربي بن محمد الغمري دار الكتب العلمية بيروت د/ت .
(٥) إشارات المرام من عبارات الإمام للبياض الحنفي ٢٨ / ٢٩ ط الحلبي .

يقول الدكتور مدكور " ليس من اليسير أن نخضع منطق الوجدان للمنطق العقلي ولغة القلوب شيء ولغة العقول شيء آخر " [١] كما أنه مبني على قبول الصوفية منهج الفقهاء والعكس . يقول د/ النشار " إن الصوفية لم يقبلوا الطريق الأول ، وأنكروا كل الطرق التي تقوم على النظر كما أن أهل الفقه أنكروا طريق الصوفية " [٢] ويؤكد أن الصوفية استغنوا بالذوق والعرفان ورفضوا العقل وأداته وآلته . أي المنطق سواء أكان منطقاً أرسطاليسياً أو منطقاً إسلامياً [٣] ومما يؤيد هذا الإنكار من الصوفية ما نجده عند الإمام الغزالي ت ٥٠٥هـ أثناء عرضه لمناهج الطالبين للحق مبيناً أنهم أربع : المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية . وأنه رفض الثلاثة الأولى لأنها في نظره لا تؤدي إلى اليقين . واقتصر على منهج الصوفية الذي يؤدي إليه يقول بعد كلام طويل " وانكشف لي أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها وعلمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون الطريق إلى الله تعالى خاصة . وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ـــ بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير لم يجدوا إليه سبيلاً . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء النبوة على وجه الأرض نوراً يستضاء به " [٤] .

ويقول : " إن علم التصوف هو غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر

---

(١) انظر في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق د/ إبراهيم بيومي مدكور ج ٢/٧٦ ط دار المعارف القاهرة ١٩٧٦م .

(٢) انظر مناهج البحث عند مفكري المسلمين د/ النشار ٣٠٠ .

(٣) السابق ٣٠٢ .

(٤) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ٩٥ ـ ١٤٥ تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

الصديقين [١] . ويقول " علم التصوف " المكاشفة " غاية العلوم " [٢]

وإخراج الإمام الغزالي لقطاع عريض من أصناف الطالبين للحق هم الفقهاء والمحدثون والمفسرون وغيرهم يدل على أن حصره للحق في الأصناف الأربعة غير دقيق ــ الأمر الذي جعل د/ النشار يقول : إن تقسيمات طاش كبرى زادة في المفتاح وصديق حسن خان في أبجد العلوم أدق من تقسيمات الغزالي [٣]

وانتقده كذلك الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه " في علم الكلام " وتساءل : هل الراسخون في العلم هم الصوفية دون الفقهاء والمفسرين والمتكلمين ؟ وإذا كان الشر قد ثار منذ فشت صناعة الكلام ألا يفتح هذا الاستثناء المجال للصوفية أن يكون لهم وحدهم السبيل إلى الشطحيات والدعاوى ؟ ونظريات التصوف الفلسفي كالفيض والإشراق وأصولها الأجنبية واضحة وشرورها على العقيدة الإسلامية ليست بأهون من شرور المتكلمين [٤] .

والغزالي وإن رجح منهج الصوفية واقتصر عليه في المنقذ فهنا لا يعني أنه ينكر النظر والاستدلال كيف وهو يقول " إن علم المعاملة طريق إليه " [٥] كيف وهو يحث الجميع على ضرورة تعمد كسب العلوم الإنسانية بالحس والعقل معاً ولا يصرفه العلم الرباني المباغت الذي يأتي وراء طور الحس والعقل عن الأخذ بهما أي على السالك أن يرتشف عن جميع الروافد

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٤/١ .
(٢) السابق ج ١٩/١ .
(٣) انظر مناهج البحث عند مفكري المسلمين د/ النشار ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٤) انظر في علم الكلام د/ أحمد محمود صبحي ج ٦٠٤/٢ ـ ٦٠٦ دار النهضة العربية بيروت لبنان ط الثالثة .
(٥) انظر إحياء علوم الدين ج ٤/١ .

العلمية لأنه " ما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إليه سبحانه والتي هي أسمى الغايات العلمية " [١] وسيأتي لذلك مزيد بيان في القسم الثاني إن الصوفية إذا أرادوا الوصول إلى التصفية أو المنهج الذوقي فلابد من سلوك طريق الشرع ولا طريق غيره وإن ادعوا الوصول فليس عن طريق الرحمان وإنما عن طريق الشيطان .. يقول أحد الباحثين " إن منهج الكشف يستند على منهج النظر والاستدلال الذي يعد مقدمة طبيعية لنورانية القلب فلابد كما يقول الإمام الغزالي من تعلم علم اليقين أي أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه " [٢]

فالصوفية لا يمكن أن يستغنوا بالذوق عن النظر والاستدلال ومثل الذي يدعي الاستغناء به كمن يريد الوصول إلى الأدوار العليا دون السير على الدرجات التي توصل إليها . فهل يعقل ذلك ؟ يقول الدكتور عبد الله الشاذلي " والشريعة بداية والحقيقة ثمرة وغاية ولن يصل أحد منا إلى ما يشتهي إلا بعد ما يجتاز الباب الأصلي وبعد ما يدخل من الردهة الضرورية لها وحتى إذا ما وصل السالك فإن الشريعة لا تفارقه بحال من الأحوال مهما أوتي من الحقائق وكوشف بالأسرار [٣] ويقول أيضاً " وجميع الصوفية نبهوا على ضرورة التلازم بين الظاهر والباطن أو بين الشريعة والحقيقة سواء في مرحلة السلوك الأولى حيث أوجبوا إصلاح الظاهر بالعلم مع إصلاح الباطن بالورع . وأعربوا عن سياحة الأول بالعلم والشرع والخلق والثاني بالحال والوجد والكشف مع التلازم بين الجانبين على وجه الدوام [٤]

---

(١) السابق ج ١ ، ١٨ ، ج ٣ ، ٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ج ٤/ ١٠٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د. عبد الله الشاذلي ج ١٦/٢ .

(٢) انظر منهج اليقين بين السلف والصوفية د/ عبد المقصود عبد الغني ٦١ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي ج٢٠٥/٢ .

(٤) السابق ج ٢٠٦/٢ .

٢ ــ الجمع العلمي : ونعني به الجمع بين العلمين والوفاق بين الفريقين علم الفقه وعلم التصوف شريطة إقامة ذلك على الميزان الدقيق وهو الكتاب والسنة دون إفراط أو تفريط وهو ما يعني الاقتصار على المعتدلين دون الغلاة . فالغلو والغلاة أس الفساد في العباد والبلاد . يقول الدكتور مدكور " فالتصوف عدّ في مكان الصراع بين الفقهاء وغلاة الصوفية وليس بين الفقهاء والمعتدلين من رجال التصوف " [١] فالمعتدلون لا يقع منهم خلاف ولا يحدث منهم صراع وإنما يأتي ذلك دائماً من المغالين . فالفقيه يقيم علمه على الكتاب والسنة والإجماع ، وكذلك الصوفي المعتدل يقيمه على الكتاب والسنة والإجماع أيضاً ومحل ذلك اعتبار إسلامية التصوف وسنية التصوف .

أما التصوف الفلسفي أو الذي تأثر بمؤثرات أجنبية فارسية أو هندية أو خلافهما فلا اعتبار له . يقول ابن خلدون عن إسلامية التصوف " التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة الإسلامية [٢] .

ويقول الشعراني " طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء والمرسلين وأنها لا تكون مذمومة إلا إذا خالفت صريح القرآن والسنة والإجماع لا غير . وأما إذا لم تخالفه . فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم فمن شاء فليعمل به ومن شاء تركه [٣] والقول بإسلامية التصوف يكاد يجمع عليه جمهور العلماء وهو اتجاه معظم الباحثين المعاصرين ذهب إليه طه عبد الباقي سرور في معظم كتبه [٤]

---

(١) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق د/ مدكور ج ١٢٨/٢ ، ١٢٩ .
(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ٤٣٢ .
(٣) انظر مقدمة كتاب الطبقات الكبرى للشعراني ج ٤١/١ .
(٤) انظر محي الدين بن عربي ١٢٠ وأعلام التصوف الإسلامي ج ١١/٢ ـ ٣٢ .

والدكتور محمد مصطفى حلمي [١] والشيخ عبد الباري الندوي والدكتور عبد الله الشاذلي [٢] وعرفان عبد الحميد [٣] وإسعاد عبد الهادي [٤] وغيرهم كثير .

والعبارات هنا مختلفة لفظاً ومتفقة معنى فتارة يقول العلماء إنه لا خلاف بين الفقهاء والصوفية أو الفقه والتصوف أو بين الظاهر والباطن أو بين الشريعة والحقيقة طالما اتفق المصدر واتحد المتبع الجامع لذلك . فالفقه والتصوف ينبثقان من الإسلام وينبعان من الإيمان ، فهما وجهان لعملة واحدة وشقيقان لا ينفك أحدهما عن الآخر . فعلى الفقيه أن يكون متصوفاً وعلى المتصوف أن يكون فقيهاً . وبيان ذلك كما يقول الشيخ أحمد زروق " فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه ، ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه . ولا هما إلا بإيمان . إذ لا يصح واحد منهما دونه فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد ولا وجود لها إلا فيها كما لا حياة لهما إلا بها فافهم " [٥]

ويقول في العلاقة بينهما مبيناً أن الاشتراك في الأصل يقتضي الاشتراك في الحكم " والفقه شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص . إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله وقد صح أن العمل شرط كمال العلم فيهما وفي غيرهما ولا شرط صحة فيه . إذ لا ينتفي بانتفائه ، بل قد يكون دونه .

---

(١) انظر الحياة الروحية في الإسلام ٩٧ .
(٢) التصوف الإسلامي د/ عبد الله الشاذلي ج ١ / ص ج ، ٣٣٨ .
(٣) نشأة الفلسفة وتطورها د/ عرفان عبد الحميد فتاح ٦ ، ٧ .
(٤) مقدمة كشف المحجوب للهجويري د/ إسعاد عبد الهادي ج ٢٧/١ .
(٥) انظر قواعد التصوف الشيخ أحمد زروق ٢٣ ، ٢٤ وإيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله السكندري للشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة ٢٥ تحقيق محمد عزت المكتبة التوفيقية القاهرة د/ت .

لأن العلم إمام العمل فهو ساق في وجوده حكما وحكمة . بل لو شرط الاتصال لبطل أخذه كما أنه لو شرط في الأمر والنهي العمل للزم ارتفاعهما بفساد الزمان وذلك غير سائغ شرعاً ولا محمود في الجملة ، بل قد أثبت الله العلم لمن يخشاه وما نفاه عمن لم يخشه " (١)

وعلى الفقيه أن يكون زاهداً ورعاً نفياً تقياً خاشعاً خائفاً في أقواله وأحكامه وهذا هو التصوف وعلى الصوفي أن يكون عالماً بالشرع عارفاً بالأحكام بصيراً بالحلال والحرام حتى يكون في مأمن من الزيغ وأمان من الإنحراف والضلال وهذا هو الفقيه (٢) فالفقيه العارف لا يختلف مع الصوفي الكامل . يقول الشيخ الشعراني " اعلم يا أخي أن غالب الإنكار الذي يقع بين الفقهاء والصوفية إنما هو بين القاصر من كل منهما وبين مثله . وإلا فالكامل من الفقهاء يسلم للعارفين والعارفون يسلمون للعلماء الفقهاء (٣) ويقول أيضاً " ينبغي للفقيه مراعاة علم الباطن وللفقير أي الصوفي مراعاة علم الظاهر . والناظر بفرد عين أعود من فقيه وفقير . والكامل من ينظر بالعينيين (٤) ويعقب على ذلك قائلاً ومن أدركته ينظر بالعينيين الشيخ برهان الدين بن أبي شريف وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري والشيخ عبد الحق السنباطي والشيخ شمس الدين السمانودي رحمهم الله أجمعين (٥)

---

(١) انظر قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق ٣٥ .

(٢) راجع في ذلك من أعلام التصوف الإسلامي طه عبد الباقي سرور ج ٢/: ٤٤ ، ٤٥ دار نهضة مصر ـ القاهرة د/ت .

(٣) انظر لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق الشيخ عبد الوهاب الشعراني ٦٨ تقديم د/عبد الحليم محمود عالم الفكر القاهرة ط ٢ وراجع من أعلام التصوف الإسلامي طه عبد الباقي سرور ج ٢/ ٤٠ ـ ٤٧ دار نهضة مصر القاهرة .

(٤) لطائف المنن ٦٨ .

(٥) السابق ٦٨ .

ويدخل بنا الشيخ أحمد الرفاعي ت ٥٧٨هـ إلى جوانيات الظاهر والباطن لدي الفقهاء والصوفية ويبين أن الظاهر ظرف الباطن والباطن لب الظاهر والدين جامع لهما معاً وهو فهم عقلي في غاية الدقة لمن يتأمله بقليل من إنعام النظر يقول " هذا الدين الجامع باطنه لب ظاهره . وظاهره ظرف باطنه . لولا الظاهر لما بطن . لولا الظاهر لما كان ولما صح . القلب لا يقوم بلا جسد بل لولا الجسد لفسد . والقلب نور الجسد . هذا العلم الذي سماه بعضهم بعلم الباطن . هو إصلاح القلب . فالأول عمل بالأركان وتصديق بالجنان إذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهارة طويته وقتلت وسرقت وزنيت ... فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك ؟ وإذا عبدت الله وتعففت وصمت وتصدقت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفساد فما الفائدة من عملك ؟ فإذا تعين لك أن الباطن لب الظاهر . والظاهر ظرف الباطن ولا فرق بينهما ولا غنى لكلاهما عن الآخر . فقل نحن من أهل الظاهر وكأنك قلت ومن أهل الباطن قل نحن من أهل ظاهر الشرع . وقد ذكرت باطن الحقيقة أيّ حالة باطنة للقوم لم يأمر ظاهر الشرع بعملها . وأي حالة ظاهرة لم يأمر ظاهر الشرع بإصلاح الباطن لها . لا تعملوا بالفرق والتفريق بين الظاهر والباطن فإن ذلك زيغ وبدعة [١]

فالظاهر والباطن متلازمان كتلازم الروح للجسد . وكما أن الجسد لا يستغني عن الروح والروح لا يستغنى عن الجسد [٢] فكذلك الظاهر والباطن ثم تأمل هذا الخطاب العقلي المقنع من الشيخ الرفاعي في قوله أي حاله باطنة للصوفية لم يأمر ظاهر الشرع بعملها وأي حالة ظاهرة لم يأمر ظاهر الشرع بإصلاح الباطن لها ؟

---

(١) انظر البرهان المؤيد للشيخ أحمد الرفاعي ٦١ ، ٦٢ تحقيق صفوة السقا نشر وتوزيع مكتبة ربيع حلب ط ٢ ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م .

(٢) انظر حقائق عن التصوف الشيخ عبد القادر عيسى النسخة الإلكترونية شبكة الانترنت ٤٥٠

والجواب العقلي الذي لا مناص منه لا شيء . وإذا كان الأمر كذلك فلم التفريق بين الظاهر والباطن إن الذي يفرق بينهما يقع في الزيغ والابتداع وهو على حد تعبير الشعراني أعور بأي عين شاء [١] وإذا لم يكن ثمة فرق فعلي المسلم أن يعظم شأن الفقهاء والصوفية .

لأن طريقهما واحد وغايتهما واحدة . يقول الشيخ الرفاعي ت ٥٧٨هـ " يا سادة عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيمكم شأن الأولياء والعرفاء فإن الطريق واحد وهؤلاء ورّاث ظاهر الشريعة وحملة أحكامها الذين يعلمونها الناس . وبها يصل الواصلون إلى الله [٢]

ولو رجعنا بالتاريخ قليلاً إلى الوراء لوجدنا أبا نصر السّراج الطوسي ٣٧٨هـ في كتابه اللمع يركز على التعريف بحقيقة منهج الصوفية أولاً . ويؤكد تطابقه مع الحقائق الفقهية ثانياً . ويحذر وينبه إلى الأغلاط والانحرافات التي أدخلها الأدعياء في هذا الطريق منذ نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع [٣] ثالثاً ويذهب الطوسي ت ٣٧٨هـ إلى أن طبقات الصوفية متفقون مع الفقهاء وأصحاب الحديث في علومهم فيقول " إن طبقات الصوفية اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث في معتقداتهم وقبلوا علومهم ولم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم إذا كان ذلك مجانباً للبدع وإتباع الهوى ومنوطاً بالأسوة والاقتداء وشاركوهم بالقبول والموافقة في جميع علومهم [٤] ويرد على الذين أنكروا علم الباطن من علماء الظاهر فيقول " إن علم الشريعة علم واحد وهو اسم يجمع معنيين : الرواية

---

(١) لطائف المنن للشعراني ٦٨ .
(٢) البرهان المويد للشيخ أحمد الرفاعي ٦٠ .
(٣) انظر العلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ولد الأمين ولد الطلبة ٢ بحث على شبكة الانترنت w.w.w Islamio . sufism . co
(٤) انظر اللمع لأبي نصر السراج الطوسي ٢٨ تحقيق د/ عبد الحليم محمود وزميله .

والدراية ، فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال : الظاهرة والباطنة ولا يجوز أن يجرّد القول في العلم : أنه ظاهر أو باطن . لأن العلم متى كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجري ويظهر على اللسان فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر . غير أن نقول : إن العلم ظاهر وباطن وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة . مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد .

وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال مثل التصديق والإيمان واليقين .. ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان .. فإذا قلنا : علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة وهي القلب كما إذا قلنا علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء ..[١] ثم ينتهي من ذلك قائلاً بالتلازم بين العلمين " فلا يستغنى الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر " [٢]

ويقول " إن الصوفية وتحققون بالموافقة لكتاب الله وظاهراً وباطناً والمتابعة لرسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً والعمل بها بظواهرهم وبواطنهم [٣]

فالصوفية في باطنهم مقيدون بظاهر الشريعة ولا يستغنون عنها بحال من الأحوال كما يرى أن الصوفية إذا اختلفوا مع الفقهاء فمذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم احتياطاً للدين وتعظيماً لما أمر الله به عباده .. وليس من مذهبهم النزول على الرخص وطلب التأويلات [٤] .

---

(١) اللمع الطوسي ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) السابق ٤٤ .
(٣) السابق ١٤٧ .
(٤) السابق ٢٨ .

ويلاحظ علي الطوسي ت ٣٧٨هـ أنه سجل في كتابه اللمع في هذه الفترة التاريخية المتقدمة نهاية القرن الثالث وأول القرن الرابع الهجري . إنكار طائفة من علماء الظاهر يعني الفقهاء . علم الباطن ــ مما يوحي باشتهاره في هذه الفترة الأمر الذي دعاه إلى الرد عليه . وأن الصوفية في باطنهم مقيدون بالشرع وأحكامه .

والأمر الآخر أن الطوسي لم يستطع أن يخفي تحامله أحياناً على الفقهاء وميله إلى جماعة الصوفية [١] فالانصاف عزيز ونادر وقل من يتحرر إلا من الكتاب والسنة . فإذا تركنا الطوسي ت ٣٧٨هـ إلى الشيخ الكلاباذي ت ٣٨٠هـ وهو معاصر له وكتابه التعرف لمذهب أهل التصوف كما يقول أحد الباحثين متكامل مع اللمع ومتزامناً مع ظهوره . فكلاهما يعد في طليعة التأليف التي جاءت بعد العهد الشفوي لكبار المتصوفة في القرنين الثاني والثالث الهجري [٢]

ويرى الكلاباذي ت ٣٨٠هـ أن البداية الصحيحة والسليمة لتطهير القلب لدي الصوفية هو العلم بالأحكام الشرعية والعمل بها وهو ما يعني احتياج الصوفي إلى الفقه وعدم استغنائه عنه فيقول " اعلم أن علوم الصوفية ــ علوم الأحوال ــ والأحوال مواريث الأعمال . ولا يرث الأحوال إلا من صحيح الأعمال . وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها . وهي علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه من الصلاة والصوم وسائر الفرائض إلى علم المعاملات من النكاح والطلاق .. وسائر ما أوجب الله تعالى عليه وندب إليه [٣] .

---

(١) السابق ٣٣ ، ٣٧ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ٣٩٣ وغيرها .
(٢) انظر العلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ٢ بحث متقدم . شبكة الانترنت .
(٣) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر الكلاباذي ٨٦ تحقيق د/ عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور .

ويتفق مع الطوسي فيما لو اختلف الفريقان " فإن الصوفية يأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلفوا فيه مع الفقهاء .. وهم مع إجماع الفريقين فيما أمكن . ويرون اختلاف الفقهاء صواباً . ولا يعترض الواحد منهم على الآخر . وكل مجتهد عندهم مصيب [١]

وبالرغم من صعوبة الحكم على الصوفية حكماً علمياً في أحوالهم ومقاماتهم لأنها نابعة من الذوق والإحساس الحدسي وبالتالي فمن لم يذق ذلك يظل بعيداً عن حقائقه مهما قرأ عنها إلا أنه يربط ذلك كله بالعلم الشرعي ــ علم الفقهاء ــ الذي هو الأساس لكل ممارسة [٢] فالعبد لا ينال علم المشاهدات والمكاشفات إلا بعد اتقانه للعلوم التي تسبقها وهي الأحكام الشرعية وعلمي بالحكمة والمعرفة [٣]

ولم يغفل الكلاباذي الحديث عن الظاهر والباطن في كتابه التعرف . فقد جعل الإيمان العمل بالفرائض في أشكاله المختلفة ــ الظاهر ــ والتصديق عمل القلب ــ الباطن .

فالإيمان كما يقول : في الظاهر والباطن والباطن شيء واحد وهو القلب . والظاهر أشياء مختلفة [٤] .

والكلاباذي في النهاية فقيه حنفي وترجمته في كتب التاريخ والطبقات والإجماع على أنه كان فقيهاً حنفياً صوفياً [٥] ففقهه أسبق من تصوفه ولا يكون صوفياً إلا بعد كونه فقيهاً .

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر الكلاباذي ٨٤ .
(٢) العلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ٣ م . س .
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ٨٦ ، ٨٧ .
(٤) السابق ٨٠ .
(٥) السابق ١٦٢ .

وفي القرن السادس الهجري نجد الإمام الغزالي ٥٠٥هـ وهو صوفي كبير وفقيه شافعي مجتهد يؤمن بالعلم الباطني والإلهام والكشف كما تقدم ويقدم العلوم الإلهامية على العلوم التعليمية [١] وبالرغم من ذلك لم يستطع أن يتخلى عن فقهه أبداً وإن انتقده في ذلك الإمام ابن الجوزي [٢] كما تقدم . ويكفي أن نعلم أنه جعل جزءاً كبيراً من كتابه إحياء علوم الدين في العبادات والمعاملات [٣] ثم خصص الجزء الثالث للحديث عن الزهد والتصوف وإصلاح القلوب . والمتأمل لهذا الجزء الذي يعد من أهم النصوص في هذا الموضوع في تاريخ الفكر والثقافة الإسلاميين يجد أنه يحذر ويجزم في آن قائلاً إن رياضة النفس وتهذيبها إذا لم تتقدم بحقائق العلوم الشرعية نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن إليها النفس مدة طويلة .. فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقى في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أنفق هذا العلم من قبل لا تفتح له وجه إلتباس ذلك الخيال في الحال . فالاشتغال بطريق التعليم أوثق وأقرب إلى الغرض .. ولو ترك الإنسان يعلم الفقه وزعم أنه يصير فقيها بالوحي والإلهام فقد ظلم نفسه وضيّع عمره .. بل لابد من تحصيل ما حصله العلماء ثم لا بأس بعد ذلك بالمجاهدة [٤]

ويقول في أهمية العلوم الشرعية للسالك " إن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ١٩/٣ .
(٢) انظر تلبيس إبليس ج ٩٦٤/٣ ، ٩٦٥ .
(٣) قسم الإمام الغزالي كتابه الإحياء إلى أربعة أقسام العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات والقسم الأول والثاني من الأحكام الشرعية التي لا يستغني عنها المسلم .
(٤) انظر احياء علوم الدين باختصار ج ٢٠/٣ وراجع كذلك العلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ٣٠٤ م . س .

الدواء . فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة [١] ويقول " وعلم المعاملة طريق إليه " [٢] أي إلى علم المكاشفة ثم إن علم المعاملة هذا ينقسم إلى علم ظاهر أعني العلم بأعمال الجوارح وإلى علم باطن أعني العلم بأعمال القلوب . والجاري على أعمال الجوارح إما عادة وإما عبادة والوارد على القلوب .. إلى محمود ومذموم فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عبادة وعادة والمتعلق بأحوال القلب إلى محمود ومذموم فكان المجموع أربعة أقسام . ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام [٣] فالباطن لابد فيه من علم الظاهر ولا يستغنى عنه والغزالي في ذلك موافق لما ذكره الطوسي في كتابه اللمع .

ويصل الأمر بالإمام الغزالي إلى تكفير من قال أن الظاهر مخالف للباطن وأن الحقيقة خلاف الشريعة فيقول " ... فإن قلت هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فبيّن لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن ؟ فإنّ الباطن إنْ كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال للشرع وهو قول من قال إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفرٌ لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن ... فمن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان " [٤]

فالإمام الغزالي وإن رجح طريق الصوفية وفضله على غيره [٥] لم يتخلص من الفقه أبداً كبداية ومقدمة للطريق الأول " إن التصوف مرحلة

---

(١) إحياء علوم الدين ج ١٧/٣ .
(٢) السابق ج ٤/١ .
(٣) السابق ج ٤/١ .
(٤) إحياء علوم الدين ج ١٠٠/١ والتصوف بين الإفراط والتفريط د/ عمر كامل ٢٦١ .
(٥) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ٩٥ ـ ١٤٥ تحقيق د/ عبد الحليم محمود . ٤٥٦

لاحقة لإكمال طريق التعلم الشرعي الفقهي تحديداً وأي تجربة لا تسلك السبيل الأول إلى السبيل الثاني يكون مصدرها الذيغ والفتح الشيطاني لا الرباني النوراني [١] .

ولم يستطع أحدُ من الذين ترجموا للإمام الغزالي أنه يقولوا إنه رجل صوفي فقط . بل جمعوا له بين الفقه والتصوف . فقد وصف بأنه الشافعي الثاني "

وقال فيه ابن النجار إمام الفقهاء على الإطلاق ورباني هذه الأمة باتفاق ومجتهد زمانه وعين وقته وأوانه [٢] ولم يجرؤ أحدُ على القول بأنه رفض البسيط والوسيط والوجيز وردع عنها إلى التصوف مطلقاً وإن كان ذلك لا يمنع غلبة التصوف . فالغلبة لا تعني الرفض أبداً فالغزالي حاول أن يفقه التصوف ويصوف الفقه [٣] إن صح التعبير على معنى أنهما لا يختلفان فهما وجهان لعملة واحدة .

وكان من المعاصرين للإمام الغزالي الشيخ أحمد الرفاعي ت ٥٧٨هـ الذي قرر نهاية العلمين الفقه والتصوف بأنها واحدة بلا خلاف . فالنتيجة واحدة والخلاف لفظي يقول " إن نهاية طريق الصوفية نهاية طريق الفقهاء ونهاية طريق الفقهاء نهاية طريق الصوفية . والعقبات التي ابتلى بها الفقهاء في الطلب هي العقبات التي ابتلى بها الصوفية في السلوك . والطريقة هي الشريعة والشريعة هي الطريقة والفرق بينهما لفظي والمادة والمعنى والنتيجة واحدة وما أرى الصوفي إذا أنكر حال الفقيه إلا ممكوراً

---

(١) العلاقة بين الفقه والتصوف ٤ .

(٢) انظر طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ج ١٩٢/٦ ـ ٢١٦ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحي . دار إحياء الكتب العربية الحلبي القاهرة د/ت والغزالي بين مادحيه وقادحيه د/ القرضاوي ١٦ مؤسسة الرسالة .

(٣) الغزالي بين مادحيه وقادحيه د/ القرضاوي ٦٨ .

ولا الفقيه إذا أنكر حال الصوفي إلا مبعوداً . إلا إذا كان الفقيه آمراً بلسانه لا بلسان الشرع والصوفي سالكا بنفسه لا بسلوك الشرع فلا جناح عليهما . والشرط هنا الصوفي الكامل والفقيه العارف كيف يعمل الصوفي الكامل إذا قال له الفقيه العارف أنت تقول لتلاميذك لا تصلوا . لا تصوموا . لا تقفوا عند حدود الله ؟ بالله عليكم هل يقدر أن ينطق إلا بحاشا لله . كيف يعمل الفقيه العارف إذا قال له الصوفي الكامل أنت تقول لتلاميذك لا تكثروا ذكر الله . لا تحاربوا النفس بالمجاهدات .. ؟ بالله عليكم هل يقدر أن ينطق إلا بحاشا لله . فحينئذٍ اتحدت المادة والمعنى والنتيجة واختلفت اللفظة لا غير . فمن حجبه من الصوفية حجاب اللفظة عن أخذ ثمرة المادة والمعنى والنتيجة فهو جاهل . ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ومن حجبه من الفقهاء حجاب اللفظة عن أخذ ثمرة ما ذكرناه فهو محروم [١] .

ثم يوجه الشيخ الرفاعي خطاباً لإخوانه من الصوفية والفقهاء على معنى أنهما قد جمعا بين الشأنين [٢] على صفحات كتابه البرهان وذلك للتأكيد على اتفاقهما وعدم اختلافهما أو على أنه خلاف لفظي لا أثر له . كما يرى وشدد النكير على من يقول من الصوفية نحن أهل الباطن وأنتم أهل الظاهر [٣] ويقصد بذلك الفقهاء ويدعو أحبابه إلى التمسك بالشرع ظاهراً وباطناً فإن من كان مع الشرع ظاهراً وباطناً كان الله حظه ونصيبه ومن كان الله حظه ونصيبه كان من أهل مقعد صدق عند مليك مقتدر [٤]

ويطول بنا البحث لو تتبعنا تاريخ هذه المسألة قرناً قرناً وإنما الذي نقوله أن كل كتب طبقات الصوفية تكاد تجمع بين العلمين الفقه والتصوف

---

(١) البرهان المؤيد للشيخ أحمد الرفاعي ١٠١ .
(٢) السابق ١٠٢ .
(٣) السابق ٦١ .
(٤) البرهان المؤيد ٥٤ .

وتوفق بين الفريقين الفقهاء والصوفية حتى عصر الشيخ الشعراني في القرن العاشر الهجري وما بعده .

فإذا انتقلنا إلى الفقهاء الذين اشتهروا بالفقه أو الذين كانت شهرتهم بالفقه أكثر من غيره وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة وجدنا أنهم أصحاب أقوال وأرباب أحوال . وأن الفقه عندهم لم يكن مقصوراً على معناه عند المتأخرين وإنما كان الفقه كما يقول أبو حنيفة " الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها " [١] وهذا التعريف يعني الأحكام الدينية كاملة أو قل الدين كله بما فيه من عقيدة وأخلاق وعبادات ومعاملات ولكن المتأخرين طوروه وقصروه على الجانب العملي فقط . فزادوا قيداً على تعريف أبي حنيفة هو " عملاً " وأصبح الفقه مقصوراً على الأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية . وإذا كان هذا معنى الفقه عند أبي حنيفة فإن الحسن البصري رحمه الله يجعله مقصوراً على المعنى السلوكي الخلقي فقال لما قيل له مرة إن الفقهاء يقولون كذا وكذا فقال وهل رأيتم فقيهاً قط بأعينكم ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بذنبه المداوم على عبادة ربه " [٢] ويلفت الإمام الشافعي رحمه الله النظر إلى أن الفقيه هو الفقيه بالفعل لا بالنطق والمقال فالفقه بالنطق والمقال كثير ولكنه بالفعل قليل .

إن الفقيه هو الفقيه بفعله ... ليس الفقيه بنطقه ومقاله [٣]

ويجعل الإمام الغزالي ٥٠٥هـ الفقهاء الأربعة في عداد الصوفية ويضيف إليهم سفيان الثوري قائلاً " فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة

---

(١) انظر إشارات المرام من عبارات الإمام كمال الدين البياضي الحنفي ٢٨ ، ٢٩ ط الحلبي القاهرة .

(٢) انظر قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ٨٠/١ والطبقات الكبرى للشعراني ج ٨٦/١

(٣) انظر ديوان الإمام الشافعي ١٢٤ تحقيق د/ إميل بديع يعقوب دار الكتاب العربي لبنان ط ١٤٢٤/٨هـ - ٢٠٠٤م .

الخلق أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب خمسة هم : الشافعي ومالك وأحمد وأبو حنيفة وسفيان الثوري .. وكل واحد منهم كان عابداً وزاهداً وعالماً بعلوم الآخرة وفقيهاً في مصالح الخلق في الدنيا مريداً بفقهه وجه الله تعالى [١] .

ويقول عن الإمام أحمد وسفيان الثوري " فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء ... وسفيان أقل أتباعاً من أحمد . ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر[٢] والفقهاء الأوائل مع جلالة قدرهم ومقدارهم يعرفون للصوفية أقدارهم ويأخذون عنهم ويتأثرون بأقوالهم وينتفعون بدقائق علومهم .. وهذا هو السر في أن أبا حنيفة كان يثنى على داود ويزوده في خلوته [٣]

والشافعي كان يجلس بين يدي شيبان الراعي ويسأله كيف يفعل في كذا وكذا . فيقال له مثلك يسأل هذا البدوى فيقول : إن هذا وفق لما أغفلناه [٤]

وكان أحمد بن حنبل ويحيي بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما [٥] ولما سئل أحمد عن سر تقربه من معروف الكرخي وهو الإمام الفقيه قال عنده رأس الأمر تقوى الله عز وجل [٦] وورد عنه أنه كان يسأل أبا حمزة الصوفي البغدادي إذا عرضت عليه دقائق المسائل فيقول له ما تقول في هذا يا صوفي [٧] .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٢٤/١ .
(٢) السابق ج ٢٨/١ .
(٣) انظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة طاش كبرى زادة ج ٢٥٠/٢ والتصوف الإسلامي د/ عبد الله الشاذلي ج ٢٨٩/٢ .
(٤) انظر قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١٨٥/١ وإحياء علوم الدين ج ٢١/١ .
(٥) انظر قوت القلوب ج ١٨٥/١ وإحياء علوم الدين ج ٢١/١ .
(٦) قوت القلوب ج ١٨٠/١ .
(٧) انظر الرسالة القشيرية للإمام القشيري ج ١٥٠/١ ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية ج ٤٨٦/٢ ط دار الحديث القاهرة والطبقات الكبرى للشعراني ج ٥٥/١ .

وحكى الشيخ قطب الدين بن أيمن أن الإمام أحمد رحمه الله كان يحث ولده على الاجتماع بصوفية زمانه ويقول إنهم بلغوا في الإخلاص مقاماً لم نبلغه [١]

وكان أبو العباس بن شريح يحضر للجنيد ويستمع إليه ويقول " والله ما أدري ما يقول ولكن لكلامه صولة ليست بصولة مبطل " [٢]

إن من يتأمل هذه النصوص يرى حسن العلاقة وجمال المودة وأدب العشرة فلا خلاف ولا اختلاف ، بل وئام ووفاق ولذلك يقول أحد الباحثين في هذه العلاقة إنها تقدم صوراً لا تقبل الشك ولا التأويل تدل على احترام الزهاد والصوفية للفقهاء من رجال الظاهر وأنهم تلقوا عنهم أو صاحبوهم وأثنوا عليهم ... ولم يكن احترام الصوفية للفقهاء من جانب واحد لحاجة رجال الطريق إلى علوم الآخرين . وإنما كانت العلاقة القائمة على التقدير والاحترام متبادلة ولم تخل من انتفاع الفقهاء بعلوم ووثائق الصوفية [٣]

ثم يذكر كثيراً من النصوص التي تدل على هذه العلاقة وينتهي من ذلك قائلا : "وبهذا كله ترى الأكثرية الصالحة من الجانبين " الصوفية والفقهاء " تعانقوا وداً وتزاوروا منفعة وتعلماً [٤]

ومن الطبيعي أن يكون ذلك التوافق بين الفريقين لمن تمسك بالكتاب والسنة ، فالصوفي الكامل يقرّ للفقيه العارف والفقيه العارف يقرّ للصوفي الكامل في إطار هذه المنهجية . كما أن ذلك في المراحل الأولى للتصوف بصفائه ونقائه . أما في المراحل المتأخرة والتي كثر فيها الخلاف ووقع فيها البدع فقد اختلف الأمر كما سيأتي ، وقد يقال إن الفقهاء المتقدمين

---

(١) الطبقات للشعراني ج ٤٢/١ .
(٢) السابق ج ٤٢/١ .
(٣) التصوف الإسلامي د/ الشاذلي ج ٢٨٨/٢ ، ٢٨٩ .
(٤) السابق ج ٢٩١/٢ .

يمثلون مرحلة تاريخية مضت وانتهت كان فيها التوافق منهجاً والتقدير والاحترام مبدءاً . أما المتأخرون منهم فكانوا على العكس من ذلك ولذلك عرفوا بالتشدد ووصفوا بالتعصب كما يرى جماعة من الباحثين وضربوا لذلك مثلاً بالمتأخرين من الحنابلة وأبرزهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأبو الفرج بن الجوزي فهل هؤلاء متشددون فعلاً ؟ وما موقفهم كفقهاء من التصوف والصوفية ؟ أما الأول : وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م وكان فقيهاً من كبار فقهاء الحنابلة ولكنه رغم إعجابه بمذهب الإمام أحمد بن حنبل لم يتقيد به مطلقاً بل كان له اجتهاده الخاص في كثير من المسائل الفقهية ، بل عدّه البعض مجتهداً مطلقاً شأنه في ذلك شأن الأئمة المجتهدين [١] وكان هذا الاجتهاد في المسائل التي انفرد بها سبباً في عداء الفقهاء له وتألبهم عليه ولا نطيل الكلام في ذلك فللفقه رجاله وأساطينه وحسبنا أن نبين موقف الباحثين الذين وصفوه بالتشدد في الحكم على التصوف والصوفية وفي مقدمة هؤلاء ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية مادة " تصوف " التي كتبها ماسينيون " من فقهاء أهل السنة الذين اشتدوا في الحط من شأن الصوفية أمثال ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم " [٢] وللأسف وجدنا من تأثر بهذا الاتهام ورددوه [٣] ولم يقف عند هؤلاء الثلاثة ، بل المذهب كله متهم بالتشدد وما

---

(١) انظر ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه وفقهه الشيخ محمد أبو زهرة ٣٥١ ـ ٣٥٣ دار الفكر العربي القاهرة وابن تيمية المجتهد بين أحكام الفقهاء وحاجات المجتمع د/ عمر فروخ كاملاً ط بيروت لبنان ١٩٩١م وابن تيمية الفقيه المعذب / عبد الرحمن الشرقاوي كاملاً دار الموقف العربي القاهرة ١٩٨٣م وابن تيمية محدث د/ عدنان شلش ٥٢ دار النفائس ط ١٤٢٥/١هـ ـ ٢٠٠٥م .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين مادة " تصوف " ج ٢٢١٨/٧ ، ٢٢١٩ .

(٣) تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني د/ عبد الرحمن بدوي ٧٢ ـ ٨١ الناشر وكالة المطبوعات الكويت ط ٢ ١٩٩٨م والتصوف الإسلامي د/ الشاذلي ج ٤٠٧/١ دار الهداية القاهرة وأبو الفرج بن الجوزي د/ أمنة نصير ١٩٣ دار الشروق القاهرة ط ١٤٠٧/١هـ ـ ١٩٨٧م والعلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ٤ بحث على الشبكة موقع التصوف .

علم عن أحمد رحمه الله إلا الاعتدال والاتباع والتمسك بالكتاب والسنة . وهذا الحكم فيه تجنٍ واضح وظلم فاضح لهؤلاء الأعلام ووضع العبارة بهذه الكيفية خطأ كما يقول د/ مصطفى حلمي ويوحي للقارئ بأنهم لينفردوا بمعارضة الصوفية مع أ، لكل واحد منهم نظريته الخاصة في الموضوع والأسباب التي دعته إلى اتخاذ هذا الموقف أو ذاك (١)

وقد سبق ابن تيمية وغيره أعلام نقدوا التصوف والصوفية من الصوفية (٢) ومن غيرهم ولم يكن هؤلاء الأعلام من المبتدعين في الانتقاد وإنما هم كغيرهم وابن تيمية رحمه الله ت ٧٢٨هـ /١٣٢٨م كان عالماً ربانياً اتخذ التصوف المشروع أو السني له منهجاً وسلوكاً . ويعني به التصوف القائم على الكتاب والسنة ولذلك يقول " من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأحوال الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال الدينية على الإيمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد وأصحابه ، فقد أصاب طريق النبوة (٣)

وقد وضع هذا العالم لنفسه معياراً دقيقاً ومنهجاً سديداً بناه على الكتاب والسنة في أقوال الصوفية وآرائهم وكتبهم فما وافق الكتاب والسنة قبله وما خالفهما رفضه . فالصوفية عنده ليسوا في درجة واحدة وإنما منهم المقبول والمردود بحسب قربه وبعده من المنهج المذكور ولذلك نراه يقسم الصوفية إلى ثلاثة أقسام أ ــ صوفية الحقائق ، ب ــ صوفية الأرزاق جـ ــ صوفية الرسم ــ أما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم يعني المتمسكين

---

(١) انظر ابن تيمية والتصوف د/ مصطفى حلمي ٣٧ دار ابن الجوزي ط ٢٠٠٥/١م .
(٢) راجع في ذلك تاريخ التصوف الإسلامي د/ عبد الرحمن بدوي ٨٣ والشيخ أحمد زروق ونقده للصوفية للباحث تحت الطبع .
(٣) انظر مجموع الفتاوى ... علم السلوك لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٣٦٣/١٠ وابن تيمية والتصوف د/ مصطفى حلمي ٥٩ .

بالشريعة المتبعين لخطى الأوائل [١] وأما صوفية الأرزاق الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق وأما صوفية الرسم فهم المقتصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك [٢]

وهذا التقسيم من ابن تيمية في غاية الدقة والإنصاف وليس من المعقول أن يكون صوفية الرسوم كصوفية الحقائق . صوفية الرسوم الذين اهتموا بالمظهر وتركوا الجوهر فكم من صديق في قباء وكم من زنديق في عباء[٣] وذلك لأن الولي الذي تحقق بالشرع يوجد في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكن من أهل البدع والفجور [٤] .

ولذلك اثنى على صوفية الحقائق الذين تقيدوا بالشرع وترسموا خطى الأوائل من أمثال عدي بن مسافر [٥] والجنيد [٦] وابو سليمان الدراراني وأبو عثمان النيسابوري وأبو عمرو بن نجيد [٧] وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي [٨] والشيخ الواسطي ت ٧١١هـ وسماه جنيد وقته [٩] وتأثر بالشيخ عبد القادر الجيلاني أيما تأثر وشرح له كلمات من فتوح الغيب في كتابه جامع الرسائل والمسائل وجعله في الجزء

---

(١) ابن تيمية والتصوف ٦١ .
(٢) انظر مجموع الفتاوى ج ١٩/١١ ، ٢٠ وراجع تاريخ التصوف عبد الرحمن بدوي ٧٤ ، ٧٥ .
(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ٥٧ مطبعة المدني القاهرة ومجموع الفتاوى ج ١٩٤/١١ .
(٤) مجموع الفتاوى ج ١٩٤/١١ .
(٥) انظر مجموع الفتاوى ج ١٠٣/١١ .
(٦) السابق ج ٢٤٥/١١ .
(٧) السابق ج ٢١٠/١١ .
(٨) مجموع الفتاوى ج ٣٦٨/١٠ .
(٩) ابن تيمية والتصوف د/ مصطفى حلمي ٣٤٨ .

العاشر من مجموع الفتاوى [١] كما أيد منهجهم ولكن بشرطه المعروف فقال عن الذوق والعرفان " وأما معرفة الحقيقة فلا يحصل بمجرد العبارة . إلا لمن ذاق ذلك الشيء المعبر عنه وعرفه وخبره ولهذا يسمون أهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلم غيرهم بالخبر والنظر [٢]

يقول د/ مصطفى حلمي في خلاصة رأي ابن تيمية في المنهج قائلاً " إنه لابد للعقل والذوق أن يستند إلى الشرع " [٣]

ومما يدل على دقة شيخ الإسلام في الحكم أنه يفرق بين التراث الصوفي السني والفلسفي . أما التراث السني فيجعله في إطار منهجيته المعروفة فيمدح المؤلف والمؤلف بمدى قربه وبعده من الكتاب والسنة . تأمل قوله " ... كذلك من تصوف في التصوف والزهد جعل الأصل ما روى عن متأخري الزهاد وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين كما فعل صاحب الرسالة القشيرية أبو القاسم القشيري وأبو بكر الكلاباذي وابن خميس الموصلي في مناقب الأبرار وأبو عبد الرحمن السلمي في تاريخ الصوفية لكن أبو عبد الرحمن صنف أيضاً سير السلف من الأولياء والصالحين .. كما صنف في سير الصالحين من الخلف ونحوهم من ذكرهم لأخبار أهل الزهد والأحوال من بعد القرون الثلاثة من عند إبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي ومن بعدهم وإعراضهم عن حال الصحابة والتابعين الذين نطق الكتاب والسنة بمدحهم ... وكان أحسن من هذا أن يفعلوا كما فعل أبو نعيم الأصبهاني في الحلية من ذكره للمتقدمين والمتأخرين وكذلك أبو الفرج بن

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ١٠/٤٥٠ ـ ٥٤٩ .
(٢) انظر مجموع الفتاوى ج ١٠/٦٤٨ وابن تيمية والتصوف د/ مصطفى حلمي ٣٤١ .
(٣) ابن تيمية والتصوف ٣٤٢ .

الجوزي في صفة الصفوة وكذلك أبو القاسم التيمي في سير السلف .." [١] وابن تيمية يريد أن يقول لهؤلاء الصوفية من أهل السنة إن المنهج الصحيح هو السير على طريق الصحابة والتابعين لأنها أفضل الطرق وأقومها ولذلك انتقد الإمام القشيري [٢] في كتابه الاستقامة بقدر ما عنده من بعد عن هذا الطريق ولكنه في غمرة النقد ينصف عقيدته . بالرغم من أنه أشعري معروف . فيقول " وهذا الاعتقاد غالبه مواقف لأصول السلف وأهل السنة والجماعة " [٣] ولما قال القشيري إن شيوخ هذه الطائفة يعني الصوفية بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة [٤] علّق شيخ الإسلام على ذلك بقوله " قلت هذا صحيح " [٥]

ويمتدح كتاب التعرف للكلاباذي ويقارن بينه وبين الرسالة القشيرية فيقول " وهو أجود مما ذكره أبو القاسم القشيري وأصوب وأقرب إلى مذهب سلف الأمة ... [٦] ثم ذكر بعده معمر بن زياد الأصفهاني شيخ الصوفية ت ٤١٨هـ وأبا عبد الرحمن السلمي ت ٤١٢هـ بقوله " هما في ذلك أبعد عن البدعة والهوى [٧] .

كما يقارن بين الإحياء للغزالي والقوت للمكي فيقول " وأبو طالب المكي أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم

---

(١) انر مجموع الفتاوى ج ١٠/٣٦٧ ، ٣٦٨ .
(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٦٧٨ - ٧٢٠ .
(٣) انظر الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨٣ تحقيق د/ محمد رشاد سالم ط دار الفضيلة للنشر والتوزيع ودار ابن حزم الرياض السعودية ط ١/٢٠٠٠م .
(٤) الرسالة القشيرية ج ١/٢٧ ، ٢٨ .
(٥) انظر الاستقامة لابن تيمية ٩٣ .
(٦) السابق ٨٣ .
(٧) السابق ٨٣ .

من أبي حامد ، وكلامه أسد وأجود تحقيقاً وأبعد عن البدعة . مع أن في القوت أحاديث ضعيفة وموضوعة وأشياء كثيرة مردودة ، أما الإحياء فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية ومنه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود والإحياء فيه فوائد كثيرة .. ثم يقول بدقة وإنصاف " وفيه من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة وهو أكثر مما يرويه [١]

أما التصوف الفلسفي فإنه ينتقده بشدة السهروردي المقتول وابن عربي[٢] والحكيم الترمذي [٣] وابن سبعين والنفري والتلمساني [٤] وغيرهم في كتابه بغية المرتاد وإبطال وحدة الوجود ضمن مجموعة الرسائل والمسائل . ولما تكلم الحكيم الترمذي في ختم الولاية حكم عليه بالخطأ والغلط فقال " تكلم طائفة من الصوفية في خاتم الأولياء وعظموا أمره كالحكيم الترمذي وهو من غلطاته " [٥]

وكان انتقاده لابن عربي أشد . يقول " وابن عربي صاحب الفتوحات والفصوص خالف الشرع والعقل مع مخالفته جميع أنبياء الله وأوليائه [٦]

أما مسألة الظاهر والباطن والشريعة والحقيقة فإنه يردها إلى الكتاب والسنة وليس لأحد الخروج عن ذلك مهما كان . ومن فرق بينهما أو قال

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ١٠ / ٥٥١ ، ٥٥٢ .
(٢) السابق ج ٢٢٣/١١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ـ ٢٥١ .
(٣) السابق ج ٣٦٣/١١ ، ٣٦٤ ، ٣٧٣ ـ ٣٧٧ .
(٤) السابق ج ٣٦٨/١١ .
(٥) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ٣٦٣/١١ وراجع في ذلك أيضاً مقارنة بين الغزالي وابن تيمية د/ محمد رشاد سالم ١١٠ دار القلم الكويت ط ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
(٦) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ٢٢٣/١١ ومقارنة بين الغزالي وابن تيمية د/ محمد رشاد سالم ١٠١ ـ ١١٢ .

إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن فقد كفر وهو أشر من اليهود والنصارى فيقول " من قال أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة فهو شر من اليهود والنصارى وكذلك الذي يقول " إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر وهو أكفر من هؤلاء [١]

ويقول " إن علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم تحقيق الإيمان الباطنة وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة " ومعنى ذلك أنه لا يفرق بين الظاهر والباطن . طالما أن ذلك في إطار الشرع وجاء به الكتاب والسنة ولذلك يقول إن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال . وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده " الإسلام علانية والإيمان في القلب " [٢]

والثاني هو الإمام ابن القيم رحمه الله ت ٧٥١هـ /١٣٥٠م وهو من فقهاء الحنابلة المشهورين وهو لا يختلف عن شيخه في موقفه من التصوف لا في حكمه ولا في منهجه . والتصوف عنده بمنظاره الشرعي أو السني هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف . وأصله عنده وهو ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع [٣] وابن القيم رحمه الله لا يجعل الصوفية في درجة واحدة وإنما ينظر إليهم نظرة إنصاف وعدل بلا إفراط ولا تفريط يقول " والناس فيه على ثلاث طوائف : الأولى من أحبوا الصوفية دون نظر إلى شطحاتهم . والثانية : من

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ٢٢٥/١١ .
(٢) السابق ج ١٥/١٠ وابن تيمية والتصوف د/ مصطفى حلمي ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية ج ٣٢٠/٢ ، ٣٢١ ، ٤٨٧ دار الحديث القاهرة .

أبغضوا الصوفية دون تظر إلى محاسنهم . والثالثة : كما يقول هم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه ، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته . فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول . ولا المعلول السقيم بحكم الصحيح ، بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد [١] فابن القيم دقيق في كلامه منصف في حكمه يزن علوم القوم بميزان الكتاب والسنة الذي لا يختل ولا يجور . ومن تأمل ذلك في كتابه مدارج السالكين علم ذلك يقيناً[٢]

وينكر ابن القيم رحمه الله على الذين يفرقون بين الظاهر والباطن أو بين الشريعة والحقيقة ويجمع بينهما . فيقول " إن الحقيقة مشاهدة الربوبية والشريعة التزام بالعبودية . فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده . فالشريعة قيامك بأمره والحقيقة شهودك بوصفه [٣] وإذا لم يكن هناك تناف بينهما فإن العلم اللدني الذي يقول به الصوفية اشترط فيه أن لا يخالف الشريعة . يعني أن يكون مقيداً بالكتاب والسنة . يقول ابن القيم : " والعلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله وكمال الانقياد له ... وإنما يعرف كون العلم لدينا رحمانيا بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عزّ وجل . فالعلم اللدني نوعان : لدني رحماني ولدني شيطاني بطناوي والمحك هو الوحي ولا وحي بعد رسول الله ﷺ ... " [٤]

---

(١) السابق ج ٢/ ٤١ وراجع التصوف بين الإفراط والتفريط د/ عمر عبد الله كامل ٣٢ ، ٣٣ دار ابن حزم بيروت لبنان ط ١٤٢٢/١هـ - ٢٠٠١م .

(٢) انظر فتاوى معاصرة للشيخ يوسف القرضاوي ج ١/ ٧٣٥ - ٧٣٨ دار الوفاء بالمنصورة ط الاولى .

(٣) انظر مدارج السالكين لابن القيم ج ٢ ٣٨٧ .

(٤) السابق ج ٢/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .

ويشير ابن القيم رحمه الله إلى أن من ضيع حدود الشرع من الأوامر والنواهي في الظاهر حرم مشاهدة القلب في الباطن يعني أن علم الظاهر مقدمة لعلم الباطن ولا ينال إلا به [١]

وينصف ابن القيم المتقدمين من المتأخرين ولا يسوى بينهما ، فالمتقدمون من الصوفية تقيدوا بالكتاب والسنة . أما المتأخرون فأعرضوا عنهما وانخدعوا بحيل الشيطان يقول " ... أوقعهم الشيطان في أنواع من الأباطيل والترهات . وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقاً إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن ... " [٢]

والثالث : هو أبو الفرج بن الجوزي ت ٥٩٧هـ /١٢٠١م وهو فقيه من كبار فقهاء الحنابلة [٣] وصنف كتباً في الفقه على المذهب منها : المذهب في المذهب . والعبادات الخمس . وعمد الدلائل في مشتهر المسائل [٤] وهو صاحب اجتهاد في المذهب [٥] وله نفس صوفي يعرفه من طالع كتبه وتأملها وخاصة روح الأرواح وسلوة الأحزان والمواعظ والمجالس وصفة الصفوة وصيد الخاطر وغيرها [٦] وذكر عن نفسه أنه كان يميل إلى

---

(١) انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم الجوزية ج ١٢١/١ تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠١/٢م .

(٢) السابق ج ١١٧/١ .

(٣) راجع في ذلك وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١٤٠/٣ والسير ٣٦٥/٢١ والبداية والنهاية ج ٣١/١٣ .

(٤) انظر ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي ج ٤١٨/٣ دار المعرفة بيروت لبنان والمدخل المفصل في فقه الإمام أحمد وتخريجات الأصحاب د/ بكر أبو زيد ج ٩٧٦/٢ - ٩٧٧ دار العاصمة السعودية ط ١٤١٧/١هـ .

(٥) أبو الفرج بن الجوزي د/ آمنة محمد نصير ٧٠ ، ٧١ دار الشرق القاهرة ط ١٩٨٧/١م .

(٦) السابق ٢٥٠ .

التصوف منذ نعومة أظفاره وأنه صاحب خلوة واجتهاد وتجربة ذوقية عرفانية لها سماتها . ولذلك يقول " كنت أخلو بنفسي في خلواتي وأزيد من البكاء على نقص حالاتي[١]"وحببت إلى الخلوة فكنت أجد فيها قلباً طيباً"[٢] "والخلوة أشرف وأطيب" [٣] "وقد جربت على نفسي مراراً أن أحصرها في بيت العزلة فتجتمع هي ويضاف إلى ذلك النظر في سير السلف فأرى العزلة حمية والنظر في كتب القوم دواء " [٤] " وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق " [٥]

والتصوف عنده يعني كما نقله عن الجنيد " هو الخروج عن كل خلق ردئ والدخول في كل خلق سيئ .. " [٦] ولما كان الصوفية الأوائل مقيدون بالكتاب والسنة ويسيرون على نهجهما مدحهم وأثنى عليهم وألف فيهم يقول " كان أوائل الصوفية يقرون بأن التعويل على الكتاب والسنة "[٧] ويقول في موضع آخر " وعلى هذا كان أوائل القوم فلبس عليهم إبليس في أشياء ثم ليس على من بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن[٨] ثم نقل نصوصاً تدل على تمسك الأوائل بهذه المنهجية [٩] ومن هؤلاء

---

(١) انظر صيد الخاطر لأبي الفرج بن الجوزي ٢٤ تحقيق د/ السيد محمد السيد وزميله دار الحديث القاهرة ط ١٤٢٦/١هـ / ٢٠٠٥م .
(٢) السابق ٦٧ .
(٣) السابق ٢٤٧ .
(٤) السابق ٢٩٨ .
(٥) السابق ١٩٠ .
(٦) انظر تلبيس إبليس لأبي الفرج بن الجوزي ج ٣٣٩/٣ وأبو الفرج بن الجوزي د/ آمنة محمد نصير ٢١٣ .
(٧) تلبيس إبليس ج ٩٧٩/٣ .
(٨) السابق ج ٩٤٢/٣ .
(٩) السابق ج ٩٧٩/٣ .

الأوائل الجنيد والسّري والشبلي والثوري وإبراهيم بن أدهم وبشر الحافي والفضيل بن عياض والحسن البصري وغيرهم وجمع لكل واحد من هؤلاء كتاباً ذكر فيه أخباره وآدابه [١] ثم جمع هؤلاء جميعاً في كتابه المشهور صفة الصفوة [٢]

ولما كان ابن الجوزي فقيهاً وصاحب تجربة صوفية ذوقية فقد عالج المشكلة المثارة بين الفقه والتصوف وزاد الحديث فقال " رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمتزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها . وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق لأنني وجدت جمهور المحدثين همة أحدهم في الحديث العالي . وتكثير الأجزاء وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغالب الخصم وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء ؟ وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا الاقتباس .. فافهم هذا وأمزج طلب الفقه والحديث بمعالجة سير السلف والزهاد في الدنيا لكونه سبباً في رقة قلبك .. [٣]

وابن الجوزي يفرق بين المتقدمين والمتأخرين من الصوفية ولا يجمع بينهم في حكم واحد بيد أنه لما انتقد المتأخرين وصفه بعض الباحثين بأنه من أشد الحنابلة هجوماً على التصوف والصوفية [٤] وانتقاده للمتأخرين بسبب جهلهم وتنطعهم وزهدهم في المباحات والبعد عن التنعيم بما أحل الله

---

(١) صيد الخاطر ١٩١ .
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن ط ١٣٥٥/١هـ .
(٣) صيد الخاطر ١٩٠ ، ١٩١ .
(٤) راجع تاريخ التصوف الإسلامي د/ عبد الرحمن بدوي ٧٢ ـ ٧٤ وابن الجوزي د/أمنة محمد نصير ٩٣ والعلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ٥ ، ٦ .

وشرع كاللباس الحسن والزواج والمأكل الطيب واقتناء الجميل فنجده يسخر سخرية مرة كعادته في كتابيه صيد الخاطر والتلبيس من هؤلاء بدعوى أن في ذلك ترويضاً للنفس وتربية لها ويحاج هؤلاء جميعاً بأقوال وأعمال سلف الصوفية كسفيان الثوري الذي كان يجتهد في تناول أطايب الطعام قائلاً " إن الدابة إذا أحسن إليها عملت " [١] ثم يعلق على سلوك الزهاد والصوفيين مادحاً ومرغباً " وما حدث في الزهاد وبعدهم من هذا الفن فأمور مسروقة من الرهبانية " [٢] ولذلك يحذر مراراً وتكراراً من التصوف المغشوش أو المكذوب أو البدعي [٣]

وابن الجوزي بهذا التمييز بين المتقدمين والمتأخرين من الصوفية وذكره ما لهم وما عليهم كان منصفاً وموضوعياً ولم يكن متجنياً ولا متحاملاً وعلى الذين وصفوه بالتشدد في نقده للمتأخرين أن يعيدوا النظر في هذا الحكم مرة أخرى وعلى الذين فسروا التشدد بأنه كان في مرحلة الشباب ، وهذه المرحلة تتسم بالاندفاع والتسرع في إصدار الأحكام كما في التلبيس [٤] أن يعلموا أن كتب ابن الجوزي التي يتحدث فيها عن التصوف والأخلاق تمثل وحدة فكرية لا اختلاف فيها ولا تعارض بينهما وإن النزعة النقدية التي تغلب عليها راجعة إلى طبيعة تكوينه الذاتية وشخصيته الإنسانية التي تربت ودأبت على معارضة كل ما يخالف الكتاب والسنة وخاصة كتاباه الصيد والتلبيس لأن الأحكام في الكتابين واحدة والخط الفكري الذي يسير عليه فيهما واحد . فما مدحه في التبيس مدحه في الصيد وما ذمه في التلبيس ذمه في الصيد بالإضافة إلى ذلك أن موضوع الكتابين

---

(١) صيد الخاطر ٥٥ .
(٢) انظر صيد الخاطر ٥٥ ، ٢٦ .
(٣) صيد الخاطر ٥٦ ، ٨٥ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٠ ، ٢٨٧ .
(٤) انظر العلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ٦ .

يكاد يكون متفقاً هو النفس الإنسانية والخطرات التي تعرض لها ومداخل إبليس في ذلك .

وبعد هذه الفترة التاريخية التي تجاوزت القرن السابع الهجري تقول إن الصوفية والفقهاء متفقان في النتيجة وأن الخلاف بينهما كما يقول الشيخ الرفاعي وغيره لفظي " فكلاهما يشترط العلم والمعرفة بالأحكام الشرعية شرطاً ضرورياً ضابطاً لسلامة كل مجاهدة أو سلوك صوفي . هذا ما صرح به الفقهاء والصوفية على السواء . فالفقه إذاً سابق وممهد للتصوف . وهذا الأخير هو حصب الأول ونهايته الحتمية . لذا فقد ذم كل من الفقهاء والمتصوفة السلوك الذي كان عليه متأخرو الصوفية الجهال المتطعين الذامين للعلم [١] .

وإذا تجاوزنا هذه الفترة التاريخية إلى أتباع المذاهب الفقهية الأربعة نجد أنهم قد تأثروا بالنصوص ومذاهبه وطرقه إلى حد بعيد وإن كانت مسألة التأثير تختلف نسبياً بين أتباع كل مذهب . والمذهب الآخر وهذه بعض الإشارات المنتخبة لشخصيات مختلفة من أتباع المذاهب الأربعة جمعت بين العلمين ووفقت بين الفنيين إلى يومنا . وهذه الجزئية تحتاج إلى بحث مستقل . وحسبنا من ذلك ما يحقق الغرض ويفي بالمقصود .

فالمتأخرون من أتباع المذهب الحنفي قد تأثروا بالتصوف . فملا على القاري ت سنة ١٦٠٦هـ حنفي وله نفس صوفي يجده من تأمل كتابه في التفسير والمسمى بـ " أنوار القرآن وأسرار الفرقان " [٢] وقد نقل فيه من القشيري " لطائف الإشارات " ومن السلمي " حقائق التفسير " وغيرهما . والمنهج الذي اتبعه فيه هو المنهج الصوفي وله كتاب في سيرة الشيخ

---

(١) العلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ٧ .

(٢) مخطوط بمكتبة المسجد النبوي ملتقى أصحاب الحديث . شبكة الانترنت.

عبد القادر الجيلاني [١] بيد أنه كان ينكر على صوفية الفلاسفة ومن ذلك إنكاره على ابن عربي في قوله بالحلول والاتحاد وكذلك ألف في الرّد عليه وخاصة كتابه الفصوص [٢]

والشيخ أحمد البهلول ت ١٧٠١م له المغنية منظومة في فقه الحنفية وهو صوفي فاضل كما وصفه الزركلي [٣] والمرعشي المعروف بساجقلي زادة ت ١٧٣٢م ذهب إلى دمشق والتقى فيها بالشيخ عبد الغني النابلسي وتصوف على يده [٤] وولي الله الدهلوي ت ١٧٦٢م درة الهند والذي أحيا الحديث والسنة فيها من الصوفية وله في ذلك " البذور البازغة في التصوف والحكمة والقول الجميل في بيان سواء السبيل " [٥]

ومن يتأمل كتابه حجة الله البالغة يجده ملئياً بالأسرار الربانية والمعاني الرحمانية التي تنم عن فهمه العميق وعلمه الدقيق لروح الدين الإسلامي وأحكامه وتعاليمه وأنه من أهل الذوق والعرفان ولذلك يكثر من هذه العبارات : السر في كذا هو كذا . وهذا القول يشير إلى كذا . وهذه لغة الصوفية [٦] يقول عن هذا المنهج " وأولى العلوم الشرعية ... هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام ولميّاتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها [٧] والشيخ الميرغني ت ١٨٥٣م صوفي كبير ومؤسس الختمية . ومن تصانيفه الأنوار المتراكمة والنفحات المدنية في المدائح المصطفوية[٨]

---

(١) انظر الأعلام للزركلي ج ١٢/٥ ، ١٣ .
(٢) انظر السابق ج ١٢/٥ ، ١٣ .
(٣) انظر الأعلام للزركلي ج ١١٨/١ .
(٤) السابق ج ٦٠/٦ .
(٥) الأعلام ج ١٤٩/١ .
(٦) انظر حجة الله البالغة الشيخ أحمد المعروف بشاه ولي الله الدهلوي بجزئيه تحقيق د/ عثمان جمعة ضميرية ط مكتبة الكوثر ط ١/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
(٧) السابق ج ٤٥/١ .
(٨) الأعلام للزركلي ج ٢٦٢/٦ .

واللمحات الخفية في شرح أساس الطريقة الختمية . والنور البراق في مدح النبي المصداق والنفحات المكية [١] وتاج التفاسير لكلام الملك العزيز[٢] ومنهجه فيه صوفي أيضاً .

وخاتمة الأحناف المتأخرين ابن عابدين محمد أمين بن عمر الدمشقي ت ١٨٣٦م كان صوفياً كبيراً وله في ذلك " سل الحسام الهندي في نصرة مولانا خالد النقشنيدي " ت ١٨٢٦م " وشفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل " و " إجابة الغوث ببيان حال النقبا والأبدال والأوتاد والغوث [٣]

ولا تنعدم له إشارات في حاشيته عن أهل الحقيقة [٤] وهم الأولياء ممن اتصف بثبات المجاهدة وركض في ميدان المشاهدة مثل إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي ومعروف الكرخي والفضيل بن عياض وغيرهم [٥] وأنه ينقل عن الغزالي [٦] وابن الفارض [٧] ومحي الدين بن عربي [٨] وغيرهم

وكان العثمانيون وجلهم من الأحناف يميلون إلى التصوف ويدعون له وتذهب باحثة إلى أن التصوف كان له دور كبير في تأسيس الدولة

---

(١) راجع في ذلك طائفة الختمية أصولها التاريخية وأهم تعاليمها د/ أحمد محمد جلي ١٣ ـ ٢٠ دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ط ١٤١٢/١هـ ـ ١٩٩٢م والختمية العقيدة والتاريخ والمنهج محمد أحمد حامد خير ٣٥ ـ ٥٣ دار المأمون الخرطوم السودان د/ت .

(٢) الأعلام للزركلي ٢٦٢/٦ .

(٣) انظر مجموعة رسائل ابن عابدين ج ١٥٢/١ ـ ٢٠٧ ، ج ٢٦٤/٢ ـ ٢٨١ ، ٢٨٤ ـ ٣٤٦ عالم الكتب بيروت لبنان د/ت .

(٤) انظر حاشية ابن عابدين المسماه رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ج ١١٩/١ ، ١٢٠ تحقيق عادل عبد الموجود وزميله تقديم د/ محمد بكر إسماعيل دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ط ١٤٢٤/٢هـ ـ ٢٠٠٣م .

(٥) السابق ١٥٣/١ ـ ١٥٧ .

(٦) السابق ج ١٢٣/١ ، ١٢٤ ومجموعة الرسائل لابن عابدين ج ٢٦٦/٢ .

(٧) مجموعة الرسائل لابن عابدين ج ٢٦٤/٢ .

(٨) السابق ج ٢٦٥/٢ .

العثمانية [١] .

فإذا انتقلنا إلى المتأخرين من المالكية الذين جمعوا بين الفقه والتصوف وجدناهم من الكثرة بمكان وقد ذكرهم الشيخ مخلوف في كتابه " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية " وتتبعهم طبقة بعد طبقة حتى عصره فسد بذلك ثغرة في المكتبة الإسلامية لم يفعلها غيره من أتباع المذاهب الفقهية الأخرى إلا إذا استثنينا الحنابلة كما سيأتي .

ومن هؤلاء المالكية الشيخ محمد بن علي الخروبي ت ١٥٥٦م وله في التصوف شرح الحكم [٢] وشرح كتاب عيوب النفس ومداواتها لشيخه الشيخ أحمد زروق [٣] وله تفسير مشهور نحي فيه منحى الصوفية واقتفى طريقتهم [٤] .

والشيخ الحارثي ١٧١٧م وهو فقيه صوفي مالكي جمع بين العلم والعمل [٥] وله في التصوف " التفكر والاعتبار في تاريخ المصطفى وبعض أصحابه الأخيار ومن تبعهم من العلماء السادات الصوفية الأبرار" و " سلسلة الأنوار في ذكر طريق السادات الصوفية الأخيار " [٦]

والشيخ ابن زكري الفاسي ت ١٧٣١م ومن تصانيفه " الإلمام والإعلام في صلاة القطب ابن مشيش عليه السلام . وشرح الحكم العطائية والقواعد

---

(١) انظر دور التصوف في تأسيس الدولة العثمانية مقال د/ هدي درويش في مجلة التصوف الإسلامي ع ٢٦٨ يوليو ٢٠٠١م .

(٢) انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية الشيخ محمد بن محمد مخلوف ٢٨٤ دار الكتاب العربي بيروت لبنان د/ت .

(٣) الأعلام للزركلي ج ٢٩٢/٦ .

(٤) مخطوط دار الكتب المصرية برقم ٣٦٤ تفسير تحت عنوان " رياض الأزهار وكنز الأسرار وقد حقق في مشروع علمي في أقسام التفسير بجامعة الأزهر .

(٥) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية الشيخ مخلوف ٣٣٢ دار الكتاب العربي بيروت لبنان .

(٦) الأعلام للزركلي ج ٢٤١/١ .

الزروقية [١]

والشيخ العدوي المصري ت ١٧٧٩م وقد تتلمذ على الشيخ الدردير وله شرح الحكم العطائية [٢] والشيخ أبو البركات أحمد الدردير ت ١٧٨٦م وهو من أفاضل فقهاء المالكية كان خلوتيا وله تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان وشرح على ورد الشيخ كريم الدين الخلوتي وشرح صلاة الشيخ أحمد البدوي والمورد البارق في الصلاة على أفضل الخلائق . ورسالة في بيان السير إلى الله ورسالة تحفة السير والسلوك إلى ملك الملوك [٣] وابن عجيبة المغربي المالكي ت ١٨٠٩م قال عنه الشيخ مخلوف " البارع المدقق الصوفي الجامع بين الشريعة والحقيقة [٤] وله شرح صلوات ابن مشيش وتبصرة الطائفة الدرقاوية . وإيقاظ الهمم في شرح الحكم وتفسير القرآن العظيم نحي فيه منحى الصوفية [٥] وشيخ التيجانية ومؤسسها أبو العباس أحمد بن محمد التيجاني ت ١٨١٥م ومن آثاره : كتاب جواهر المعاني الذي جمعه تلميذه وخليفته على حرازم وتزعم التيجانية أن النبي ﷺ قال : فيه كتابي هذا وأنا ألفته [٦] وذلك من بدعهم .

والمجاهد الكبير الذي جمع بين العلم والعمل الشيخ محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية الأول ت ١٨٥٩م . وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ العربي الدرقاوي [٧] وله أتباع يعدون بعشرات الملايين

---

(١) انظر شجرة النور الزكية ٣٣٥ والأعلام للزركلي ١٩٧/٦ .
(٢) شجرة النور ٣٤٢ والأعلام ٣٤٢/٦ .
(٣) شجرة النور ٣٥٩ والأعلام للزركلي ٢٤٤/١ .
(٤) شجرة النور الزكية ٤٠٠ .
(٥) شجرة النور ٤٠٠ والأعلام ج ٢٤٥/١ .
(٦) انظر بغية المستفيد شرح منية المريد ١٨٣ محمد العربي بن محمد العمري دار الكتب العلمية بيروت لبنان وراجع التيجانية دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة ٤٨ ـ ٦٣ د/ علي بن محمد الدخيل الله دار العاصمة السعودية ط ٢ سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .
(٧) انظر الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها صلاح مويد العقبي ١٨٢ ـ ٢٠٥ دار البراق لبنان ٢٠٠٢م .

في اليمن والحجاز والشام والسودان ومصر وصحراء إفريقية وغيرها ومن سار على درب الجهاد من المالكية الصوفية أيضاً الشيخ عبد القادر الجزائر ت ١٨٨٣م وقد أخذ الطريقة عن الشيخ محمود القادري وله المواقف ثلاث أجزاء في التصوف وكان متأثراً بمحي الدين بن عربي وآل أمره في آخر حياته إلى دمشق حيث مات هناك ودفن بجوار ابن عربي[١]

والشيخ عُليش شيخ المذهب المالكي بالأزهر ت ١٨٨٢م كان على الطريقة الشاذلية [٢] ومن يتأمل حاشية الدسوقي على الدردير يجد باباً كاملاً في خصائص النبي ﷺ اختص به دون أمته [٣]

وهناك كثير من المالكية المتأخرين الذين تأثروا بالتصوف وجعلوه طريقاً لهم ومذهباً لا يقل عن مذهبهم الفقهي ، كالشيخ محمد بن أحمد الصديق الغماري ت ١٩٣٥م فقد كان درقاوياً وله أتباع كثر [٤] والشيخ الشنقيطي محمد بن عبد الجواد ت ١٩٤٣م كان أحمدياً وله تآليف عديدة في الطريقة [٥] وقل أن نجد أحداً من مشاهير المالكية المتأخرين وخاصة في بلاد المغرب العربي إلا وله مذهب صوفي أو طريقة صوفية ومن يراجع شجرة النور الزكية للشيخ مخلوف يجد عدداً كبيراً منهم .

أما المتأخرون من الشافعية الذين جمعوا بين الفقه والتصوف فلم يكتب عنهم أحد مبيناً طبقاتهم إلى يومنا هذا . كما فعل الشيخ مخلوف فيما أعلم

---

(١) انظر شجرة النور الزكية ٤٠٦ والأعلام ج ٤٥/٤ ، ٤٦ والطرق الصوفية وموقفها من الجهاد في العصر الحديث للباحث .

(٢) الطريقة الشاذلية عبد المغيث مصطفى ٥٥ دار إقرأ دمشق ط ١٤٢٧/١هـ - ٢٠٠٣م وشجرة النور الزكية ٣٨٥ والأعلام للزركلي ١٩/٦ ، ٢٠ .

(٣) حاشية العلامة الدسوقي على الشرح الكبير لأبي البركات سيدي أحمد الدردير مع تعليقات الشيخ عليش عليها ج ١٨٨/٢ - ١٩١ ط المكتبة التجارية الكبرى توزيع دار الفكر بيروت لبنان د/ت .

(٤) الأعلام للزركلي ج ٢٢/٦ .

(٥) السابق ١٨٥/٦ .

ومن ثم فليس أمامنا إلا طريقة الاستقراء والتتبع لدي من جمع بين العلمين منهم ومن هؤلاء الشيخ الكركي أحمد خير الدين بن محمد الكركي الشافعي ت ١٥٠٤م كان صوفياً كبيراً وخليفة مقام السيد إبراهيم الدسوقي وله في التصوف نور الحدق في لبس الخرق وشرح الحكم العطائية [١] .

والعالم الموسوعي جلال الدين السيوطي الشافعي الشاذلي ت ١٥٠٥م له تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية [٢] ولبس الخرقة من يد شيخه كمال الدين محمد بن محمد المصري الصوفي المعروف بابن إمام الكاملية وله في ذلك سند [٣] وإتحاف الفرق برفو الخرق [٤] ولما ألف برهان الدين البقاعي ت ٨٨٥ رسالة في تكفير ابن عربي رد عليه السيوطي بكتاب عنوانه " تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي " وكذلك فعل تلميذه الشعراني في كتابه تنبيه الأغبياء إلى قطرة من بحار علوم الأولياء[٥] وابن عراق الدمشقي محمد بن علي بن عبد الرحمن ت ١٥٢٦هم كان صوفياً كبيراً وصفه الغزي بقوله " الإمام العارف بالله المجمع على ولايته وجلالته القطب الرباني والغوث الصمداني ... وأحد أصحاب سيدي علي ابن ميمون المغربي " [٦] ومن تصانيفه السفينة

---

(١) الأعلام للزركلي ج ٢٣٢/١ ومعجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية عمر رضا كحالة ج ١٢٨/١ ط مكتبة المتنبي بيروت ودار إحياء التراث العربي بيروت لبنان د/ت .

(٢) مطبوع وحققه الأستاذ محمد حسني مصطفى ونشرته دار القلم العربي .

(٣) انظر سند الشيخ جلال الدين السيوطي بلبس الخرق والتقين والصحبة ضمن رسائل من التراث الصوفي في لبس الخرقة ١٧٧ تقديم وتحقيق د/ إحسان ذانون الثامري وزميله دار الرازي الأردن ط ١٤٢٣/١هـ - ٢٠٠٢م .

(٤) السابق ١٩٩ .

(٥) انظر في مؤلفات السيوطي شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٥١/٨ والأعلام ج ٣٠١/٣ ، ٣٠٢ ومعجم المؤلفين كحالة ١٢٨/٥ .

(٦) انظر الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي ج ٥٩/١ حققه وضبط نصه جبرائيل سليمان جبور الناشر محمد أمين دمج بيروت لبنان د/ت .

العراقية في لباس الخرقة الصوفية ورسالة كتبها إلى من انتسب إلى الطريقة المحمدية ورسالة في طبقات أولياء الله تعالى [١] والشيخ ابن عطية الحموي الشافعي ت ١٥٤٧م وقد أخذ العلوم الظاهرة والباطنة عن أبيه وعن كثير من الواردين إليه ولقنه والده الذكر وألبسه الخرقة [٢] ومن تصانيفه تحفة الحبيب فيما ينهجه من رياض الشهود والتقريب . ومصباح الهداية ومفتاح الولاية وكلاهما في التصوف [٣] والشيخ أبو الوفا العُرضي الحلبي الشافعي ت ١٦٦٠م يقول عنه المحبي فيما نقله عن البديعي " ... وهو في الزهد كأويس وعروة وللسادة الصوفية قدوة . اشتغل بالتصنيف والتدريس والإفتاء على مذهب الإمام محمد ابن إدريس [٤] وله طريق الهدي في التصوف [٥] والشيخ القشّاشي الشافعي ت ١٦٦١م وكان مالكياً ثم تحول إلى مذهب الإمام الشافعي [٦] وصوفياً مشاركاً في أنواع من العلوم [٧] وصفه الكتاني بقوله " الإمام العارف " [٨] وله في التصوف " شرح الحكم العطائية وحاشية على الإنسان الكامل للجيلي وبستان العارفين والسمط المجيد في تلقين الذكر لأهل التوحيد وكلمة الجود في القول بوحدة الوجود[٩] .

---

(١) انظر شذرات الذهب ١٩٦/٨ والكواكب السائرة ج ٦٥/١ والأعلام ج ٢٩٠/٦ ومعجم المؤلفين كحّالة ٢١/١١ ، ٢٢ .
(٢) شذرات الذهب ج ٣٠٤/٨ والكواكب السائرة ج ٥٠/٢ ـ ٥٢ .
(٣) الأعلام ٢٩١/٦ ومعجم المؤلفين ٢٨/١١ .
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ج ١٤٨/١ ـ ١٥٢ .
(٥) الأعلام للزركلي ج ٣١٧/٦ .
(٦) الأعلام ج ٢٣٩/١ .
(٧) معجم المؤلفين كحّالة ج ١٧٠/٢ .
(٨) فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات الشيخ عبد الحي الكتاني ج ٩٧٠/٢ تحقيق د/ إحسان عباس دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان د/ت .
(٩) انظر فهرس الفهارس ٩٧٠/٢ والأعلام للزركلي ج ٢٣٩/١ ومعجم المؤلفين ج ١٧٠/٢ .

والشيخ ابن علامة أحمد بن إبراهيم الشافعي النقشنيدي ت ١٦٢٤م ومن تصانيفه شرح حكم أبي مدين رسالة في طريق النقشنيدية وشرح الحكم العطائية [١] . والشيخ السّمان محمد بن عبد الكريم الشافعي ١٧٧٦م كان صوفياً خلوتياً قادرياً شاذلياً ومن تصانيفه النفحة الإلهية في كيفية سلوك الطريقة المحمدية ولبعض مريديه درة عقد جيد الزمان في مناقب الشيخ محمد السمان [٢] .

والشيخ السمنودي محمد بن حسن الأزهري الشافعي الصوفي ت ١٧٨٥م كان خلوتياً . ومن مؤلفاته " تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المغربين في التصوف والآداب السنية والأفعال الشريفة المرضية القدسية لمن يريد طريق السادة الخلوين [٣] .

والشيخ نوَوَى الجّاوي محمد بن عمر الشافعي الصوفي ت ١٨٩٨م وله مرقاة صعود التصديق في شرح سلم التوفيق إلى محبة الله وهي لابن طاهر ت ١٢٧٢م والتفسير المنير لمعالم التنزيل المسفر عن وجوه محاسن التأويل " سلك فيه مسلك الصوفية [٤] والشيخ الكردي محمد أمين الشافعي ت ١٩١٣م وله تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب والعهود الوثيقة في التمسك بالشريعة والحقيقة [٥] وآخر الشافعية الصوفية الشيخ الظواهري محمد بن الأحمدي ت ١٩٤٤م وكان شيخاً للأزهر ، وصفه الزركلي بقوله " كان خطيباً فيه نزعة صوفية شاذلية [٦] وقد قال له الشيخ محمد عبده إن

---

(١) انظر الأعلام للزركلي ٨٨/١ وهدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي ج ١٥٦/١ ط إستانبول ١٩٥٥م ومعجم المؤلفين ج ١٤١/١ .
(٢) الأعلام ٢١٦/٦ ومعجم المؤلفين ١٨٨/١٠ .
(٣) الأعلام ٩٢/٦ ومعجم المؤلفين ٢١١/٩ ، ٢١٢ .
(٤) الأعلام ٣١٨/٦ ومعجم المؤلفين ٨٧/١١ .
(٥) الأعلام ٢٦٩/٦ ومعجم المؤلفين ٧٨/٩ .
(٦) الأعلام ٢٦/٦ .

أباك سماك الأحمدي نسبة إلى السيد أحمد البدوي [١]

وبالجملة فإننا نستطيع أن نقول من المستبعد أن نجد أحداً من مشاهير الشافعية إلا وله منصب صوفي أو طريق صوفي في مختلف الأقطار التي انتشر فيها المذهب . مما يدل على أن نسبته إلى الطريق لا تقل عن نسبته إلى المذهب الفقهي بحال من الأحوال ويدل في الوقت ذاته على أن التوافق كان موجوداً على مر العصور . وإذا ختمنا بالحنابلة وهو المذهب الرابع فإننا نجد كتباً كثيرة عالجت هذه الجزئية وذلك راجع إلى اهتمام السعودية بالمذهب لأنه مذهبها الرسمي . ولذلك اعتنى العلماء به طبقات ومؤلفات[٢] ومن هؤلاء ابن عبد الهادي يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي ت ١٥٠٣م وكان عالماً بالفقه والحديث والتفسير والتصوف وله في ذلك اليد الطولى [٣] ومن تصانيفه بدء العلقة في لبس الخرقة [٤] وصدق التشوق إلى علم التصوف والوقوف على لبس الصوف [٥] والشيخ المرزباني محمد بن محمد بن المرزباني ت ١٩٩٣م كان صوفياً صالحاً[٦] والشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ت ١٦٦٤م كان من كبار

---

(١) الأعلام للزركلي ج ٢٦/٦ ومعجم المؤلفين ٣٠/٩ ، ٣١ .

(٢) من ذلك السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة للشيخ محمد بن عبد الله بن حميد النجدي المكي وقد حققه د/ بكر عبد الله أبو زيد ونشرته مؤسسة الرسالة وتتبع فيه الحنابلة من بعد ابن رجب الحنبلي إلى عصره ويغلب عليه النزعة الصوفية ولذلك انتقده بعض الشباب في ملتقى أهل الحديث والثاني معجم مصنفات الحنابلة للدكتور عبد الله الطريفي في ٧ أجزاء تتبع فيه مؤلفات الحنابلة بدءا من الإمام أحمد إلى الشيخ ابن باز في عصرنا الحديث

(٣) انظر معجم مصنفات الحنابلة د/ عبد الله الطريفي ج ٤١/٥ ط الأولى بالرياض ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

(٤) انظر رسائل من التراث الصوفي في لبس الخرقة د/ إحسان ذانوب الثامري ١٢٧ .

(٥) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٤٣/٨ والأعلام ج ٢٢٥/٨ ، ٢٢٦ ومعجم مصنفات الحنابلة ج ٦٣/٥ ، ٩٠ ، ١٢٧ .

(٦) خلاصة الأثر ج ١٥٨/٤ والسحب الوابلة لابن حميد ج ١٠٣٦/٣ ومعجم مصنفات الحنابلة ج ١٧٦/٥ .

الحنابلة وله في التصوف مؤلفات كثيرة منها الأدلة الوافية بتصويب قول الفقهاء والصوفية وجامع الدعاء وورد الأولياء ومناجاة الأصفياء وتحقيق المقالة هل الأفضل في حق النبي ﷺ الولاية أو النبوة أو الرسالة وروض العارفين وتسليك المريدين وسلوك الطريق في الجمع بين كلام الشريعة والحقيقة [١] وغيرها وكان الشيخ منصور البهوتي الحنبلي المشهور ت ١٦٣٠م خلوتياً [٢] وكذلك الشيخ شمس الدين البلباني الحنبلي ت ١٦٧٢م تقريباً . وقد جاء في وصفه أنه أحد الأئمة الزهاد .. كما كان عالماً ورعاً عابداً قطع أوقاته بالعلم والعبادة والكتابة .. " [٣] وابن سالم العمري المعروف بابن سالم الصوفي الدمشقي ١٦٦٥م وقد أخذ التصوف عن شيخه أيوب بن أحمد الخلوتي الصالحي ت ١٠٧١هـ ـ ١٦٥٠م وكانت متابعته لشيخه سبباً في قصور تأليفه على التصوف ومن تصانيفه فهل الوارد في الحث على قراءة الأوراد وتحفة الملوك لمن أراد تجريد السلوك[٤] والشيخ عبد القادر التغلبي الشيباني الدمشقي ت ١٧٢٧م وله رسالة في الطريقة الشيبانية وأخذ العهد [٥] وأبو السعادات نظام الدين البعلي الدمشقي الصوفي ت ١٧٥٦م له رسائل عديدة في التصوف ذكرها

---

(١) انظر خلاصة الأثر ٢٥٨/٤ والأعلام للزركلي ٢٠٣/٦ ومعجم المؤلفين ٢١٨/١٢ والسحب الوابلة على ضرائح الحنابلة لابن حميد ١١٨/٣ تحقيق د/ بكر عبد الله أبو زيد وزميله مؤسسة الرسالة ط ١٤١٦/١هـ ـ ١٩٩٦م ومعجم مصنفات الحنابلة د/ عبد الله الطريفي ج ١٧٩/٥ ـ ٢٠٨ .

(٢) خلاصة الأثر ج ٤٢٦/٤ والأعلام ٣٠٧/٧ ومعجم المؤلفين ٢٢/١٣ ومعجم مصنفات الحنابلة ج ٢١٤/٥ .

(٣) انظر معجم مصنفات الحنابلة ج ٢٣٧/٥ .

(٤) انظر خلاصة الأثر ج ٢٥٣/١ والسحب الوابلة ج ١٩٣/١ ومعجم المؤلفين ج ٧/٢ ومعجم مصنفات الحنابلة ج ٢٤٢/٥ ، ٢٤٣ .

(٥) انظر سلسلة الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لأبي الفضل محمد بن خليل بن علي المرادي ٥٨/٢ دار الكتاب الإسلامي القاهرة د/ت والأعلام ٤١/٤ ومعجم المؤلفين ٢٩٦/٥ والسحب الوابلة ٥٦٣/٢ ومعجم مصنفات الحنابلة ج ٢٩٨/٥ ، ٣٠٠ .

الغزي في النعت الأكمل [١] وقال " ألف في التصوف رسائل عديدة لم تشتهر بعده [٢] والشيخ أحمد البطي الد=مشقي الفرائضي ت ١٧٧٥م قال عنه المرادي في سلك الدرر " الإمام الورع الزاهد الفقيه كان عالماً فاضلاً عاملاً بعلمه ــ ناسكاً ــ خاشعاً متواضعاً ــ بقية العلماء العاملين ــ عابداً ــ فرضياً ــ أصولياً [٣] .

والشيخ أحمد الدمنهوري الأزهري شيخ الأزهر ت ١٧٧٨م كان حنبلياً صوفياً وله تحفة الملوك في علم التوحيد والسلوك [٤]

والشيخ أبو شعير محمد بن عبد الله بن محمد الدمشقي النابلسي الأصل الصوفي الحنبلي ت ١٧٨٦م ومن تصانيفه عقيدة الغيب في التصوف والصلوات المعروفة في التصوف [٥] والشيخ مصطفى الشطي الصوفي ت ١٩٢٧م تقريباً . قال عنه الشطي في مختصر طبقات الحنابلة فقيه نبيل . غلب عليه حب الصوفية أصحاب وحدة الوجود والعناية بكلامهم وطريقهم بحيث صار له ذلك مشرباً يطنب فيه ويدعو إليه [٦] وله رسالة في الردّ على الوهابية ذكرها له الشطي في مختصر طبقات الحنابلة ... وقال في آخرها مبحث في التصوف ــ طبعت في بيروت سنة ١٣٣٠ هـ كما ذكرها محققاً النعت الأكمل في التكملة ٤١٤ [٧] .

---

(١) انظر النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل لكمال الدين محمد الغزي العامري ٢٩٧ تحقيق وجمع محمد مطيع الحافظ وزميله دار الفكر ١٤٠٢هـ .

(٢) السابق ٢٩٦ والسحب الوابلة ج ٩٨٩/٣ ومعجم مصنفات الحنابلة ٣٦٢/٥ .

(٣) انظر سلك الدرر ج ١٣١/١ ومعجم مصنفات الحنابلة ٣٣٢/٥ .

(٤) الأعلام ١٦٤/١ ومعجم المؤلفين ٣٠٣/١ ومعجم مصنفات الحنابلة ج ٣٥٤/٥ ، ٣٥٧ .

(٥) النعت الأكمل للغزي ٣٤١ ومعجم المؤلفين ٩١/٣ ـ ١٣٧/٩ والسحب الوابلة ٩٨١/٣ ومعجم مصنفات الحنابلة ٣٣/٦ ، ٣٤ .

(٦) انظر مختصر طبقات الحنابلة للشيخ محمد جميل بن عمر البغدادي المعروف بابن الشطي ٢٨ دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط ١٤٠٦/١هـ .

(٧) انظر معجم مصنفات الحنابلة د/ عبد الله الطريفي ٢٧٩/٦ .

فالمتأخرون من الحنابلة كغيرهم من أتباع المذاهب الفقهية الأخرى لا يختلفون عنهم بيد أننا نلاحظ أن بعضهم يؤثر وصف العابد أو الزاهد أحيانا على الصوفي وذلك بسبب حساسية اللفظ من جهة وإتباعهم لإمامهم الإمام أحمد بن حنبل من جهة أخرى . فقد ألف الإمام أحمد في الزهد وكتب عن الزهاد . ولم يكتب عن التصوف والصوفية .

كما أن المتأخرين من الفقهاء متفقون مع الصوفية المعتدلين إلا من غلا منهم وخرج عن المنهج الذي جعلناه في صدر المبحث الأخير . وهو القيد بالكتاب والسنة ولا يزال الباحث الدقيق المتعمق في الدين في معقل الحنابلة من المعاصرين يؤيد التصوف القائم على الكتاب والسنة أو ما نسميه بالتصوف الشرعي دون البدعي إن صحت التسمية ، وما ذهب إليه البعض من رفض التصوف جملة وتفصيلاً ، فإنه يعيد عن المنهج العلمي ويدل على الظلم الواضح والجهل الفاضح وأن هؤلاء المنكرين لا يستطيعون بحال من الأحوال أن ينكروا التصوف الفردي أبداً ثم إن السلفية بمعناها الواضح كلُ لا يتجزأ ، فلا نأخذ منها جانباً ونترك جانبا آخر .

ظهر لنا مما تقدم أن اللقاء بين العلمين ــ الفقه والتصوف ــ أمر ممكن باعتبارهما علمين شرعيين من روح الدين وصميم الإسلام . أقيما على الكتاب والسنة وأنهما بهذا الاعتبار متفقان لا يختلفان ومجتمعان لا يفترقان طالما أن الأصل الذي ينبثقان منه واحد وهو الكتاب والسنة وذلك حاصل على مدار التاريخ والقرون التي تتبعناها . بدءاً من أصحاب المذاهب الفقهية والصوفية إلى يومنا هذا . بيد أن اللقاء يختلف في المتقدمين عن المتأخرين وفي السابقين عن اللاحقين . وذلك بسبب ما شاب التصوف وخالطه من البدع والخرافات داخلية كانت أو خارجية ولا يعني ذلك قبول المتقدم لتقدمه ورفض المتأخر لتأخره . بل ينبغي أن يكون المدح

لمن تمسك بالكتاب والسنة وإن كان من المتأخرين ــ والذم لمن خالف الكتاب والسنة وإن كان من المتقدمين . فالشخص لا يمدح لذاته ولا يذم لذاته وإنما يمدح ويذم بمدى قربه وبعده عن هذا المنهج . وعليه فإن الفقيه والصوفي المعتدل المتمسك بهذا المنهج متفقان . فالفقيه العارف يعترف للصوفي الكامل . والصوفي الكامل يقرّ للفقيه العارف . وما رأينا فقيهاً قط يرفض الأعمال القلبية والباطنية ويدعو أصحابه وتلاميذه إلى إهمالها وعدم اعتبارها وما رأينا صوفياً معتدلاً يرفض الأعمال الظاهرية " الجوارح " ويدعو أصحابه وأتباعه إلى إهمالها مكتفياً بالباطن . فالنظرة التكاملية المنصفة واقعة من الفريقين وحاصلة بين الجمعين . والذي يفصل بين الظاهر والباطن كالذي يفصل بين الروح والجسد . فكما أن الجسد بلا روح لا قيمة له ، فكذلك الروح بلا جسد تقوم فيه لا قيمة لها . إذ كيف يكون الفصل ؟ والظاهر ظرف الباطن ، والباطن لب الظاهر . والدين جامع لهما معاً .

إن من يفصل بينهما مبتدع فاسق . ولو ادعى الاكتفاء بأحدهما عن الآخر كفر ــ كما يقول الإمام الغزالي ــ .

## الخاتمة

بعد هذه الرحلة العلمية المضنية التي قطعناها في هذا الموضوع وتتبعناها خطوة خطوة نستطيع أن نخلص إلى أهم النتائج وهي كما يلي :

**أولاً** : إن علم الظاهر هو الواضح الجلي ومحله الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء ويسمى بعلم الشريعة والباطن وهو الغامض الخفي ومحله الجارحة الباطنة وهي القلب ويسمى علم الحقيقة وهذا العلم فيه الحق والباطل والمقبول والمردود وقد يكون هذا العلم فتحاً ربّانياً وفيضاً رحمانياً يختص الله من يشاء من عباده في فهم آية أو حديث أو حكم لم يوفق الله غيره وقد يعبر عنه بالكشف أو الإلهام أو للعلم اللدني وهذه العبارات إن قيدت بالكتاب والسنة قبلت وإلا فلا .

**ثانياً** : أن الباطن الذي نرجحه ليس الباطن الذي يقصده الباطنية وغيرهم من غلاة الصوفية فإنه هدم للدين وتقويض لأركان الشريعة فالصوفية يختلفون عن الباطن بداية ونهاية وسلوكاً وغاية [١]

**ثالثاً** : قامت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على ثبوت علمي الظاهر والباطن . فالعلم كما يقول الطوسي ظاهر وباطن . والقرآن ظاهر وباطن وحديث رسول الله ظاهر وباطن . والإسلام ظاهر وباطن [٢] . وأنكر جماعة من القدامى والمحدثين تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن وليس لهم في ذلك حجة معتمدة أو دليل معتبر .

**رابعاً** : اتضح لنا أن للفقهاء منهجهم وللصوفية منهجهم ولهذه المنهجية تبعاتها الفكرية فمنهج الفقهاء النظر والاستدلال ولذلك عولوا على العقل والنقل ومنهج الصوفية الذوق العرفان . ولذلك عولوا على القلب والفؤاد

---

(١) انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة ج ٢/٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ .

(٢) اللمع للطوسي ٤٤ .

والأول منهج عام يرتاده كل من كان مؤهلاً للنظر والاستدلال ومن أراد أن يسلك سبيله فليسلكه . أما منهج الذوق والعرفان فإنه منهج خاص لأنه تجربة ذاتية وتجربة شخصية ولا تتيسر لأي إنسان سلوكه إلا بعد جهد ومجاهدة شاقة ولذلك لم يسلكه إلا قلة ضئيلة جداً .

**خامساً** : رام الفقهاء والصوفية من هذه المنهجية الوصول إلى اليقين وهذا أمر ميسور عند الفقهاء متى كان الحكم قطعياً لا ظنياً وإن كان القطعي أقل من الظني لكنه مقيد لليقين على كل حال . أما الصوفية فإنهم حاولوا وقالوا إن أحكامنا يقينية لاشك فيها . لأن القلب يستطيع إدراك الحقائق المتصلة بعالم الملكوت متى صفا ونقى وطهر من الشهوات والشبهات وفرغ من الشواغل الدنيوية واستغرق في الله بالكلية . بيد أن هذا ليس محل اتفاق . ولا يعتد به عند العقليين وحتى من زعم أنه وصل إلى اليقين لم يحظ بالتأييد فيبقى يقينه خاصاً به .

**سادساً** : إن وقوع النزاع والصراع بين الفريقين سببه نظر الصوفية إلى أنفسهم على أنهم أهل الباطن وغيرهم أهل الظاهر الصوفية أهل الفهوم الخاصة والفقهاء أهل الرسوم العامة . الصوفية هم أرباب الأحوال والفقهاء هم أصحاب الأقوال ــ الصوفية هم أهل الآخرة والفقهاء هم أهل الدنيا .

وإزاء هذه الخصوصيات التي اعتبرها الفقهاء دعاوى تحتاج إلى إثبات ودليل أنكروا على الفقهاء لأنهم لم يصلوا بعد إلا ما وصلوا إليه من أسرار ودقائق ومعان .

**سابعا** : كان للنزاع والصراع بين الفريقين :

ــ موضوعه : وهو النص . الفقهاء لهم فهم والصوفية لهم فهم وامتد ذلك ليشمل الدين كله وقل أن نجد مسألة تكلم فيها الفقهاء إلا وللصوفية حكم فيها .

ـ **ومكانه** : الكوفة والبصرة وهما موطن لكثير من الفقهاء وموطن الصوفية الأول ومنهما انتشر التصوف في كثير من البقاع . فما حل فقيه في مكان إلا وجد فيه صوفياً .

ـ **وزمانه** : من المراحل الأولى حيث نظر الفقهاء إلى التصوف على أنه علم حادث في الملّة مخالف لما عليه سلف الأمة ويظل النزاع والصراع يقوى حيناً ويضعف حيناً ، يكثر تارة ويقل تارة أخرى على مدار فترات التاريخ الطويلة .

**ثامناً** : كانت نتائج الصراع بين الفقهاء والصوفية خطيرة جداً تمثلت أحياناً في السجن والاعتقال والتعذيب والتشريد والقتل والتنكيل فقد قتل الحلاج ت ٣٠٩هـ وشهاب الدين السهروردي ٥٨٧هـ وألقى ابن بَراجان ٥٣٦هـ على مزبلة أياماً بلا صلاة ولا دفن واغتيل المناوي ١٠٣١هـ كما يقول الدكتور الطويل [١] .

وتعرض الشعراني ٩٧٣هـ لمحنة قاسية عدّ بسببها فاسقاً مارقاً من الدين الخ بيد أن هؤلاء الضحايا كانوا من صوفية الفلاسفة ومن تبعهم ممن تأثر بهم لما أثاروه من مخالفات وشناعات شرعية من شأنها أن تزلزل كيان الأمة وتقوض أركانها .

**تاسعا** : ظهرت براءة بعض الفقهاء المتهمين بالقسوة والتشدد والوقوف في وجه الصوفية كأبي الفرج ابن الجوزي ت ٥٩٧هـ وشيخ الإسلام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ وتلميذه ابن القيم ت ٧٥١هـ وثبت أنهم صوفية أرباب أحوال ولهم أذواق ومواجيد ولكنهم لما قيدوا تصوفهم بالكتاب والسنة وضبطوه بالشرع وتمسكوا بذلك وصفهم بعض الشرقيين والغربيين بالتشدد

---

(١) انظر التصوف إبان العصر العثماني ١٧٠ .

**عاشراً** : اتضح لنا أنه بعد استبعاد الغلاة من الصوفية يمكن اللقاء بين الفريقين فلا تعارض بين الفقه والتصوف السني ، بإعتبارهما علمين شرعيين من صميم الدين وروح الإسلام . ولا نزاع ولا صراع بين الفقيه العارف والصوفي الكامل . فالفقيه العارف يعترف بالصوفي الكامل والصوفي الكامل يقرّ بالفقيه العارف وهذه هي النظرة المتكاملة التي يتكون منها الإسلام . فالإسلام ظاهر وباطن ، روح وجسد ، والجسد بلا روح لا قيمة له والروح بلا جسد تقوم فيه لا قيمة لها . فلابد من تلازمهما واجتماعهما ومن يفصل بينهما يكون مبتدعاً فاسقاً ومن ادعى الاكتفاء بأحدهما دون الآخر كفر كما يقول الإمام الغزالي .

والله تعالى أعلم

## ثبت بأهم المراجع

**مرتبة على ترتيب الحروف الهجائية دون مراعاة " أل "**


١ ــ أبجد العلوم ــ الوشي المرقوم في بيان أحوال العلــوم ــ صــديق حسن خان القنوجي ، تحقيق عبد الجبار زكار منشــورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٨م .

٢ ــ ابن تيمية وموقفه من التصوف د/ مصطفى حلمــي دار الــدعوة الإسكندرية د/ت .

٣ ــ ابن عربي صاحب الفتوحات المكية د/ محمد إبراهيم الفيومي الدار المصرية اللبنانية ط ١ سنة ١٤١٩هــ / ١٩٩٨م .

٤ ــ أبو حامد الغزالي دراسات في فكره وعصــره وتــأثيره ــ نــدوة عقدت في كلية الآداب الرباط ــ المغرب ط ١٩٨٨م .

٥ ــ أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه وفقهه الشيخ محمد أبو زهــرة دار الفكر العربي القاهرة د/ت .

٦ ــ أبو الفرج بن الجوزي آراؤه الكلامية والأخلاقية د/ آمنة نصــير دار الشروق القاهرة ط ١ سنة ١٤٠٧هــ/١٩٨٧م .

٧ ــ أحمد زروق والزروقية د/ علي فهمي خشــيم ط مكتبــة المــدار الإسلامي بيروت لبنان ط ٣/٢٠٠٢م .

٨ ــ إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي دار المعرفــة بيــروت لبنان ودار الفكر د/ت .

٩ ــ إخبار الحكماء بأخبار الحكماء لعلي بن سيف بن إبراهيم القفطي ط مصر ١٣٢٦هــ .

١٠ ــ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول محمد بن علــي الشوكاني تحقيق محمد صبحي دار ابن كثير ط ١ / ١٤٢١هــ ــ

٢٠٠٠م .

١١ ــ الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د/ محمد رشاد سالم مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط ١/١٤٠٤هـ ودار الفضيلة السعودية ١/٢٠٠٠م .

١٢ ــ الأعلام لخير الدين الزركلي دار العلم للملايين بيروت لبنان ط ٨/١٩٨٩م .

١٣ ــ أعلام التصوف طه عبد الباقي سرور مكتبة نهضة مصر القاهرة د/ت .

١٤ ــ إلى التصوف يا عباد الله أبو بكر الجزائري مطبعة المدني ط ١/١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م .

١٥ ــ الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه الشيخ يوسف القرضاوي مؤسسة الرسالة بيروت ط ٣/١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م .

١٦ ــ الإمام الغزالي والتصوف عبد الرحمن دمشقية ط طيبة السعودية ط ٢/١٤٠٦هـ .

١٧ ــ الإمام الغزالي وجهوده في التجديد والإصلاح علي محمد الصابوني مؤسسة إقرأ القاهرة ط ١/١٤٢٧هـ ــ ٢٠٠٧م .

١٨ ــ الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية الشيخ عبد الوهاب الشعراني دار المعرفة بيروت ط ١/١٤٢٧هـ ــ ٢٠٠٦م .

١٩ ــ إيقاظ الهمم شرح الحكم الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة تحقيق محمد عزت المكتبة التوفيقية د/ت .

٢٠ ــ البداية والنهاية لابن كثير تحقيق جماعة من الباحثين دار الرّيان للتراث القاهرة ط ١/١٤٠٨هـ وأخرى تحقيق علي تركي البارودي ط المكتبة التوفيقية القاهرة د/ت وثالثة ط دار الفكر

بيروت لبنان ١٣٩٨هـ ـ ١٩٩٨م .
٢١ ـ البرهان المؤيد الشيخ أحمد الرفاعي تحقيق صفوت السقا مكتبة ربيع حلب ط ١٣٨٢/٢هـ ـ ١٩٦٢م .
٢٢ ـ بغية المرتاد في الرّد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والإتحاد لابن تيمية تحقيق د/ موسى الدويش مكتبة العلوم والحكم السعودية ط ٣ / ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .
٢٣ ـ بغية المستفيد شرح منية المريد محمد العربي بن محمد العمري دار الكتب العلمية بيروت لبنان د/ت .
٢٤ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي دار الكتب العلمية بيروت لبنان د/ت
٢٥ ـ تاريخ التصوف من بدايته حتى نهاية القرن الثاني الهجري د/ عبد الرحمن بدوي وكالة المطبوعات الكويت ط ١٩٧٦/٢م .
٢٦ ـ تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام د/ محمد علي أبو ريان دار المعرفة الإسكندرية ط ٢٠٠٠م .
٢٧ ـ التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبد الله الشاذلي مكتبة الأزهر الحديثة طنطا د/ت ودار الهداية أيضاً .
٢٨ ـ التصوف بين الحق والخلق محمد فهر شقفه ط الدار السلفية ط ٢ د/ت .
٢٩ ـ التصوف في مصر إبان العصر العثمان د/ توفيق الطويل ط الهيئة العامة للكتاب د/ت .
٣٠ ـ التصوف والحياة الشيخ عبد الباري الندوي تقديم الشيخ الندوي دار الفارابي للمعارف سورية ط ١٤٢٣/١هـ ـ ٢٠٠٣م .
٣١ ـ التعريفات لعلي بن محمد بن الشريف الجرجاني مكتبة لبنان ١٩٦٩م

٣٢ ــ التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر الكلاباذي تحقيق أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت ط ١/١٤١٣هـ .

٣٣ ــ التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي مكتبة وهبة القاهرة ط ٦/١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م .

٣٤ ــ تلبيس إبليس لأبي الفرج بن الجوزي دراسة وتحقيق أحمد عثمان المزيد دار الوطن السعودية ط ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٢م ونسخة أخرى تحقيق د/ حامد طاهر دار الفجر القاهرة ط ١/١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م .

٣٥ ــ التيجانية دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة د/ علي بن محمد الدخيل الله دار العاصمة السعودية ط ٢/١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

٣٦ ــ جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الردّ على الصوفية د/ محمد علي الجوير مكتبة الرشد ناشرون ط ١/١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م .

٣٧ ــ حجة الله البالغة شاة ولي الله الدهلوي تحقيق عثمان جمعه ضميرية مكتبة الكوثر السعودية ط ١/١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م .

٣٨ ــ الحركة الصوفية في الإسلام د/ محمد علي أبو ريّان دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩٤م .

٣٩ ــ حل الرموز ومفاتيح الكنوز الشيخ ابن غانم المقدسي ط ذ المكتبة التجارية طنطا د/ت .

٤٠ ــ الحلاج أزمة فكر وأزمة إصلاح د/ محمد إبراهيم الفيومي مكتبة الأنجلو ط ١/١٩٩٩م .

٤١ ــ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني دار الكتب العلمية بيروت د/ت

٤٢ ــ الحياة الروحية في الإسلام د/ مصطفى حلمي ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٤م .
٤٣ ــ الختمية العقيدة والتاريخ والمنهج محمد أحمد حامد خير دار المأمون الخرطوم السودان د/ت .
٤٤ ــ الختمية أصولها التاريخية وأهم تعاليمها د/ أحمد محمد أحمد جلي دار خضر للطباعة والنشر بيروت لبنان ط ١/١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م .
٤٥ ــ الخطط التوفيقية على باشا مبارك دار الكتب المصرية القاهرة ط ٢/١٩٩٨م .
٤٦ ــ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمولى محمد المحبي دار صادر بيروت .
٤٧ ــ دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين ط مركز الشارقة للإبداع الفكري ط ١/١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م .
٤٨ ــ رسائل من التراث الصوفي في لبش الخرقة تقديم وتحقيق إحسان ذا نون الثامري وزميله دار الرازي الأردن ط ١/١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٢م .
٤٩ ــ الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري تحقيق د/ عبد الحليم محمود دار الكتب الحديثة القاهرة د/ت .
٥٠ ــ الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة بيروت لبنان د/ت .
٥١ ــ الرسالة اللدنية للإمام أبي حامد الغزالي ط القاهرة ١٣٥٣هـ .
٥٢ ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلاّمة الآلوسي البغدادي دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان د/ت .

٥٣ ــ السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة للشيخ محمد بن عبد الله بن حميد النجدي تحقيق د/ بكر أبو زيد مؤسسة الرسالة بيروت ط ١/١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م .

٥٤ ــ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لأبي الفضل محمد بن خليل المرادي دار الكتاب الإسلامي القاهرة د/ت .

٥٥ ــ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي مؤسسة الرسالة بيروت ط ١١/١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

٥٦ ــ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية الشيخ محمد بن محمد مخلوف دار الكتاب العربي لبنان د/ت .

٥٧ ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

٥٨ ــ شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ط دار الكتب الحديثة القاهرة د/ت .

٥٩ ــ شطحات الصوفية د/ عبد الرحمن بدوي ط وكالة المطبوعات الكويت ٢/١٩٧٦م .

٦٠ ــ شفاء السائل وتهذيب المسائل لعبد الرحمن بن خلدون تحقيق ودراسة محمد تاويت الطنجي ط ١ إسطنبول ١٩٥٧م .

٦١ ــ الصحاح في اللغة والعلوم تجديد صحاح اللغة للعلامة الجوهري إعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي دار الحضارة العربية بيروت لبنان ط ١/١٩٧٥م .

٦٢ ــ صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي د/ كامل الشيبي دار المناهل للطباعة والنشر بيروت ط ١/١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م .

٦٣ ــ الصلة بين التصوف والتشيع د/ كامل الشيبي دار الأندلس للطباعة والنشر لبنان ط ٣/١٩٨٢م .

٦٤ ــ الصوفية سميح عاطف الزين المكتبة العالمية للكتاب دار الكتاب العالمي بيروت لبنان ط ٤/١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م .

٦٥ ــ صيد الخاطر لأبي الفرج بن الجوزي تحقيق د/ محمد السيد محمد وزميله ط دار الحديث القاهرة ط ١/١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م .

٦٦ ــ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي دار إحياء الكتب العربية الحلبي القاهرة .

٦٧ ــ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي تحقيق نور الدين شربية ط مكتبة الخانجي القاهرة ط ٣/١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م .

٦٨ ــ الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها صلاح مؤيد العقبي دار البراق بيروت لبنان ٢٠٠٢م .

٦٩ ــ الطريقة الشاذلية عبد المغيث مصطفى دار إقرأ دمشق ط ١/١٤٢٧هـ ــ ٢٠٠٣م .

٧٠ ــ الظاهر والباطن فلسفة التأويل في الديانات السماوية أحمد علي زهرة ط نينوي للدراسات والنشر والتوزيع ط ١/٢٠٠٥م .

٧١ ــ العبر في خبر من غبر للإمام الذهبي تحقيق محمد السعيد زغلول ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١/١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٩م.

٧٢ ــ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي تحقيق فؤاد سيد ط القاهرة ١٣٨١هـ ــ ١٩٦٢م .

٧٣ ــ العلاقة بين الفقه والتصوف د/ محمد سالم ولد الأمين بحث على شبكة الانترنت موقع التصوف الإسلامي .

٧٤ ــ عوارف المعارف للسهروردي ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ط دار المعارف بيروت لبنان د/ت .

٧٥ ــ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة منشورات مكتبة الحياة بيروت لبنان ط ١٩٦٥م .

٧٦ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ط مكتبة العبيكان السعودية ط ٢/١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٥م .

٧٧ ــ الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي تحقيق وتعليق د/ عثمان يحيي ومراجعة د/ إبراهيم مدكور ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م .

٧٨ ــ الفرق بين الفرق للبغدادي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية صيدا بيروت لبنان د/ت .

٧٩ ــ الفصوص محي الدين بن عربي تقديم وتعليق د/ أبو العلا عفيفي دار الفكر العربي القاهرة د/ت .

٨٠ ــ الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ط الحرمين القاهرة ط ٤/١٤١٠هـ ــ ١٩٨٩م .

٨١ ــ الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي د/ أحمد محمود صبحي دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ٢٠٠٠م .

٨٢ ــ الفلسفة الصوفية في الإسلام د/ عبد القادر محمود دار الفكر العربي القاهرة ط ١/١٩٦٧م .

٨٣ ــ الفهرست لابن النديم روائع التراث العربي بيروت لبنان ط ١٩٦٤م .

٨٤ ــ في التصوف الإسلامي ر . ا . نيكلسون ترجمة د/ أبو العلا عفيفي ط لجنة التأليف والترجمة القاهرة ط ١٩٤٩م ونسخة أخرى تحقيق

نور الدين شريبة ط الخانجي ٢/١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠م .

٨٥ ـ في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق د/ إبراهيم مدكور دار المعارف القاهرة / ١٩٧٦م .

٨٦ ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لمحمد بن طولون الصالحي الحنفي تحقيق محمد أحمد دهمان ط ١/١٤٠٠هـ .

٨٧ ـ قواعد التصوف الشيخ أحمد زروق تحقيق محمد زهري النجار المكتبة الأزهرية للتراث د/ت . ونسخة أخرى تحقيق عثمان الحويمدي دار القلم بيروت لبنان ط ١/١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .

٨٨ ـ قوت القلوب لأبي الفرج المكي ط مطبعة الأنوار المحمدية القاهرة د/ت .

٨٩ ـ كتاب أخبار الحلاج لويس ماسينيون وبول كراوس دار التكوين دمشق ط٢٠٠٦م .

٩٠ ـ كتاب ابن عربي الصوفي في ميزان البحث والتحقيق عبد الرحمن بن حبيب الله السندي نشر وتوزيع دار البنخاري المدينة المنورة ط ١/١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

٩١ ـ الكتاب التذكاري محي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة د/ إبراهيم مدكور دار الكتاب العربي ط ١٩٦٩م .

٩٢ ـ كشف الغمة عن جميع الأمة الشيخ عبد الوهاب الشعراني ط مطبعة الحلبي القاهرة ط الأخيرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م .

٩٣ ـ كشف المحجوب للهجوري ترجمة د/ إسعاد عبد الهادي قنديل ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة /١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م

٩٤ ـ الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية الشيخ عبد الرؤف المناوي تحقيق د/ عبد الحميد صالح حمدان المكتبة الأزهرية

للتراث القاهرة د/ت .

٩٥ ــ الكواكب الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد بن أحمد ابن عبد الهادي الحنبلي تقديم الشيخ علي صبح المدني ط المدني مؤسسة السعودية مصر د/ت .

٩٦ ــ الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي تحقيق جبرائيل سليمان والناشر محمد أمين دمج بيروت لبنان .

٩٧ ــ لسان العرب جمال الدين بن منظور ط دار الحديث القاهرة ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م .

٩٨ ــ لسان الميزان للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني دار الفكر بيروت لبنان ط ١٤٠٧/١هـ ــ ١٩٨٧م .

٩٩ ــ لطائف المنن والأخلاق في وجوه التحدث بنعمة الله على الإطلاق الشيخ عبد الوهاب الشعراني مكتبة عالم الفكر القاهرة ط ٢/د.ت

١٠٠ ــ اللمع لأبي نصر السراج الطوسي تحقيق وتعليق د/ عبد الحليم محمود وطه سرور دار الكتب الحديثة القاهرة ط ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦٠م .

١٠١ ــ لوامع الأنوار في طبقات الأخيار المشهور بالطبقات الكبرى الشيخ عبد الوهاب الشعراني تحقيق عبد الرحمن حسن محمود مكتبة الآداب القاهرة ط ١٤١٤/١هـ ــ ١٩٩٣م .

١٠٢ ــ مجموعة رسائل ابن عابدين لابن عابدين ط عالم الكتب بيروت لبنان د/ت .

١٠٣ ــ مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن ابن قاسم مكتبة المعارف الرباط المغرب .

١٠٤ ــ محي الدين بن عربي ط عبد الباقي سرور مكتبة الأنجلو المصرية ط ١٩٥٥/٢م .

١٠٥ ــ مختار الصحاح محمد بن أبي بكر الرازي الناشر دار الكتاب العربي بيروت ط ١٩٦٧/١م .

١٠٦ ــ مختصر طبقات الحنابلة الشيخ محمد جميل بن عمر البغدادي المعروف بابن الشطي دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط ١٤٠٦/١هـ .

١٠٧ ــ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية دار الحديث القاهرة د/ت .

١٠٨ ــ المدخل إلى علم التصوف د/ أبو الوفا التفتازاني دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ط ١ ١٩٧٩/٣م .

١٠٩ ــ مشكاة الأنوار للإمام الغزالي مكتبة الجندي القاهرة د/ت .

١١٠ ــ المصادر العامة للتلقي عند الصوفية صادق سليم صادق مكتبة الرشد ناشرون ط ١٤١٥/١هـ .

١١١ ــ مصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي لبرهان الدين البقاعي مكتبة المؤيد الرياض د/ت .

١١٢ ــ معالم الفلسفة الإسلامية محمد جواد مغنية دار القلم بيروت لبنان ط ١٩٧٣/٢م .

١١٣ ــ معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي الرومي تحقيق د/ إحسان عباس دار الغرب الإسلامي بيروت ط ١٩٩٣/١م .

١١٤ ــ معجم مصطلحات الصوفية ممدوح الزوبي دار الجيل بيروت لبنان ط ١/ ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م .

١١٥ ــ معجم مصطلحات الصوفية د/ عبد المنعم الحفني دار المسيرة ط بيروت لبنان ط ٢/١٩٨٧م .

١١٦ ــ معجم مصنفات الحنابلة د/ عبد الله الطريفي ط الأولى ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م .

١١٧ ــ معجم المؤلفين عمر رضا كحالة تحقيق مكتب التراث لمؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط ١/١٤٢٤هـ ــ ١٩٩٣م .

١١٨ ــ المعرفة عند الصوفية مدخل نفسي د/ محمود قمبر بحث منشور في حولية مكلية التربية قطر ع ٥/١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م .

١١٩ ــ مفتاح السعادة ومصباح السيادة لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة تحقيق د/ كامل بكري وزميلة دار الكتب الحديثة القاهرة د/ت .

١٢٠ ــ مقارنة بين الغزالي وابن تيمية د/ محمد رشاد سالم دار القلم الكويت ط/ ١٤٠٠هـ ــ ١٩٩٨م .

١٢١ ــ مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون تقديم د/ محمد الإسكندراني الناشر دار الكتاب العربي ط ١/١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م .

١٢٢ ــ مناهج البحث عند مفكري المسلمين واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي د/ علي سامي النشار دار النهضة العربية بيروت لبنان ط ٣/١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م .

١٢٣ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج بن الجوزي دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

١٢٤ ــ المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية لأبي العباس أحمد بن مصطفى المعروف بابن علويه المستغانمي تحقيق سعود القواص دار ابن زيدون للطباعة والنشر ط الأولى . ٥٠٣

١٢٥ ــ المنخول من تعليقات الأصول للإمام أبي حامد الغزالي تحقيق محمد حسن هيتو دار الفكر المعاصر بيروت ط ٣/١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

١٢٦ ــ المنقذ من الضلال للغزالي تحقيق د/ عبد الحليم محمود ط مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٥م ونسخة أخرى ط دار الكتب الحديثة القاهرة .

١٢٧ ــ منهاج السنة النبوية لابن تيمية تحقيق د/ محمد رشاد سالم ط ١/١٤٠٦هـ .

١٢٨ ــ منهج البحث عن المعرفة عند الإمام الغزالي د/سعيد باسيل دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان .

١٢٩ ــ منهج البحث عن اليقين بين السلف والصوفية د/ عبد المقصود عبد الغني مكتبة الزهراء القاهرة ١٩٩٣م .

١٣٠ ــ الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي تحقيق الشيخ محمد عبد الله دراز دار المعرفة بيروت لبنان ط ٣/١٣٧٥هـ ــ ١٩٧٥م .

١٣١ ــ مواقف الخلاف بين الفقهاء والصوفية د/ نظلة جبور بحث في مجلة الرسالة الإسلامية وزارة الأوقاف العراقية ع ١٨٢ ــ ١٨٣ / ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م .

١٣٢ ــ الموسوعة الصوفية د/ عبد المنعم الحفني ط مكتبة مدبولي القاهرة ط الخامسة ٢٠٠٦م .

١٣٣ ــ موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان الشيخ محمد الكسنزان الحسني دار المحبة دمشق ــ ودار آية بيروت لبنان ط الأولى .

١٣٤ــ موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية الشيخ محمد عبد الله المغراوي ط المكتبة الإسلامية القاهرة د/ت ط ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م .

١٣٥ــ نشأة الفلسفة للصوفية وتطورها د/ عرفان عبد الحميد فتاح ط المكتب الإسلامي ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م .

١٣٦ ــ النصوص في مصطلحات التصوف الأستاذ محمد غازي عرابي دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ١٩٨٥م .

١٣٧ ــ منطق الطير لفريد الدين العطار تقديم وتحقيق د/ بديع جمعه ط المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة ١٩٩٣م .

١٣٨ ــ نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة د/ راجح عبد الحميد الكردي ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط ١/١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م .

١٣٩ ــ نظرات في معتقدات ابن عربي د/ كمال محمد عيسى دار المجمع للنشر والتوزيع جدة السعودية ط ٢/١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .

١٤٠ ــ النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل لكمال الدين محمد الغزي العامري تحقيق وجمع محمد مطيع الحافظ وزميله دار الفكر ١٤٠٢هـ .

١٤١ ــ وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق د/ إحسان عباس دار صادر بيروت لبنان د/ت .

١٤٢ ــ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشيخ عبد الوهاب الشعراني ط الحلبي القاهرة .

## الفهرس الإجمالي


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| ــ المقدمة | ٣ |
| ــ المبحث الأول : تعريف الظاهر والباطن في اللغة والاصطلاح | ٧ |
| ــ المبحث الثاني : الأدلة على ثبوت علمي الظاهر والباطن والرد على المنكرين | ٢٢ |
| ــ المبحث الثالث : منهج الفقهاء والصوفية | ٣٦ |
| ــ المبحث الرابع : الصراع بين الفقهاء والصوفية | ٦٤ |
| ــ المبحث الخامس : ضحايا الصراع من الصوفية | ٩٥ |
| ــ المبحث السادس : إمكانية اللقاء بين الفريقين | ١٣٥ |
| ــ الخاتمة : وفيها أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال البحث | ١٨٣ |
| والحمد لله رب العالمين | |